

هجرة الرسول وصحابته
في
القرآن والسنة

أحمد عبد الغنى النجوى (المجلد)



٢٨٢ •

هجرة الرسول وصحابه في القرآن والسنة

أحمد عبد الغني النجوي الجمل

هذا الكتاب في الأصل بحث علمي نال به
المؤلف درجة الماجستير بامتياز من كلية أصول
الدين — جامعة الأزهر — بالقاهرة .

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة .

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المراجعة لكلية الآداب ت : ٢٤٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٢٠

فروع المنصورة : أمام كلية الطب ت : ٢٤٧٧٢٣ من . ب . ٧٢٠ تلس DWFA UN 24004

فروع القاهرة : ٤١ ش شريف ت : ٢٩٧٧٩٩٧ / ٢٩٢٤٥١٨ / ٢٩٢٤٦٠٦



إهداء

إلى اللّٰذين أعطياي الكثير ، لا يرُجوان جزاء
ولا شكوراً ، وأملهما أن يرياي دائماً موفقاً ، إلى والدَيَّ
أهلى الفضل علىّ ، بارك الله في عمرهما وجزاهما عنى خير
الجزاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

وفاء الطالب يقتضي أن أشكر لأستاذي الدكتور :
إبراهيم عبد الرحمن محمد خليفة إرشاده ورعايته وإقباله على
كلما سعت إليه أستصوب نظرة ، وأستفتح مغلقاً ، فكان
يكفيني بعلمه وفضله وسعة صدره خجل السائل .

وأنا — والرسالة بين يدي قارئها — لا أرتب عليه من
زلى ما أرتب على نفسي ، فإنه لم يأل جهداً في توجيهي أولاً
وآخرأ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على سيد الخلق سيدنا محمد بن عبد الله الذى بعثه ربه رحمة للعالمين وأنزل عليه القرآن الكريم ، فهدى به الناس من ضلالة ، وعلمهم من جهالة ، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فسيظل التاريخ يسجل إلى الأبد ، أن الهجرة المحمدية حدث جليل من أبرز أحداثه ذكراً ، وأخطرها شأناً ، وأعمقها معنى ، وأبعدها أثراً .

وستظل الهجرة معيناً لا ينضب أبداً ، لأعذب المعانى ، وأصفى المبادئ ، وأسمى القيم ، لأنها تعد من الأحداث الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية فكانت خاتمة لمرحلة كفاح من أجل الحق — وهو كلمة الله وحده — من دعاة لم يعتمدوا إلا على الإيمان بهذا الحق وحده وعلى أن النصر لهم حتماً في النهاية ، فلم يكن المسلمون طيلة السنوات التى قضوها بمكة قبل الهجرة على حال من القوة العددية أو المادية ، ولم يكونوا فى مأمن من الخصومة العنيفة غير الشريفة من أعدائهم ، بل كان عددهم قلة ، وحالهم ضعفاً ، ووضعهم فى الحياة العامة وضع المخاطر ولكن إيمانهم وحده هو الذى جعلهم يحتملون هذا اللون القاتم المهان من الحياة هذه السنوات العديدة فى كفاحهم من أجل الحق .

وكما كانت الهجرة خاتمة لهذه المرحلة المريرة فى الكفاح من أجل الحق كانت بداية لمرحلة ثانية ، غلبت عليها قوة العدد والعدة عن ذى قبل بجانب قوة

الإيمان المستمرة ، التي لم تفارق الكفاح من أجل الحق حتى انتصر ، ودخل
الناس في دين الله أفواجا .

الهجرة إذن صورة مميزة من صور الكفاح في سبيل الحق ، ومظهر للإيمان
القوى به . لم تكن إلا صدى لبلاغ الأذى مبلغه من المهاجرين ، وصدى آخر
لقوة احتماهم لهذا الأذى وقوة صبرهم على الضيم والمكاره .

إن الهجرة النبوية كانت منطلقاً جديداً خصباً للدعوة الإسلامية ونشرها
في أنحاء العالم الواسع شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . حتى أصبحت كلمة الله هي
العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وما ظنك بحدث أكسب المسلمين قوة
ومنعة وأكسبهم نصراً على أنفسهم وعلى أعدائهم وعلى أهوائهم ، وكشف عن
مواطن العظمة في أولئك الكبار من أصحاب النبي ﷺ وفتح للدعوة
الإسلامية فتحاً ميبناً ؛ فاتسع رحابها وانتشر عبيرها ، وأصبح الناس يدخلون في
دين الله أفواجا ، ويتسارعون في الالتحاق بالأمة الإسلامية والاتصال بصاحب
الدعوة ينهلون من صافي المعين وأصيل المورد الكريم ، وكان انتصاراً للمبادئ
الإنسانية العليا ، وكان سبباً لتكوين دولة إسلامية لها أرضها وشعبها ومبادئها
وكان وسيلة لفضح مؤامرات اليهود وكشف خبيثتهم وإبراز وسائلهم الخبيثة ،
وأبرز عفن هذه الوثنية الحمقاء وكشف عن تفاهة أولئك المتعاضمين من سادات
مكة الذين ظهروا على حقيقتهم عندما كشفها الصراع بين الحق والباطل ، إلى
غير ذلك من المهام الجسام والغايات العظام التي لو تيسر واحد منها لكان
أصدق شاهد على جلاله الحدث واستحقاقه من الباحثين أعظم حظ من الرعاية
وبذل صادق الجهد في التعرف على أبعاده والانتفاع بحكمته وعبرته ، فكيف لو
توفر لهذا الحدث العظيم — أعني حدث الهجرة الشريفة — كل هذه الغايات
وغيرها كثير .

لهذا كله فقد رأيت مستعينا بالله تعالى أن أتناول هذا الحدث بما يستحقه
من البحث والدراسة تناوياً تتجلى منه عبره العظام وحكمه البالغات .
وبالله التوفيق .

وهذه خطة الرسالة

المقدمة : أهمية الموضوع — سبب اختيار الموضوع .

تمهيد : ويشتمل على مبحثين :

الأول : ورود مادة هجر في لغة العرب .

الثاني : هجرة مَنْ قبله ﷺ من الأنبياء .

الباب الأول : كيف كان موقف المشركين من دعوة الإسلام هو الحامل لأهلها على الهجرة .

الفصل الأول : الأسباب التي جعلت المشركين يقاومون الإسلام .

الفصل الثاني : الوسائل التي استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية .

الباب الثاني : هجرة الصحابة — رضوان الله عليهم — إلى الحبشة .

الفصل الأول : الهجرة الأولى وما وقع فيها .

الفصل الثاني : الهجرة الثانية وما وقع فيها أيضاً .

الباب الثالث : هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة .

الفصل الأول : طور الإعداد للهجرة .

الفصل الثاني : تنفيذ الهجرة .

الفصل الثالث : صفات المهاجرين .

الفصل الرابع : النتائج المترتبة على الهجرة .

الفصل الخامس : أحكام الهجرة .

الخاتمة : عبرٌ مستخلصة .

وبعد .

فهذه كلمة موجزة عن موضوع الرسالة ، والدوافع التي حفزتني إلى اختياره
لخطة التي سرت عليها في بحثه ودراسته .

هذا وأرجو أن أكون — بهذه الرسالة — قد أضفت إلى العلم شيئاً جديداً ،
وقدمت إلى مكتبة التفسير وعلوم القرآن بحثاً جاداً .

فإن كنت قد أصبت في بحثي هذا فذلك من فضل الله وعظيم توفيقه وإن
كنت قد أخطأت فذلك مني ومن الشيطان ، وأسأل الله — سبحانه وتعالى — أن
يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يرزقني حسن القبول ، وأن يهيئ لي
من أمري رشداً ، إن ربي سميع مجيب .

أبو محمد

أحمد عبد الغنى محمد النجولى الجمل

تمهيد

- المبحث الأول : موردُ مادة هَجَرَ في لغة العرب .
- المبحث الثاني : هجرة من قبله ﷺ من الأنبياء .

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول

الاستعمال اللغوي لمادة هجر

الهجرة في الأصل الاسم من الهَجْر ضد الوصل : يقال : قد هَجَرَهُ هَجْرًا ، وهَجْرَانًا ثم غلب على الخروج من أرض إلى أرض وترك الأولى للثانية^(١) ، وقد جعل ابن فارس لمادة « هجر » أصليين : أحدهما : يدل على القطع : والآخر : يدل على الوصل .

قال :

« والهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع ، والآخر على شد الشيء وربطه^(٢) » ثم أخذ يمثل للاستعمال الأول قال :

فالأول الهَجْر : ضد الوصل ، وكذلك الهَجْران ، وهاجر القوم من دار إلى دار تركوا الأولى للثانية ، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة .

(١) راجع النهاية في غريب الحديث والأثر : لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ٤ / ٢٣٩ ط بالمطبعة العثمانية ١٣١١ هـ ، تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٢ / ٨٥١ تحقيق الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار . دار العلم للملايين . ط ثانية بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، لسان العرب لابن منظور مادة هجر . ط دار المعارف ، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٣ / ٦١١ مع ملاحظة أن استعمال مادة « هجر » في الهجر الذي هو ضد الوصل استعمال عام ، واستعملها في مجرى الخروج من أرض إلى أرض استعمال خاص .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ٣٤ تحقيق / عبد السلام هارون . ط . ثانية بمطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ .

وتهَجَّرَ الرجل تشبه بالمهاجرين . وفي الحديث : « هاجروا ولا تَهَجُّروا »
أى أخلصوا الهَجْرَةَ لله ولا تتشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم (١) .

ومن الباب : الهَجْرُ : الهذيان . يقال : هَجَرَ الرجل . والهَجْرُ الإفحاش في
المنطق . يقال : أهجر الرجل في منطقته (٢) .

قال أبو عبيد : في حديث النبي ﷺ : « وإنى كنت نهيتكم عن زيارة
القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْرًا » (٣) .

قال أبو عبيد : قال الكسائي عن الأصمعي وغيرهما : قال : الهَجْرُ الإفحاش
في المنطق والخنا ونحوه . يقال منه : أهجر الرجل يُهَجِّرُ إهْجَارًا .

قال الشماخ :

كما جِدَّةُ الأعراق قال ابن ضَرَّة : عليها كلاماً جار فيه وأهْجَرًا (٤) وفي حديث
أبي سعيد الخدري أنه كان يقول لبنيه : « إذا طفتم بالبيت فلا تلغوا
ولا تُهَجِّروا » (٥) .

قال أبو عبيد : وجه الكلام عندي : تُهَجِّروا في هذا الموضع ، لأن
الإهْجَارَ ، كما أعلمتك من سوء المنطق وهو « الهَجْرُ » وأما الهَجْرُ في الكلام فإنه
الهَذْيَان مثل كلام المحموم والمبرسم يقال منه : هَجَرْتُ فأنا أهْجَرُ هَجْرًا
وهْجَرَانًا ، فأنا هَاجِرٌ ، والكلامُ مَهْجُورٌ (٦) .

(١) المرجع السابق ، النهاية : ٥ / ٢٤٥ ، الصحاح : ٢ / ٨٥١ .

(٢) المقاييس : ٦ / ٣٥ .

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد : — ٢ / ٦٣ ، طبعة مصورة عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بمحيدر

آباد ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ، النهاية : ٤ / ٢٤٠ .

(٤) البيت للشماخ بن ضرار التغلبي ، من بحر الطويل ، وانظر غريب الحديث لأبي عبيد : ٢ / ٦٣ ،
والصحاح : ٢ / ٨٥١ ، اللسان : ٦ / ٤٦١٨ وهذا البيت يحمل صورة لمشي به في تشبيه تمثيل ونحن لم نعرف
هيئة المشبه التي لا بد وأن تكون مذكورة في بيت قبله : والصورة التي معنا هي صورة امرأة شريفة من معدن
شريف أساء إليها ابن ضرتها نكايه بها وتشهيراً بسمعتها فأشاع عنها أقوالاً جائرة لا تتورع عن الإفحاش الآثم .
والشاهد فيه استعمال أهجر بمعنى أفحش .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد : ٢ / ٢٦٣ ، النهاية : ٥ / ٢٤٦ .

(٦) غريب الحديث : ٢ / ٦٣ .

ورماه بالهاجرات ، وهى الفضائح ، وسُمى هذا كله ، لأنه من المهجور الذى لا خير فيه (١) .

ويقولون هذا شيء هَجْرٌ ، أى لا نظير له ، كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها (٢) .

قال الأزهرى : سمعت العرب تقول فى نعت كل شيء جاوز حده فى تمامه : إنه لمُهَجَّرٌ ، وناقاة مُهَجِّرةٌ ، إذا وصفت بالفراهة والحُسن ، وإنما سُمى ذلك إِهْجَاراً ، لأن ناعته يخرج فى نعته عن الحد المقارب المشاكل للمنعوت إلى نعت يفرط فيه ، فكأنه يهذى ويهجر (٣) .

قال : قال أبو عبيد قال أبو زيد : يقال للنخلة الطويلة : ذهبت هَجْراً ، أى طولاً وعظماً والمادة فى كل ما تقدم تدل على القطع ، وفى دلالتها على القطع إما تدل على قطع خاص وإما تدل على قطع عام .

فالأول : مطلق الخروج من أرض إلى أرض قال الأزهرى : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدينة . يقال : هاجر الرجل إذا فعل ذلك ، وكذلك كل مُخَلٍّ بمسكنه متنقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هاجر قومه ، وسُمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومسكنهم التى نشئوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ، ولا مال حين هاجروا إلى المدينة . فكل من فارق بلده من بدوى أو حضرى وسكن بلداً آخر فهو مهاجر .

والاسم منه الهَجْرَة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقاً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ (٤) .

(١) مقاييس اللغة ٦ / ٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تهذيب اللغة للأزهرى ٦ / ٤٣ تحقيق عبد السلام هارون وآخرين . ط الدار المصرية للترجمة والنشر .

(٤) من الآية ١٠٠ من سورة النساء ز وانظر تهذيب اللغة ٦ / ٤٢ ، واللسان ٦ / ٤٦١٦ ، تاج العروس ٣ / ٦١١ .

والثانى : — القطع العام — فعند استعمال المادة فى شىء فاق غيره من أفراد
نوعه

يقولون : هذا شىء هَجَرٌ ، أى لا نظير له ، كأنه من جودته ومباينته الأشياء
قد هجرها .

ويقولون : هذا أهجر من هذا أى أكرم ، وقد يقال فى كل شىء .

والهَجَرُ : الحوض الكبير سُمى به لأنه شىء يقطع للماء^(١) .

ونعود إلى ابن فارس لنناقشه فى رأيه الخاص بدلالة المادة على الوصل — وإن
كان قد ترك التمثيل له — متبعين ما ورد فى كتب اللغة مما يوهم دلالتها على
الوصل فمنها .

الهَجِير ، مثال الفِسْق : الدأب والعادة ، وكذلك الهَجِيرى ،
والإهَجِيرى .

يقال : ما زال ذاك هَجِيرَاهُ وإِهْجِيرَاهُ أى عادته وذأبه .

الأصمعى : الهَجَار : حبل يُشَدُّ فى رَسْعِ البعير ، ثم يُشَدُّ إلى جقوه . تقول
منه : هَجَرْتُ البعير أَهْجُرُهُ هَجْرًا .

وَهَجَارُ القوس : وترها . ويقال : المهجور : الفحل يشد رأسه إلى
رِجْلِهِ^(٢) .

هذه الأمثلة جعلت ابن فارس يتوهم دلالتها على الوصل وفيه نظر .

فما ورد مما ظاهره معنى الوصل يمكن أن يرد إلى المعنى الأصلى للمادة وهو
القطع ، فقولهم الهجير والهجيرى والإهجيرى بمعنى الدأب والعادة ، وقول من قال
إنها بمعنى الوصل لما فيها من المواصلة والمتابعة يمكن أن يرد إلى معنى القطع ، فإذا
قيل فلان هجيراه كذا أى عادته . تفهم على معنى أنه هجر كل مظاهر السلوك
ولزم هذه العادة فدأبه وعادته انقطاعه عما سواها .

(١) مقاييس اللغة ٦ / ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) الصحاح ٢ / ٨٥١ ، اللسان ٦ / ٤٦٢٠ مادة هجر .

أما قولهم : الهجّار بمعنى الحبل الذى يشد فى رسغ البعير ثم يشد إلى جقوه
ومنه هجرت البعير أهجره هجراً .

وهجار الفرس وترها ويقال المهجور الفحل يشد رأسه إلى رجله .

من نظر إلى معنى الشد والربط فنظرته سطحية إذ هذا الرباط ليس سوى
وسيلة تجعل البعير مهجوراً أى مقطوعاً عن غيره ، فكأنها آلة هجره أى قطعه عن
الحركة .

هذا ويرى بعض المحدثين^(١) إضافة وزن فعال إلى أوزان اسم الآلة القياسية
إلى جانب ما عده علماء اللغة من أوزانها القياسية الثلاثة المعروفة ، مفعّل
— كمبّرَد — مِقْفَال — كمحراث — مفعلة كمكلسة . واستأنس لهذا الرأى
بكثرة ما ورد على فعال مفيداً معنى الآلة مثل سقاء — وكاء — غطاء —
ضيماد — لحاف — رباط — جراب — لجام — خِطام ، هِجار^(٢) .

على أنه يجب أن نعلم أن هناك فرقاً بين الهَجْر والهَجْرَة — فالهجرة اسم
بمعنى المهاجرة ، فالهجرة اسم مصدر ، والنبي ﷺ لم يهجر مكة وإنما هاجر منها .
فالمهاجرة فيها معاناة أو مقاساة وصراع داخلى ناشئ من صيغة التفاعل .
ويؤكد هذا أن النبي ﷺ قال عند مهاجره والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض
الله إلى ولولا ألى أُخْرِجْتُ منك ما خرجت^(٣) .

والمُهَاجِر — المكان الذى يهاجر إليه فالشام مُهَاجِرٌ إبراهيم ، والمدينة مُهَاجِرٌ
النبي ﷺ ، فالمُهَاجِر هنا مصدر ميمى بمعنى المهاجرة أو الهجرة .

ويمكن أن تكون الهَجْرَة اسم هيئة من الهَجْر ، فى هجر مخصوص على هيئة
مخصوصة هى هيئة المهاجرة .

(١) راجع ص ٢٥٠ من مجلة المجمع اللغوى ، العدد الخاص بالبحوث والمحاضرات التى أُلقيت فى مؤتمر
الدورة التاسعة والعشرين ١٩٦٢ — ١٩٦٣ وكذلك ص ١٩ من كتابه الذى أخرجه ١٩٦٩ باسم « كتاب
فى أصول اللغة » عن كتاب النحو الوالى للأستاذ الدكتور عباس حسن ج ٣ ص ٣٣٧ : ٣٣٨ ط نجاسة
دار المعارف ١٩٨٠ بتصرف .

(٢) آلة قطع البعير عن الحركة .

(٣) سنن ابن ماجه كتاب المناسك باب فضل مكة . ط . عيسى الحلبي ، الجامع الصحيح . وهو سنن
الترمذى لأبى عيسى محمد بن محمد بن عيسى بن سورة ، كتاب المناقب باب فضل مكة قال أبو عيسى : هذا حديث
حسن غريب صحيح . ط . مصطفى البابى الحلبي بتحقيق الأستاذ / أحمد محمد شاكر .

المبحث الثاني

هجرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

لم يكن سيدنا محمد ﷺ أول من هاجر من الرسل ، ولم تكن هجرته عليه الصلاة والسلام هي الهجرة الوحيدة في تاريخ الرسل والأنبياء ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه مكة من أجل الدعوة الإسلامية ، وإيجاداً لبيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها ، بل تزود عنها ، فإن بعض إخوانه الأنبياء « عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليمات قد هاجروا قبله من أوطانهم لينشر كل منهم دعوته .

ومن الأمور التي يسلم بها كل باحث ما رآه الأستاذ محمد السمان وعبر عنه بقوله : « إن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها ، بل قد يعوق مسارها ، ويشل حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر فلا تملك أن تتنفس الهواء الطلق الذي هو ضروري لسلامتها وبقائها ، وقد جرت سنة الله في خلقه ، أن يقبل البعض من خلقه على دعوات رسله وأنبيائه فتشرق نفوسهم لهدايته ، وتشف أرواحهم وتنشرح صدورهم ، وتتفتح عقولهم ، وتستجيب قلوبهم ، وأن يُعرض البعض الآخر عن دعوات أنبيائه ورسله ، فتتبدل نفوسهم إزاء هدايته بسحب الغي والضلال ، وتتبدل عقولهم ، وتنقبض صدورهم ، وتغلق أسماعهم فينشأ صراع بين الحق والباطل ، ونضال بين الهدى والضلال . وتخضع القضية بعد ذلك لشيء من الموازنة . فإذا كانت الفئة المؤمنة من أتباع الحق من القلة بحيث تصبح ولا تملك إلا أن تظل مستضعفة في الأرض ، مغلوبة على أمرها ، تتلقى من

الفئة الكافرة من أشياع الباطل ضربات لا هوادة فيها ولا رحمة ، وصفعات من السخرية لا أدب فيها ولا عفة ، فلن يكون أمام الفئة المؤمنة إلا أن ترحل لتتمكن من الانطلاق في أرض أخرى .

وقد يكون لدى الفئة المؤمنة من الإيمان ما يجعلها تتحمل كل صنوف الأذى من أجل دعوتها ، ومن اليقين ما يجعلها تصمد أمام كل ألوان البطش والإرهاب ، ومن الطمع في رضا الله « سبحانه وتعالى » ورحمته ما يجعلها مستعدة للتضحية بأرواحها وأموالها ، لكن هذه الفئة المؤمنة في مجموعها ليست إلا بشراً لطاقة احتماله حدود ، إذن فالحل العملي هو أن تسعى إلى الخلاص بإيمانها بالله « عز وجل » .

أما إذا كانت الفئة المؤمنة من الكثرة والقوة بحيث تستطيع — وهي ممكنة في الأرض — أن تقف بأقدامها فوق أرض صلبة ، وأن تحمي نفسها ودعوتها من كل كيد يدبر لها ، ومن كل شر يراد بها ، وأن تدعو إلى الله وهي مرهوبة الجانب ، فلن يكون هناك مبرر لأن تترك الأرض التي نشأت فوقها ، فسوف يكون لديها القدرة على أن تسلط أشعة الهداية على المنطقة التي تعيش فيها .

هذه الموازنة كانت محل نظر في سائر دعوات الأنبياء والرسل قبل محمد صلوات الله عليه وقد قص الله علينا في كتابه العزيز نماذج من هجرات الرسل « صلوات الله عليهم » لتبدو لنا — في وضوح — سنة من سنن الله في شأن الدعوات ، ليأخذ بها من بعدهم كل داعية إلى الله بل كل مؤمن بالله عز وجل ، هذه السنة المقررة من سنن الله ، هي تضحية المؤمن بأعز ما يعتز به في حياته من أجل إيمانه وعزته وكيانه بأسره ، فإذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته ، واستخف بكيانه ووجوده ، واعتدى على مروءته وكرامته ، وعجز عن أن يبذل دمه وروحه فداءً لإيمانه ، هاجر إلى حيث يجد الأمن ، والبيئة الصحية التي تنفس فيها دعوته (١) .

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ٣٣ : ٣٥ — سلسلة مجمع البحوث الإسلامية — السنة الرابعة — الكتاب السادس والأربعون ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

نماذج لهجرات بعض الأنبياء السابقين

هجرة سيدنا إبراهيم :

لقد قام سيدنا إبراهيم يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له فبدأ دعوته مع أبيه ، بلهجة تسيل أدباً ورقة ، يهديه بها صراطاً مستقيماً ، فأشار إلى الأصنام مبيناً أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تشعر بعابد يعبدها أو عاص يعصمها ، ثم بين لأبيه أنه ليس مخترعاً للدعوة ، وأنها من لدن على قدير ، وأنه قد تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه ، وأنه لا ضرر إذا اتبع ملة ولده أو عمل برأيه ، واختتم نصحه برجاء تقدم به إلى والده ، أن يخذو حذوه ، ويسلك سبيله ، وإلا فالطريق التي يسلكها غير طريق الهدى ، هي طريق ملأى بالأشواك ، وهي طريق الشيطان الرجيم .

ولكن أباه رفض الدعوة ، بل وهدده إن لم ينته عن دعوته هذه ليرجمه وليهجرنه ملياً ، فما كان من الخليل إبراهيم — تأدباً مع أبيه — إلا أن يدعو له بالمغفرة ، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة مريم :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تُنْتِهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (١) .

(١) سورة مريم من ٤١ : ٤٨ .

تحطيم سيدنا إبراهيم للأصنام :

بذل سيدنا إبراهيم جهداً كبيراً مع قومه لصرفهم عن عبادة الأوثان والاتجاه إلى عبادة الله الواحد القهار ، إلا أن القوم ظلوا في طغيانهم يعمهون ، مما دفع الخليل إبراهيم أن يجرب معهم وسائل حسية ، ومن ثم فقد حطم الأصنام وترك كبيرهم ، لعل القوم يفكرون في الموقف الجديد ، أملاً في أن يهديهم الله سواء السبيل ، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعا ، ولا تمنع عنها ضرراً ، فضلاً عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم ، إلا أن هذه العقول المتحجرة ، لم تزد على أن لجأت إلى العنف لنصرة أصنامها ، ولم تجد لها مخرجاً من الموقف الجديد ، إلا أن تلقى بإبراهيم في نار ، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل ، وأنها الحل السديد لمشكلتهم ، مع هذا الذى سفه عقولهم وحطم أصنامهم دون أن يفكروا مرة في مقابلة الحجة بالحجة ، ودون أن يرجعوا إلى الحق ، ما دام الحق مع إبراهيم ، وتلك — وأيم الله — عادة من طمس الله على قلوبهم في كل زمان ومكان ، لا يعرفون إلا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة التى تبغى لهم الخير والفلاح .

ويكتب الله — جل وعلا — لخليله عليه السلام النجاة من القوم الكافرين ، بعد أن أعدوا العدة لإحراقه .

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ جُدَاداً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِلَهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَلَّاتِ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا

إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفَ لَكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿١﴾ .

هجرته « عليه الصلاة والسلام » إلى الشام :

وبعد ذلك بدأ إبراهيم « عليه الصلاة والسلام » يفقد الأمل في إيمان القوم ،
وبخاصة بعد المناظرة التي جرت بينه وبين الذي آتاه الله الملك .

وهنا يقرر إبراهيم الهجرة ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ (٢) .

أى مهاجر من بلد قومي ومولدى إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه
« سيهدين » فيما نويت إلى الصواب (٣) وكانت هجرته هذه إلى بلاد الشام إلى
الأرض المقدسة (٤) منها التي باركها الله « سبحانه وتعالى » قال عز وجل عنها
﴿ وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٥) ، وكان يرافقه في
هذه الهجرة زوجه سارة وابن أخيه لوط وزوجه (٦) ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمِّنْ لَهُ
لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٧) وسكن إبراهيم
ولوط في تلك الأنحاء ولكنه لم يطل به المقام بل كان ينتقل نحو الجنوب (٨) .

(١) سورة الأنبياء الآيات من ٥١ إلى ٧٠ .

(٢) سورة الصافات : آية ٩٩ .

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ٧ ص ٥٥٤١
بتصرف ط دار الشعب .

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عيسى ج ٣ ص ١٨٤ وما
بعدها ط عيسى البابي الحلبي .

(٥) سورة الأنبياء آية ٧١ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٨٥ بتصرف .

(٧) سورة العنكبوت آية ٢٦ .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٥٠ طبع ونشر دار الفكر العربي .

هجرته إلى مصر :

ويقيم الخليل بأرض الشام ما شاء الله له أن يقيم ، إلى أن عم القحط ، وشمل الجذب والغلاء ، وضافت سبل العيش فيها ، فرحل إبراهيم إلى مصر ، تصحبه زوجته سارة وهبط أرضها ، ثم أقام بها ما شاء الله أن يقيم ، وكان وادع النفس ، دمث الخلق ، لين العريكة ، طويل الأناة ، دعوباً على العمل ، لذلك كثر ماله ، ونمت أنعامه ، وارتفع ذكره^(١) غير أنه قد وقعت له في مصر حادثة فحواها : أن بعض أهل جبار مصر عندما رأى السيدة سارة وما تتمتع به من الحسن والبهاء فقال للجبار لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل الجبار إليها فأتى بها ، وكان سيدنا إبراهيم قد اتفق معها عند قدومهما إلى مصر أن يقول « إنها أختي وتقول هي إنه أختي » وعندما مثلت أمام الملك أراد أن ينال منها إلا أن الله « سبحانه وتعالى » حفظها منه ، عند ذلك أمر لها بأموال كثيرة كما أعطها السيدة هاجر . وفي ذلك يروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة « رضى الله عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم النبي ، عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات . ثنتين في ذات الله قوله « إني سقيم » وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة . فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة . وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار ، إن يعلم أنك امرأتى يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام . فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرى وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار . أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك . فأرسل إليها فأتى بها فقام إبراهيم « عليه السلام » إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها . فقبضت يده قبضة شديدة . فقال لها . ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى . فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعى الله أن يطلق يدى . فلك الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ودعا الذى جاء بها ، فقال له : إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر قال فأقبلت تمشى

(١) قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين ، ص ٥٣ وما بعدها بتصرف . ط دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبي .

فلما رآها إبراهيم « عليه السلام » انصرف فقال لها مهيم قالت خيراً كفى الله الفاجر وأخدم خادماً . قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بنى ماء السماء « (١) » .

وروى البخارى أيضاً عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الوارد في فصل القضاء يوم القيامة ، وهو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم ، وفيه أنه « حينما يأتون إبراهيم « عليه السلام » يطلبون منه ذلك فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات « (٢) » .

وهذان الحديثان السابقان ينسبان الكذب صراحة إلى إبراهيم « عليه السلام » فكيف تجوز هذه النقيصة على أبى الأنبياء « عليهم السلام » مع ما هو معلوم مقرر في أذهان أصاغر أهل العلم فضلاً عن أكابرهم من وجوب صفات أربع للأنبياء ، هى الصدق والأمانة والتبليغ والفتانة .

وللإجابة على ذلك يقول الإمام الفخر الرازى في تفسير قوله تعالى من سورة الأنبياء ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ .

« فإن قيل قوله : بل فعله كبيرهم كذب « والجواب » للناس فيه قولان . أحدهما « وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب ، وذكروا في الاعتذار عنه وجوهاً « أحدها » أن قصد إبراهيم « عليه السلام » لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمدى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له بل

(١) أخرجه الإمام البخارى في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ مرفوعاً وموقوفاً . وقال الحافظ ابن حجر : في الفتح ج ١٣ ص ١٣٢ إن ابن سيرين كان غالباً لا يصرح برفع كثير من حديثه ، وأخرجه الإمام مسلم مرفوعاً في كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ واللفظ المذكور هنا للإمام مسلم .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخارى في كتاب التفسير من عدة طرق في أبواب متعددة أخرجه في تفسير سورة البقرة عن أنس ، وفي تفسير سورة بنى إسرائيل عن أبى هريرة .

كتبته أنت . كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمرى أو المخرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر ، « وثانيهما » أن إبراهيم « عليه السلام » غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة ، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب في استهانتها بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ، « وثالثها » أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه ، وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف ، « ورابعها » أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يتبدىء كبيرهم هذا ، « وخامسها » أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يتبدىء فيقول هذا فاسألوهم ، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم ، « وسادسها » أن يكون في الكلام تقديم وتأخير ، كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين ، « وسابعها » قرأ محمد ابن السميع فلعله^(١) كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم ، « القول الثانى » وهو قول طائفة من أهل الحكايات . أن ذلك كذب ، واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى » .

قوله ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله لسارة هى أختى ، وفي خبر آخر « أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال : إني كذبت ثلاث كذبات » ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحاً لذاته ، فإن النبى « عليه السلام » إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان . وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب عليه . وإذا كان كذلك فأى بعد في أن يأذن الله « تعالى » في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو . واعلم أن هذا القول مرغوب عنه . أما الخبر الأول وهو الذى روه فلأن يضاف الكذب إلى رواه

(١) في المطبوعة التي بين أيدينا فعله والصواب من شرح الإمام نفسه كما ترى .

أولى من أن يضاف إلى الأنبياء « عليهم الصلاة والسلام » ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه ، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه ، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها ، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعارض على ما قال عليه السلام « إن في المعارض مندوحة عن الكذب »^(١) فأما قوله ﴿إني سقيم﴾ فلعلة كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه ، وأما قوله ﴿بل فعله كبيرهم﴾ فقد ظهر الجواب عنه .

وأما قوله لسارة : إنها أختي ، فالمراد أنها أخته في الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء « عليهم السلام » فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق^(٢) .

وقال رحمه الله عند هذا الموضع الذي وعد بالاستقصاء فيه من سورة الصافات كذلك ثم قال ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عاداتهم ، وذلك أنه أراد أن يكأيدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان « الأول » أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم « والثاني » أنه « عليه السلام » ما كان سقيماً فلما قال ﴿إني سقيم﴾ كان ذلك كذباً . واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوهاً كثيرة « الأول » أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتية سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار . فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال : ﴿إني سقيم﴾ فجعله عذراً في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقاً فيما قال . لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم ، « الوجه الثاني » في الجواب أن قوم إبراهيم « عليه السلام » كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور ، فلذلك نظر إبراهيم في

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب « المعارض مندوحة عن الكذب » في الترجمة .

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ٢٢ / ١٨٥ وما بعدها الطبعة الثانية بدار الكتب العلمية

بطهران .

النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها ، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو ، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال : ﴿ إني سقيم ﴾ سكنوا إلى قوله .

أما قوله ﴿ إني سقيم ﴾ فمعناه سأسقم كقوله ﴿ إنك ميت ﴾ أى ستموت « الوجه الثالث أى قوله ﴿ فنظر نظرة فى النجوم ﴾ هو قوله تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة ، وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ يعنى سقيم القلب غير عارف برى ، وكان ذلك قبل البلوغ ، « الوجه الرابع » قال ابن زيد كان له نجم مخصوص ، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ، ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال : ﴿ إني سقيم ﴾ أى هذا السقم واقع لا محالة ، « الوجه الخامس » أن قوله ﴿ إني سقيم ﴾ أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك ، قال تعالى لمحمد ﷺ ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ « الوجه السادس » فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله ﴿ إني سقيم ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقيم .

« الوجه السابع » قال بعضهم : ذلك القول عن إبراهيم « عليه السلام » كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي ﷺ أنه قال « ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب للراوى وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذاباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟ « الوجه الثامن » أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فإن الأشياء التى

تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى مفرقة ومنه نجوم الكتابة . والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله ﴿إني سقيم﴾ والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيماً كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم « عليه السلام » لما قال ﴿إني سقيم﴾ ولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في ألا يخرج اليوم فكان ذلك مراده (١)

وقال الحافظ ابن حجر « رحمه الله » في الفتح « قوله لم يكذب إبراهيم » عليه الصلاة والسلام « إلا ثلاث كذبات قال أبو البقاء : الجيد أن يقال بفتح الذال في الجمع لأنه جمع كذبة بسكون الذال وهو اسم لا صفة . لأنك تقول كذب كذبة كما تقول ركع ركعة ولو كان صفة لسكن في الجمع . وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم وذكر كذباته ، ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه وقال في آخره وزاد في قصة إبراهيم وذكر قوله في الكوكب — هذا روى — وقوله لآلهتهم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله ﴿إني سقيم﴾ انتهى . وقال القرطبي : وذكر الكوكب يقتضى أنها أربع وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل .

قلت : الذى يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله في الكوكب بدل قوله في سارة والذى اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قاله في جال الطفولية فلم يعدها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف ، وهذه طريقة ابن إسحاق . وقيل إنما قال بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذى يقصد به التوبيخ ، وقيل قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذى يتغير لا يصلح للربوبية وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخاً لقومه أو تهكماً بهم وهو المعتمد ، ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات ، وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذباً ؛ لأنه من باب المعارض المحتملة للأمرين فليس

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٦ ص ١٤٧ وما بعدها .

بكذب محض ، فقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ يحتمل أن يكون أراد إني سقيم أى سأسقم واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً ، ويحتمل أنه أراد إني سقيم بما قدر على من الموت أو سقيم الحجة على الخروج معكم . وحكى النووى عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمى فى ذلك الوقت وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ قال القرطبى : هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة وقطعاً لقومه فى قولهم إنها تضر وتنفع . وهذا الاستدلال يتجاوز فيه فى الشرط المتصل ولهذا أردف قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ بقوله : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ قال ابن قتيبة : معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا ، فالحاصل أنه مشروط بقوله : ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب وعن الكسائى أنه كان يقف عند قوله ﴿ بل فعله ﴾ أى فعله كائناً من كان ، ثم يتدىء كبيرهم هذا ، وهذا خبر مستقل ثم يقول فاسألوهم إلى آخره ولا يخفى تكلفته . وقوله هذه أختى يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته فى الإسلام كما سيأتى واضحاً . وقال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغى أن يكون موثقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ؟ وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع . وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم « عليه السلام » يعنى إطلاق الكذب على ذلك إلا فى حال شدة الخوف لعلومقامه ، وإلا فالكذب المحض فى مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما . وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تدم فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن فى مواضع وهذا منها (١) .

وأياً ما يكن الأمر فإن الظاهر أن هذه الحادثة والتي هى إحدى المواضع التى سمى فيها الحديثان الشريفان ما وقع من إبراهيم « عليه السلام » كذباً وأجاب عنه الفحوا ، بما قد رأيت . أقول :

الظاهر أن هذه الحادثة قد وقعت للخليل « عليه السلام » فى مصر كما سبق

(١) فتح الباري الحافظ أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ١٣ / ١٣٢ : ١٣٤ ط مكتبة الكليات الأزهرية

أن ذكرنا على ما اختاره السهيلي ومن قبله ابن هشام في التيجان، فمن ثم قدم الحافظ ابن حجر هذا القول في كلامه على غيره وحكى ذلك الغير في صورة التريض (١).

عودته ثانية إلى الشام :

وبعد أن مكث سيدنا إبراهيم « عليه السلام » في مصر مدة من الزمن رجع ثانية إلى فلسطين ومعه المال الوفير والرزق الكثير ، واستقر ثانية بها ، مع الفئة القليلة التي آمنت واستجابت لدعوته ، وكانت معه زوجته سارة وجاريتها المصرية « هاجر » وحينئذ أخذ إبراهيم « عليه السلام » يتم نشر دعوته ، ويقوم بأداء رسالته . وقد تركت هجرته لمصر آثارها العظيمة في نفسه ، لكثرة ما أفادته التجارب ومعاملة الناس . والحن الرهيبة التي تعرض لها في سفره وتجوّاله ، وطمعه وترحاله ، وتلك سنة الله — أبداً — مع المصطفين من عباده يصفى نفوسهم بما يتعرضون له من خطوب الزمن وتتابع الحن ليجعل منهم خير أسوة وأكرم قدوة على توالي العصور والأجيال (٢) .

هجرته بابنه إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة :

شاءت إرادة الله أن يهاجر سيدنا إبراهيم هجرة أخرى بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى الحجاز .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال :

« أول ما اتخذ النساء المنطق (٣) من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحَةٍ (٤) فوق زمزم في أعلى المسجد (٥) ، وليس بمكة يومئذ أحد

(١) انظر جميع ذلك في الفتح ٦ / ٣٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ١ / ١٥٠ بتصرف ، قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٥٣ بتصرف .

(٣) المنطق بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء وهو ما يشد به الوسط . ووقع في رواية ابن جريج التطق بضم النون والطاء وهو جمع نطق فتح الباري ١٣ / ١٤١ .

(٤) عند دوحه : بفتح المهملة وسكون الواو ثم مهمله الشجرة الكبيرة « السابق »

(٥) في أعلى المسجد : أى مكان المسجد لأنه لم يكن حينئذ بنى « السابق » .

وليس بها ماء^(١)، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى^(٢) إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية^(٣) حيث لا يروونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾^(٤).

ثم رجع سيدنا إبراهيم ثانية من الحجاز إلى فلسطين.

دعوة سيدنا لوط « عليه الصلاة والسلام » :

قلنا قبل ذلك أن سيدنا لوط « عليه الصلاة والسلام » آمن بسيدنا إبراهيم، ثم هاجر معه لنفس الأسباب التى حملت إبراهيم على الهجرة من وطنه ومسقط رأسه بالعراق إلى أرض الشام.

(١) وسقاء فيه ماء : السقاء بكسر أوله قرية صغيرة، وفي رواية إبراهيم بن نافع عن كثير التى بعد هذه الرواية « ومعها شئنة » بفتح المعجمة وتشديد النون وهى القرية العتيقة « السابق ».

(٢) ثم قفى إبراهيم : أى ولى راجعاً إلى الشام. وفي رواية ابن إسحاق فانصرف إبراهيم إلى أهله بالشام وترك إسماعيل وأمه عند البيت « السابق ».

(٣) الثنية : بفتح المثناة وكسر النون وتشديد التحتانية. وقوله « من طريق كداء » بفتح الكاف ممدود هو الموضوع الذى دخل النبى ﷺ مكة منه وهو معروف. ووقع في رواية الأصيلي : « البنية » بالموحدة بدل المثناة وهو تصحيف وضبط ابن الجوزى كدى بالضم القصر. وقال هى التى بأسفل مكة عند قعيقعان قال : لأنه وقع في الحديث أنهم نزلوا بأسفل مكة. قلت وذلك ليس بمائع أن يرجع من أعلى مكة فالصواب ما وقع في الأصول بفتح الكاف والمد « السابق ».

(٤) صحيح البخارى كتاب الأنبياء باب يزفون النسلان في المشى. يقول ابن حجر عند الكلام عن هذا الباب « تنبيه : وقع في رواية الحموى والكشميني قبل حديث أبى هريرة هذا ما صورته : « يزفون النسلان في المشى » وفي رواية المستملى والباقيين باب بغير ترجمة، وسقط ذلك من رواية النسفى، ووهم من وقع عنده باب يزفون النسلان فإنه كلام لا معنى له : والذى يظهر ترجيح ما وقع عند المستملى. وقوله باب بغير ترجمة يقع غرهم كالفصل من الباب وتعلق بما قبله واضح فإن الكل من ترجمة إبراهيم. وأما تفسير هذه الكلمة من القرآن فإنها من جملة قصة إبراهيم « عليه السلام » مع قومه حين كسر أصنامهم، قال الله تعالى : « فأقبلوا إليه يزفون » قال مجاهد الوزيف النسلان فتح البارى ١٣ ص ١٣٨، ١٣٩ والآية من سورة إبراهيم رقم ٣٧.

قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١)
وقال أيضاً : ﴿ فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ (٢) .

وبعد هجرة سيدنا لوط إلى الشام أرسله الله « سبحانه وتعالى » في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها (٣) فاستجاب سيدنا لوط لأمر الله « سبحانه وتعالى » ، ونزح عن محلة عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سدوم ، ثم أخذ يدعوهم إلى عبادة الله « سبحانه وتعالى » وينكر عليهم سوء ما كانوا يصنعونه ويفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، كما كانوا يفعلون أيضاً ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ قاله مجاهد ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة « رضی الله عنها » والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك

قال « سبحانه وتعالى » عن ذلك : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . أَتُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله (٤) فقال ﴿ رَبِّ الصِّرْطِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٥)

فاستجاب الله « سبحانه وتعالى » له وبعث لنصرته ملائكته الكرام ، فأقبلوا حتى أتوا أرض « سدوم » في صورة شبان حسان . وكان ذلك اختباراً من الله

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٧١ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٤١١ بتصرف .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٣٠ .

لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً « عليه السلام » ، فلما رآهم كذلك اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة (١) .

ولما علم قومه أن بيت لوط رجالاً يتَّسِمُونَ بالحسن والبهاء جاءوا إليه مسرعين ، وطلبوا منه أن يسلم إليهم هؤلاء الضيفان ، حتى يستأنسوا بهم ، وينالوا منهم ما يشتهون ، عند ذلك أخذ لوط « عليه السلام » يجادلهم بالحسنى ، ويناقشهم باللطف واللين ، لعله يجد من بينهم رجلاً عاقلاً يهتدى إلى الحق ويرعوى عن الباطل فيساعده على رد القوم عن غيهم . لم يرض القوم بكلام لوط بل أجابوه بقولهم له : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتبهن وإنك دون ريب — تعلم أننا نريد الرجال الذين عندك .

فلما ضاق بلوط الأمر وعسر به الحال ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴾ أى لكنت نكلت وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد في الحديث عن أبى هريرة « رضى الله عنه » : أن النبى ﷺ قال : يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد (٢) أى إلى الله « سبحانه وتعالى » (٣) .

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم ليسوا بشراً إنما هم ملائكة قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمر من الله ؛ لأن أهلها كانوا ظالمين . ثم قالوا له ﴿ لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَّاثَرْنَا مِنَ الْغَائِرِينَ : إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٤) وذلك أن جبريل « عليه السلام » اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ؟ وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة . منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد (٥) .

(١) المرجع السابق ٣ / ٤١٤ بتصرف .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأنبياء باب ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾ .

(٣) فتح البارى ١٣ / ١٦٢ .

(٤) سورة العنكبوت ٣٣ ، ٣٤ .

(٥) ابن كثير ٣ / ٤١٢ بتصرف .

وفي كل ما تقدم يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة هود الآيات من ٧٧ : ٨٣

هجرة سيدنا موسى « عليه السلام » :

سيدنا موسى « عليه الصلاة والسلام » هجرتان :

أما الهجرة الأولى ، فقد كانت قبل النبوة وذلك أن موسى « عليه الصلاة والسلام » دخل المدينة يوماً على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من القبط ، فلما مرموسى بهما سأله الإسرائيلي أن يخلصه من شر ذلك القبطى واستنصره عليه ، فتدخل موسى ليحسم المعركة ولينقذ المظلوم — الإسرائيلي — من يد ظالمه — القبطى — فضرب بيده ذلك القبطى ضربة قوية يريد بها إبعاد الخطر عن الإسرائيلي ولكن شاء الله أن تكون ضربة قاضية . مات القبطى بعدها^(١) .

فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ، فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان أو نفخ من الشيطان ، ثم استطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ويتوجه إلى ربه طالباً مغفرته وعفوه ، إلى أن استجاب الله إلى ضراعتة ، وحساسيته ، واستغفاره ، ثم أخذ على نفسه عهداً مطلقاً ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً أو معيناً^(٢) . ولكن موسى تغلبت عليه بشريته ، وانتصرت على حواسه طبيعة الإنسان ، فلم يعلق إرادته بإرادة مدبر الأمر ، ومصرف الكائنات ، ولم يستثن مشيئة الله ، فوقع فيما عزم على النجاة من غوائله^(٣) ، إذ أصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى ، وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذ بصاحبه الإسرائيلي الذى طلب بالأمس نصرته على القبطى مشتبكاً مع قبطى آخر ، وهو يستصرخ موسى لينصره ، ولعله يريد منه أن يقضى على عدوهما المشترك بوكزة أخرى .. ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخاليل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو يفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال . ولكن موسى « عليه الصلاة

(١) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازى ج ٢٤ ص ٢٣٣ بتصرف .

(٢) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ج ٥ ص ٢٦٨٢ بتصرف ، الطبعة العاشرة بدار الشروق .

(٣) قصص القرآن للشيخ محمد جاد المولى وآخرين ص ١٣٠ .

والسلام — بعد ذلك — انفعلت نفسه بالغيظ من القبطى (١)، فعزم على البطش به ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قتله لما سمعه يقول له ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فقال يدفع عن نفسه : ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى « عليه السلام » فلما سمعها ذلك القبطى لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك (٢) .

ولكن الله يرمى المخلصين من عباده ، فهيا لموسى « عليه السلام » رجلاً ، جاءه مسرعاً من أقصى المدينة ، وأخبره بما يدبره فرعون ونصحه بالخروج حتى ينجو بنفسه ، فقبل منه هذه النصيحة الغالية ، وأسرع بالرحيل عن مصر مولياً وجهه شطر أرض جديدة ، يتخلص فيها من هذا الخطر المحدق ، والبلاء المطبق ، ويرجو رحمة الله ورضاه (٣) .

وفى ذلك يقول « سبحانه وتعالى » فى سورة القصص :

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَكْذَبْتُ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ . فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) .

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٦٨٢ ، ٢٦٨٣ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٣) تاريخ الأنبياء للدكتور محمد الطيب النجار ص ١٨٧ ، ١٨٨ الطبعة الثالثة بدار الاعتصام

(٤) سورة القصص — الآيات من ١٥ : ٢١ .

خروج موسى إلى مدين :

وكانت الجهة التي قصدتها موسى « عليه الصلاة والسلام » هي أرض مدين التي خرج إليها وحيداً ، لا معين له إلا عناية الله ، ولا رفيق يؤنس له إلا نور الله ، ولا زاد يحمله إلا زاد التقوى ، ولقى في هذه الرحلة كثيراً من الأهوال والمتاعب ، حتى وصل إلى مدين^(١) ، وورد ماءها وكان لها بئر يريده رعاء الشاء — فجلس ليستريح من وعناء السفر ، عند ذلك وجد جماعات من الناس يسقون مواشيهم وأنعامهم ، ويتزاحمون على السبق إلى هذا الماء ، ووجد في وضع أسفل منهم امرأتين تمنعان ما معهما من الأغنام عن التقدم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم أو انتظاراً لتقدم الأقوياء وذوى البأس والنفوذ ، فألمه هذا المظهر الكريه ، فتقدم إلى هاتين المرأتين وسألهما عن شأنهما فيما هما عليه من التأخر والذود ؟ ولم لا يباشران السقى كدأب غيرهما من الناس ؟ فقالتا له : إن عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد رعيها عن الماء عجزاً عن مساجلتهم ومزاحمتهم لأننا ضعيفتان مستورتان لا نقدر على ذلك ، وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء^(٢) .

فاهتزت مشاعر موسى لما سمع من هاتين المرأتين ، وتقدم لمساعدتهما ولم يقدر أحد على منعه . فالناس دائماً يحترمون الأقوياء ويخشون خطرهم ، والقوة دائماً في هذه الدنيا هي التي تتحكم ، وهي التي تقضى وتبرم^(٣) .

(١) اختلف المفسرون في اسم مدين ، فذهب البعض إلى أنه اسم رجل في الأصل ، ثم كانت له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه ، والأول أصح ، لأن الله أضاف الماء إلى مدين في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية ، والأصل في الإضافة التغاير حقيقة « تفسير الفجر السرازي ٢٥ / ٦٤ ، معجم البلدان لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ٥ / ٧٧ وما بعدها ، وأياً ما يكن الأمر فقد أصبحت مدين اسماً لأرض معروفة تقع على بحر القلزم « البحر الأحمر » محاذية لتبوك وبها البئر التي استقى منها موسى « عليه السلام » لسائمة شعيب « ياقوت ٥ / ٧٧ ، ٧٨ ، ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع لأبي عبد الله ابن عبد العزيز البكري ٤ / ١٢٠١ » .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادى ج ٧ ص ٨ ، الناشر دار المصحف مكتبة مطبعة عبد الرحمن محمد ، روح المعاني للسيد محمد شكرى الألوسى ٢٠ / ٥٩ ، ٦٠ « بيروت » .

(٣) تاريخ الأنبياء للدكتور / محمد الطيب النجار ص ١٩٠ .

وبعد أن سقى موسى للفتاتين أغنامهما ، انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح ، وناجى ربه قائلاً : إني لاحتاج إلى شيء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

واستجاب الله استرحام موسى ، فحنا عليه ، إذ ألهم الشيخ الكبير أبا الفتاتين أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه ، فجاءته تمشى وهى حية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إني أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسدبت إلينا من المعروف بسقى غنمنا^(١) .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شيئاً من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لا يخفى^(٢) .

واستجاب موسى « عليه الصلاة والسلام » لدعوة الشيخ^(٣) ، فجاءه وحديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله ، وهربه منهم بعد الذى علمه ، فطمأنه الشيخ وقال له : لا تخف من حولهم وطولهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ؛ ولسنا فى دائرة ملكهم^(٤) .

(١) تفسير المراغى ج ٢٠ ص ٥٠ بتصرف .

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم لأبى السعود ج ٧ ص ٩ .

(٣) اختلف المفسرون فى هذا الشيخ من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبی « عليه السلام » وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى « عليه السلام » بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه « وما قوم لوط منكم ببعيد » وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل « عليه السلام » بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى « عليهما السلام » مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل أن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو — والله أعلم — احتراز من هذا الإشكال ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخى شعيب « عليه السلام » ، وعن أبى حمزة عن ابن عباس قال : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا يخبر تجب به الحجة فى ذلك ، « تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ بتصرف .

(٤) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ج ٢٠ ص ٥١ ، الطبعة الخامسة بمطبعة مصطفى

الخليى .

وفي ذلك يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا
وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَلْزَمْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ . فَبَاءَهُمَا إِحْدَاهُمَا ثَمَشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَفَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنْ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

مصاهرة موسى للشيخ ثم بعثته :

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم ، وسكنت إلى صحبته ولا بدع .
فنور الإيمان يتلأل في كلا القلبين ، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين ،
وشبيهه الشبيء منجذب إليه .

ولقد كان موسى كريماً فتياً ، أثار في نفس الشيخ وبنتيه عوامل الإكبار
والإعجاب ، لما زانه الله به من طبع قويم ، وخلق كريم ، فتحرك في نفس الفتاة
حب الاستظهار بموسى وقوته ، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته (٢) فقالت : ﴿ يَا
أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (٣) أى قالت لأبيها : اتخذ
أجيراً ليرعى عليك غنمك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوي على حفظ الماشية
والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها ، الأمين : الذي لا تخاف خيانتة فيما تأتمنه
عليه منها .

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته فعرض على موسى أن يتزوج إحدى ابنتيه في
مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه
لا يلزم به . ثم وعده بقوله وما أحب أن أشق عليك بمناقشة أو مراعاة أوقات

(١) سورة القصص الآيات من ٢٢ : ٢٥ .

(٢) قصص القرآن للشيخ محمد جاد المولى وآخرين ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) سورة القصص آية ٢٦ .

ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدني إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا . فقال موسى للشيخ الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان على ، والله على مقالنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك وكفى بالله وكيلاً^(١) .

وهكذا اطمأن بموسى « عليه السلام » المقام في بيت حميه ، فآتم أقصى الأجلين يكلاً أمور الشيخ ، ويدبر شئونه برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتم الزواج بإحدى الفتاتين^(٢) .

وبعد أن أمضى موسى عليه السلام — الأجل في أرض مدين حن قلبه إلى وطنه ، فعزم على الرجوع إلى أرض مصر مع أهله فاستأذن الشيخ في ذلك ، فأذن له فخرج بأهله ، وفي طريقه من مدين إلى مصر لقي « عليه السلام » وأهله برداً شديداً فحط رحاله ، وأخذ يتأمل في الأفق ، ثم أخذ يسمع طويلاً هل يسمع حساً أو حركة ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً ، ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فلما وصل قريباً من جبل الطور رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك ، فوقف موسى متعجباً مرتعدة فرائضه ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة التي سمع فيها مناجاة ربه له ، ثم خاطبه تعالى كيف يشاء قائلاً له ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكانت بدء نبوته ، إذ خصه الله بكرامته وبعثه برسالته إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى الله ، فطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه « هارون » ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة فاستجاب الله لطلب موسى هذا . ثم أظهر الله « سبحانه وتعالى » على يديه معجزتين جعلهما تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين يدي فرعون وقومه ، وتهيئة للمناداة بالحق ، وهاتان المعجزتان هما تحويل عصا موسى إلى حية تسعى بعد أن أمره بالقاءها من يديه ، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء لها نور كنور الشمس^(٣) .

(١) تفسير المازني ج ٢٠ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) قصص القرآن ص ١٣٣ بتصرف .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨٧ : ٣٨٩ بتصرف .

وفي كل ما تقدم يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ قَالَتْ اخِذَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ إِيَیْ أُرِيدُ أَنْ أُلْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَبِيبٍ فَإِنْ أَثَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكِيلٌ . فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ . اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِيلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْعَالِيُونَ ﴾ (١) .

عبر نستخلصها من هذه الهجرة :

أولاً : أن الله « سبحانه وتعالى » يهيء أسباب الهجرة لأنبيائه ليظفروا بالمكانة العالية التي أعدها للمهاجرين في سبيله .

ثانياً : أن الله « سبحانه وتعالى » يقيض لأهل الخير من يرشدهم إلى الخطر المحقق بهم كما حدث لموسى « عليه الصلاة والسلام » ، فقد قيض الله له من نبيه إلى الخطر المحقق به ، ويظهر ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، وفيه أيضاً ما يشير إلى أن قصور الملوك وبخاصة الطغاة موطن للمؤامرات .

(١) سورة القصص الآيات من ٢٦ : ٣٥ .

١٠ ثالثاً : جواز الحجرة لمن تعرض للإيذاء والظلم ولم يستطع الدفاع عن نفسه .
رابعاً : من طبيعة الإنسان أن يلجأ إلى الله وقت الشدة .
خامساً : يستجيب الله لمن يضرع إليه في شدته كما استجاب لموسى « عليه السلام » .

سادساً : أن فرعون مصر في ذلك الوقت كان طاغية ظالماً ، وقد عرف موسى حقيقته وقومه حيث تربى بينهم ، لذلك وصفهم بأنهم ظالمون .
سابعاً : من ألوان ظلم فرعون انتشار جواسيسه في كل مكان يحصون على الناس حركاتهم وسكناتهم ، وهذا الأسلوب يلجأ إليه الحكام الظلمة القساة الذين تجردت قلوبهم من الرحمة بشعوبهم .

ثامناً : أن المجتمعات البشرية إذا افتقدت أضواء السماء قست قلوبها فلم يعترفوا للضعيف بحق كما حدث من أهل مدين ، فبدلاً من أن يرحموا الفتاتين وشيخوخة أبيهما وعجزه عن مساعدتهما فيقدمونهما للسقى على أنفسهم كانوا يتزاحمون على السقى ويتركونهما حتى يصدروا جميعاً .

تاسعاً : يعد الله أنبياءه على أكرم الصفات ، فهذا موسى « عليه الصلاة والسلام » المطارد المكدود الجائع يتقدم لمساعدة المرأتين دون أن يطلب ثمناً كان في أشد الحاجة إليه ؛ حتى إنه لم يُرد أن يسألهما عن اسم أبيهما ، فاتجه إلى الله داعياً ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَتَزَلَّتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

عاشراً : المخلص في عمل الخير واثق من أن الله لن يضيع أجره ، فقد عرف موسى أن ما قدمه للبنتين باب من أبواب الخير هو في أمس الحاجة إلى جزائه من ربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَتَزَلَّتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

حادى عشر : منة الله على الأعفاء من عباده بأن يرزقهم بالزوجات الصالحات من النساء وصدق الله إذ يقول : ﴿ الْحَيَّاتُ لِلْحَيَّاتِ وَالْحَيَّاتُونَ لِلْحَيَّاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (١) .

(١) سورة النور الآية رقم ٢٦ .

فانظر مثلاً كيف جازى موسى على عفته التى نطقت بها شهادة الفتاة التى جاءته تمشى على استحياء ، إذ تقول لأبيها ﴿يَأْتِيَتْ اسْتَأْجَرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ .

ثانى عشر : السماحة فى العقود من سمات الصالحين الأخيار فقد خير موسى فاختر ما هو أشد وأشق ، حيث خير بين ثمانى وعشر سنوات فاختر الأكثر كرمًا منه .

ثالث عشر : ما قاساه موسى فى رحلته من جهة ثم معاشيته لشيخ صالح من جهة أخرى إعداد له لتحمل أعباء النبوة والرسالة .

رابع عشر : أعظم ما أفاده موسى « عليه الصلاة والسلام » فى هذه الرحلة ما مَنَّ الله به عليه فى رحلة الرجوع إلى مصر ، حيث تفضل « سبحانه وتعالى » عليه بالنبوة واختصه من بين سائر الأنبياء بكلامه ، قال تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١)

هجرة موسى وقومه من مصر :

دعا موسى فرعون كما أمره الله ، وكان بينهما ما هو معروف فى الذكر الحكيم وقصصه الكريم ولما نفذ الصبر ، وكلت الحيلة ، وعظمت البلية ، من طغيان فرعون وظلمه ، أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه من بنى إسرائيل فرارًا بدينه . وفى ذلك يقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى﴾ (٢) .

ويجهز موسى ومن معه وخرج بهم ليلاً — كما أوحى الله إليه — وساروا فى طريق البحر ، وأخذوا يجدون فى السير ، ولما علم فرعون بخروج موسى ومن معه خرج فى طلبهم ، حتى لحقهم وأدركهم بجنوده ، وتراءى الجمعان فشعر بنو إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم ولم يبق بينهم وبين الموت إلا ساعات أو لحظات ، حين ذاك ضجوا بالعيول والصياح وقالوا يا موسى إنا لمدركون ، فسكن موسى روعهم ، ثم أوحى الله « سبحانه وتعالى »

(٢) سورة طه الآية رقم ٧٧ .

(١) سورة الأنعام آية (١٦٤) .

إلى موسى أَن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، ووقف ماء البحر المتحرك السيل ، وغدا قائماً مثل الجبال ، وسكنت التيارات الجارفة والأمواج الزاحفة ، ويس الطريق في وسط الماء وجف ما فيه من طين بقدرة الله الذى إذا أراد شيئاً قال له ﴿ كُنْ فَيَكُون ﴾ ثم أمر الله موسى بالنزول في هذا الطريق ومعه قومه من بنى إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين ، وقد وضحت لهم آية الله وقدرته فيما رأوه بأعينهم من هذه المعجزة الخالدة .

فلما اجتازه وخرج آخر واحد منهم إلى الشاطئ المقابل ، كان فرعون حينئذ قد وصل هو وجنوده إلى البحر فرأوا بأعينهم هذا المنظر الهائل الذى لم يروه من قبل . وظن فرعون وجنوده أن هذه الطرق اليابسة التى مهدت في جوف البحر بهذا الوضع ستظل على حالها إلى أن يتم عبورهم ، فنزلوا إلى البحر من هذه الطرق غافلين عما أعدته الأقدار لهم ، حتى إذا تم نزولهم جاء أمر الله ، فانطبق البحر عليهم ، ودهمتهم أمواجه الصاخبة ، وحق عليهم القول ، فكانوا من المغرقين .

وحينئذ صاح يلتمس النجاة من الهول الذى أحاط به (١) قائلاً :

﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

فأجابه الحق سبحانه :

﴿ آلَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

أجل ، لقد غرق فرعون وأزهقت روحه ، ولكن أمواج البحر بأمر الله قدفت به إلى الشاطئ جسداً هامداً ليرى من بقى من أنصاره وأعوانه مصيره الأليم ، وهو الطاغية الذى كان يقول لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ويعرف الناس جميعاً أن الباطل ليس له قرار ، وأن الملك دائماً لله الواحد القهار

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ١٥٣ ، ١٥٤ بتصرف ، ج ٢٢ ص ٩٢ ، ٩٣ بتصرف .

(٢) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .

(٣) سورة يونس الآيات : ٩١ ، ٩٢ .

الذى ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء^(١) . وهناك حوادث ووقائع تاريخية أخرى فى حياة بنى إسرائيل ، ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة والله الهادى إلى سواء السبيل .

وبعد فهذه نماذج من هجرات الأنبياء السابقين والرسل ، عرض القرآن الكريم للخطوط الرئيسية منها ، قد يكون هناك فى تاريخ النبوات والرسالات من تعرضوا لما تعرض له إبراهيم ولوط وموسى ومحمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وهاجزوا بعقيدتهم من ديارهم وهى آخر شيء يضحى الإنسان به ، لكن مهمة القرآن ليست سرداً للتاريخ وتقصياً له فالقرآن فى كل مجال يكتفى بأن يقدم نماذج تكون بمثابة إشعاعات تضىء الطريق للأجيال القادمة .

إن هناك أوجه شبه عديدة بين هذه الهجرات النبوية التى عرض لها القرآن فى إيجاز ، وكذلك أوجه اختلاف ربما فى السلوك وربما فى الوسيلة ، لكنها متفقة فى تحقيق المعنى والغاية معاً ، فليس من الخير لدعوة من الدعوات الإصلاحية التى تهدف إلى استقرار البشرية وسعادتها ، ولا من مصلحة أتباعها أن تظل هذه الدعوات الحية قابعة فى حيز ضيق غرضاً لكل مستخف ، فإذا ضاقت الأرض بها فأرض الله واسعة ، ولا يعدم الوجود ناساً آخرين يرحبون بها ويحسنون استقبالها ، ويفتحون لها صدورهم .

إن لدعوات الله أهدافها التى يجب أن تتحقق ، وإن أتباع الدعوات مسئولون عن تحقيق هذه الأهداف ، ومن أهداف الدعوات تحرير الإنسان من استعباد الإنسان له ، تحرير الإنسان من الضعف حتى يشعر بوجوده ، تحرير الإنسان من الخوف حتى لا يعجز عن أن يقول كلمة الحق فى أى حال^(٢) .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٤٣١ بتصرف .

(٢) الهجرة بداية التحول ص ٤٤ وما بعدها .

الباب الأول

كيف كان موقف المشركين من دعوة الإسلام
هو الحامل لأهلها على الهجرة

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول : الأسباب التي جعلتهم يقاومون الإسلام

الفصل الثاني : الوسائل التي استخدمها القرشيون ضد

الدعوة الإسلامية .

الفصل الأول

الأسباب التي جعلت المشركين يقاومون الإسلام

تمهيد :

لما كان الحديث عن الهجرة يستلزم الإلمام بالظروف والملابسات التي أدت إليها كان لا بد من الإحاطة بها ، لذلك كان لازماً علَيَّ أن أتناولها بين يدي الحديث عن الهجرة .

وهذه الظروف تمتد جذورها إلى بداية البعثة المحمدية .

فلم يكن محمد ﷺ يتوقع من قومه هذا التكذيب المنكر وإعلان الحرب عليه عندما بدأ دعوته ؛ لأنه كان معروفاً بينهم بالأمين .

حتى إنهم لم يراجعوه في قول ولم يعترض عليه معترض في أشد المواقف التي تستدعي الاعتراض والمناوأة .

فعندما اختلفوا في وضع الحجر الأسود لم يعترض أحد على حكمه وفيهم الكبار ذوو الأسنان ، في مجتمع يقدر الكبر ويلزم الأحداث بمهابتهم .

ولكن محمداً كان موضع ثقتهم جميعاً ، لذلك أمضوا حكمه بالرغم من أنه قد استأثر بنقل الحجر بيديه الكريميتين ووضعه في موضعه ، ولم يكن لأولئك الكبار المتشاكسين إلا شرف الإمساك بطرف رداء محمد ﷺ فكان المتوقع أن يبادروا إلى تصديقه ، ولكن الواقع كان غير ذلك بكثير ، فقد أعلن عن خصومته الحاقدة أقرب الناس إليه عمه أبو لهب .

وفوجيء محمد بما لم يكن يتوقعه . فبعثه التمهيد الناجح لعرض الدعوة عندما سألهم « أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدق ، قالوا ما جربنا عليك كذباً » (١) .

إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويتحولون إلى قطيع متنافر ما بين مستهزى وشاتم وغاضب ساخط ، وهنا موضع العجب عند النظرة الأولى . ولكن إعادة النظر تجعل ما حدث أمراً طبعياً له أسبابه ومبرراته التي تنشأ من آفات العقل والخلق والبيئة ، وهذه الأسباب هي :

أولاً : مفاجأة الرسول لهم بهذه الدعوة وعدم توقعهم لها :

لقد كان محمد ﷺ كريماً عند قومه ، حبيباً لهم يألفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة مخالفين ، ثم هينأوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين معادين ومضطهدين في الجملة لمن اتبعوه .

وذلك لأنهم فوجئوا بهذه الدعوة إلى الحق ، فلم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد ﷺ ، والمفاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الإنكار .

يقول العقاد في عبقرية عمر ماملخصه :

« إن بعض الأعمال العادية لا تحتاج في تعليلها إلى أكثر من سبب ، أما التغيير الذي يؤثر في مجرى حياة الإنسان فإنه لا يجرؤ عليه إلا لأسباب قوية ، وذلك مثل تغيير الوطن أو المهنة أو الزى ، ثم يستطرد العقاد فيقرر أن هذه التغييرات السابقة ليست شيئاً إذا قورنت بتغيير الدين ، فيقول : وأين تغيير المعيشة والوطن والزى من تغيير العقيدة الدينية إن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة ، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلداً وإذا غير زيه فإنما يغير سمياً . ولكنه إذا غير عقيدته فقد غير كونه كله واستبدل به كوناً آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله وغير حاضره وحاضر أهله وغير مصيره في الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير تفسير سورة « تبت يدا أبى لهب وتب »

آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد» (١) ويتضح هذا الجانب فيما ذكره القرآن الكريم من مواقف الكفار من الدعوة حيث كان أول ما يظهر من معارضتهم راجعاً إلى التمسك بالمألوف والموروث قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ويضيف القرآن أن أمة محمد لم تكن بدعاً من الأمم الأخرى ، إذ هذا الموقف كان عاماً في كل أمة مع رسولها ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ لَّدِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٣) .

ثانياً : الحقد والحسد والتنافس :

كان الحقد والحسد والتنافس مانعاً كذلك من إقبال القرشيين على متابعة الرسول ﷺ . وذلك لحرصهم الشديد على ألا تذوب أشخاصهم وأشخاص قبائلهم ذوباناً سريعاً في خضم الأتباع المستضعفين للدعوة الجديدة ، التي أعلنت على ملائهم إذابتها للفوارق والحسب والنسب والجاه .

فكانوا يقولون للنبي ﷺ عندما يخبرهم ببعض ما أنزل عليه من القرآن : هلا أنزل هذا القرآن على رجل عظيم من عظام مكة أو الطائف . وقد أشار الله « تبارك وتعالى » إلى ذلك بقوله :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ، أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُحْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤) .

(١) عبقرية عمر لعباس محمود العقاد بتصرف . ٩٥ ، ٩٦ ، ط الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ط ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ط دار المعارف .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٢٣ .

(٤) الزخرف ايات ٣٠ : ٣٣ .

ولا شك أن للحسد والتنافس والتنازع في هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطيء الإنسان إذا هو حاول الإغضاء عنه أو لم يقدره حق قدره .
ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان ، لنقدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هي الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الإسكندر ، وملك قيصر .

هذه مكانة قل أن يصل إليها إلا من هدى الله قلبه للحق . أما سائر الناس فتعميمهم العاجلة من مال ونشب ويعميمهم الاستمتاع باللحظة التي يعيشون فيها عن الارتفاع إلى هذه المعاني وهم في سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاثلون لا يحول شيء دون أن ينشب أحدهم أظفاره وأنيابه في عنق الحق والخير والفضيلة ، وأن يدوس تحت أقدام دنسة أظهر معاني الكمال .

ما ظننا بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون محمداً يزداد أنصاره كل يوم عدداً ، يخشون يوماً يكون فيه للحق الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتد من وراء ذلك إلى العرب في مختلف أنحاء الجزيرة دون هذا قط الرقاب إذا استطاعوا قطعها^(١) .

ثالثاً : إثبات اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشر وحساب وجزاء :

فقد كان الحديث عن الدار الآخرة صدمة للقرشيين ، وذلك لأنهم كانوا يعيشون في حرية مطلقة ، لا تحدّها حدود ولا تقيدها قيود ، يخوضون ويلعبون ، ويرتعون في الشهوات كما يشاءون ، ظانين أن الحياة هي الحياة الدنيا ، وأن الموت هو النهاية الأبدية ، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب .

فجاء الإسلام ينقض هذه العقيدة الخاطئة ، ويبين لهم أن الإنسان لن يترك سدى في هذه الحياة الدنيا ، يرتع فيها كما ترتع السائمة ، بل هو مسئول عن كل ما يعمل محاسب عليه ومجزى عنه في حياة أخرى بعد هذه الحياة ، وما الموت

(١) حياة محمد ﷺ للدكتور / محمد حسين هيكل ص ١٧٣ ط دار الكتب المصرية ط ثانية ١٩٣٦ م .

إِلَّا الْإِنْتِقَالَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ إِلَى تِلْكَ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ ، لِيَسْعِدَ فِي نَعِيمِهَا مَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى ، وَيَشْقَى فِي جَحِيمِهَا مَنْ أَسَاءَ الْعَمَلَ فِيهَا^(١) : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾^(٢) .

رابعاً : إثبات صحة عقيدة التوحيد وفساد عقيدة الشرك :

فقد كان أعنف الصدمات وأشدّها خطراً عليهم هو ما دعاهم الله « تبارك وتعالى » إليه على لسان رسوله ﷺ من ترك عبادة الأوثان ، وأمره لهم أن يعبدوه ويتخذوه لا شريك له ، ونفى الكفاء والمثل عن ذات الله « تعالى » وصفاته وأفعاله ، ونفى الشريك في ربوبيته ، وعبادته « عز وجل » .

قال تعالى في نفى الكفاء :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(٣) .

وقال في نفى الشريك في الربوبية :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ﴾^(٤) وقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾^(٥) .

وقال في نفى الشريك في العبادة :

(١) صور من حياة الرسول لأمين دويدار ص ١٣٤ ، ١٣٥ بتصرف . الطبعة الرابعة بدار المعارف

١٩٧٨ .

(٢) سورة هود ١٠٦ : ١٠٨ .

(٣) سورة الإخلاص بأكملها .

(٤) سورة الرعد آية رقم ١٦ .

(٥) سورة يونس آية ٣١ .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ . وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) وقال : ﴿ فَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٢).

فهذه الآيات الكريمة تدعوهم إلى توحيد الله المشتغل على ثلاثة أقسام :
توحيد في الذات ، والأسماء والصفات . وتوحيد في الربوبية ، وهي اختصاصه « تعالى » وتفرد به بالخلق والرزق والتدبير لسائر الخلق والملكوت وتوحيد في الألوهية ، أى في العبادة . وهو اختصاصه « تعالى » بسائر العبادات ، وتفرد به دون سائر مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين ، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات (٣).

وهكذا فقد هدمت العقيدة دينهم . وقوضت عقائدهم ، وكشفت لهم عن حقيقة هذه الأوثان التي يعبدونها من دون الله ، والتي يعيشون في ظلها سادة على العرب ، فإذا هى وهم من الأوهام ، لا قيمة له ، ولا غناء فيه .

خامساً : جهلهم للنبوة ولطبيعتها :

فبالرغم من أن بعض ناهيهم كان يتوقع بعثة نبي إلا أن الأكثرية منهم كانوا يجهلون طبيعة النبى ، ويتخيلون أنه لا بد وأن يكون مخالفاً لطبيعة البشر ، فلما رأوا محمداً ﷺ بشراً مثلهم يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، ويتعرض لكل ما يتعرض له البشر من أفراح وأتراح ، ورجاء وخوف ، وسمعه يعلن أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله جحدوا به (٤).

وذلك لاعتقادهم أنه لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة ، لأن الرسل إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) سورة محمد آية ١٩ .

(٣) من كتاب « عقيدة المؤمن » للشيخ أبى بكر جابر الجزائري ص ٧٣ . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨١ .

(٤) دراسات تاريخية « العرب وظهور الإسلام » للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢١٨ ، ٢١٩ ط شركة الطباعة المتحدة .

علومهم أكثر ، وقدرتهم أشد ، ومهابتهم أعظم ، وامتنيازهم عن الخلق أكمل ، والشبهات والشكوك في نبوتهم ورسالتهم أقل . والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى . فلما كان وقوع الشبهات في نبوة الملائكة أقل ، وجب لو بعث الله رسولا إلى الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة . ولكن غاب عنهم أن إنزال الملك على البشر آية باهرة ، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فرما لم يؤمنوا مما يوجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، فههنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب .

كما غاب عنهم أيضاً : أنهم إذا شاهدوا الملك زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون وتقريره : أن الآدمي إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر ، فإن كان الأول لم يبق الآدمي حياً ، ألا نرى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشى عليه ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئ شخصاً على صورة البشر ، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكاً أو بشراً ، ألا نرى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم ، وأضياف لوط ، وغير ذلك (١) .

وإذا كان إرسال الرسول من الملائكة سيؤدى إلى أى من هذه النتائج وغيرها فليس من الحكمة جعله من الملائكة . بل الحكمة أن يكون بشراً من بينهم مؤيداً من الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به (٢) .

وفي القرآن الكريم ما يُبين لنا مدى تعجب القرشيين واستغرابهم لبشرية الرسول ﷺ .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٣) .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ١٢ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) « التفسير الوسيط » لجماعة من علماء مجمع البحوث الإسلامية حزب ١٣ ص ١٢٠٤ ط أولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

(٣) سورة الإسراء اية ٩٤ ، ٩٥ .

وقوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِديقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢).

وهكذا فقد أدى جهلهم بالنبوات والرسائل إلى الإنكار والتعجب من كون الرسول بشراً سوياً ، يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وإذا كان الأمر غريباً عليهم ، فقد كان حقاً عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ، ويستأنسوا بنور النبوة .

ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران (٣).

سادساً : اشتغال الدعوة على مبادئ اجتماعية عادلة لا يقبلها شرفاء مكة ورؤساؤها :

فقد جاء محمد ﷺ بدعوة تسوى بين الغنى والفقر ، وتوجب حقاً للفقير في مال الغنى — وبذلك يكون قد مس كبرياءهم وهز مراكرهم هزاً عنيفاً — فأحسوا بأن الأرض تميد من تحتهم ، إذ إن ذوى الأنساب منهم يستعلون بأنسابهم ويحسبون أنهم أشراف وحدهم . والناس دونهم ، وهم الأعلون وغيرهم الأدنى . فكان لا بد أن يقاوموا ذلك الداعي الجديد الذى يقول بلسان المقال ولسان الفعال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤) فهو يأخذ بنواصي الأقوياء ليضعها بجوار رعوس الضعفاء ، وقد لمحوا ذلك فى أتباعه فقد رأوا أبا بكر نسابه العرب ومألف قريش يكون بجوار بلال وعبيد أبى بكر نفسه ، لا يفرق بينهما إلا بفضل الإيمان ، فهو مقياس الشرف والضعف والإكبار والإصغار .

بلا شك هذه مبادئ اجتماعية لا يقبلها شرفاء مكة المكرمه ورؤساؤها ، ومحمد ﷺ لابد منفذها ، لأنه كان ينفذها قبل أن يكون نبياً رسولا ، فكيف

(١) سورة يونس آية ٢ .

(٢) سورة ص آية ٤ .

(٣) « خاتم النبیین » للشيخ محمد أبو زهرة ج ١ ص ٣٥٩ . طبع ونشر دار الفكر العربى .

(٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

لا ينفذها وقد نزل الوحي عليه ، وجعلها هو نظاماً واجب الاتباع ، من لم ينفذه إن لم يعاقب عليه اليوم ، فالنار الموقودة تلقاه يوم القيامة . ويلقى به في السعير .

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو إليه محمد ﷺ غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ، وابتدأ الأقوياء الذين دخلوا في الإسلام يعاملون الرقيق كما يعاملون الأحرار .

إذن لا بد من مقاومة ذلك التيار الذي جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه حتى ينمو ، وتستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدي قريش من شرف واه ، وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن في بنيانه . ثم إنهم كانوا الرؤساء الأعلين ولهم شبه سلطان ، وأنه إذا ذاع دين محمد « عليه الصلاة والسلام » ، وصار السلطان للحق وحده ، وسادت المساواة ، وذهبت المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان ، ويسلب كل ما لهم من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف ويتالد ينهدم بين أيديهم ، لأنهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية إسماعيل وضئىء إبراهيم ، فجاءهم سيدنا محمد ﷺ يدعوهم إلى ديانة إبراهيم ، ويقول لهم في غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة إبراهيم الحقيقية .

ولكن الحرص على بقاء السؤدد والشرف والمنزلة في قلوب الناس ، وعلى التحكم في مصائر الناس ، والتسلط عليهم ، حمل هؤلاء المشركين على معاندة هذه الدعوة ومحاولتهم القضاء عليها في مهدها ، واقتلاعها من جذورها .

لأنها ساوتهم بالعبيد والفقراء ، ومحت كل ما كانوا يختالون به على الناس من شرف زائف .

سابعاً : تقرير الإسلام لحرية العقيدة :

كان الرق منتشراً في الجزيرة العربية ، ولم يكن للعبد أن يدين بغير دين سيده ، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه ، وكان خاضعاً لأوامر سيده تماماً .

فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب ، وقرر أن العقل والقلب لا يتطرق لهما الرق ، فالرقيق حر في فهمه وتدينه وحبه وكرهه ، وأن رق

الجسم غير مطلق وغير دائم ، أى أن للرقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء ، وليس لسيده أن يطلب منه ما ليس مباحاً أو ما يشق عليه .

وهذه المبادئ قد دفعت بعض العبيد للدخول فى الإسلام ، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد ، كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن ، وأنه لم يكتف بذويه يدعوهم لعقيدته ، بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور^(١) .

ثامناً : إبدال الإسلام العصبية القبلية والحمية الجاهلية بالعزة الإسلامية :

وفوق ما ذكرنا كله — العصبية القبلية والحمية الجاهلية التى كانت مستمكنة فى النفس العربية يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، فالعرب تنفس على قریش مكانتها ، وقریش تنفس على بنى قصى ما لهم من مكانة ، وبنو قصى وغيرهم ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم رياستهم للعرب .

وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ، فهاشم ورث الرئاسة من عبد مناف ، وعبد المطلب أخذها من هاشم ، وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب ، فالدعوة الإسلامية تعرضت لعداوة من عادوا قصباً ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبنى هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام ، الذى اشتهر فى الإسلام باسم أبى جهل ، وهو به جدير .

فقد كان فرعون هذه الأمة ، وإن لم يكن فرعون فى مثل سفهه وحنقه ورعونته . إن هذا اللعين كان يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبي ﷺ ، فهو فى معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التى تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه بل تدركه ، ولا تدعن له ، وترضى بالردىء الوئىء عن الحق الصادق المرئى^(٢) .

* * *

(١) « موسوعة التاريخ الإسلامى » للدكتور أحمد شلى ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ بتصرف مكتبة النهضة المصرية ط ثامنة ١٩٧٨ م .

(٢) خاتم النبیین « مرجع سابق » ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ بتصرف .

الفصل الثاني

الوسائل التي استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية

وبعد أن استعرضنا في الفصل السابق الأسباب التي أدت إلى مقاومة قريش للدعوة الإسلامية بمقاومة شرسة غير أخلاقية . يجدر بنا الآن أن نتناول السبل أو الوسائل التي استخدمها القرشيون للقضاء على هذه الدعوة .

أولاً : مواجهة قريش للرسول ولدعوته ولأتباعه بالسخرية والاستهزاء :

وهذه الوسيلة استخدمها القرشيون لتوهين القوى المعنوية للمؤمنين ، فرموا الرسول ﷺ وصحابته بهم هازلة وشتائم سفينة ، وتألفت جماعة منهم للاستهزاء بالإسلام ورجاله .

والقرآن الكريم يكشف لنا بعض المفتريات التي تمخض عنها نشاط هذه الجماعة منها وصفهم للرسول بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١) ثم وصفهم له بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢) .

وكان القرشيون لا يتركون فرصة من الفرص إلا ويحاولون الاستهزاء والسخرية برسول الله ﷺ .

(١) سورة الحجر آية ٦ .

(٢) سورة ص آية ٤ .

ولكن الله « تبارك وتعالى » كان دائماً لهم بالمرصاد ، فهو « سبحانه وتعالى » غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ ﴾ (١) .

وقال « سبحانه وتعالى » في شأن المستهزئين برسول الله ﷺ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّن السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۚ ﴾ (٢) أى يا محمد بلغ ما أنزل إليك من ربك . ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ولا تخفهم ؛ فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم برعايته وحفظه لك وبقمعهم وتدميرهم (٣) .

وقد كانت هناك طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة يستهزئون برسول الله ﷺ ؛ لأن أمثالهم الذين يقدرون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه ، وقد تولى « سبحانه وتعالى » أمرهم بنفسه فأفناهم وأبادهم (٤) .

وليس حظ الذين أسلموا معه ﷺ واتبعوه بأفضل من هذه المعاملة .

فقد قام المشركون من قريش بتحقيق شأن المسلمين ، والاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، واستعمال سوء الأدب معهم ، والتطاول عليهم ، ووصفهم بالضلال .

وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في سور شتى منها ما جاء في سورة « المؤمنون » حيث يقول « سبحانه وتعالى » :

(١) سورة الرعد آية ٣٢ .

(٢) سورة الحجر آيات ٩٤ : ٩٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٢ ص ٥٥٩ بتصرف .

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل « لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى ص ٣٦٠ بتصرف . الناشر مكتبة الجمهورية العربية .

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِلَىٰ جَزَائِهِمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَخَذْنَا بِهِمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ (٢) .

ومن هذه الآيات كذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ تُؤِثُّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

ففى هذه الآيات الكريمة الأخيرة يحكى لنا الله « تبارك وتعالى » عن المشركين أربعة أشياء من المعاملات القبيحة ... فأولها : استهزاؤهم من المؤمنين ومن دينهم ... وثانيها : أنهم كانوا إذا مروا بهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ، ويقولون انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه ... وثالثها : أنهم كانوا إذا انصرفوا ورجعوا إلى منازلهم وأهلهم رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم ... ورابعها : أن هؤلاء المشركين كانوا إذا رأوا المؤمنين قالوا : إن هؤلاء على ضلال ؛ لتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى أله وجود أم لا ؟

(١) سورة المؤمنون . الآيات من ١٠٣ إلى ١١١ .

(٢) سورة « ص » الآيات ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) سورة المطففين ، آيات ٢٩ : ٣٦ .

وهذا آخر ما حكاه الله عن الكفار . ثم بين « سبحانه وتعالى » أن النتيجة الحتمية لذلك هي دخول المؤمنين الجنة يوم القيامة ، ثم ضحكهم على الكفار بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء^(١) .

وهكذا استخدمت قريش وسيلة الاستهزاء والسخرية بالصحابة « رضوان الله عليهم » لإخراجهم من هذا الدين .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وأدت إلى نتيجة عكسية ، فقد قوت من عزيمة المسلمين وجعلتهم يتفانون من أجل دينهم .

ثانياً : التشويش على الناس بمواجهة الوحى بالأساطير والخرافات وبلهوى الحديث :

استخدمت قريش هذه الوسيلة ضد الدعوة الإسلامية علّها بذلك تحول دون انتشارها بين الناس ، فواجهوها بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق عند قراءة النبي ﷺ القرآن للتشويش عليه^(٢) ، وبالتواصي فيما بينهم على ذلك ؛ لأنهم عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في نفوسهم وفي نفوس الجماهير^(٣) .

وفي ذلك يقول الله « تبارك وتعالى » :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾^(٤) .

ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح ، وغلب القرآن ؛ لأنه يحمل سر الغلب إنه الحق ، والحق غالب وإن جحد المبطلون^(٥) .

وهكذا حاول المشركون صرف الناس وإلهاءهم عن الاستماع لرسول الله ﷺ ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٣١ ص ١٠٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم « سابق » ج ٤ ص ٩٨ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٢٠ .

(٤) سورة فصلت آية ٢٦ .

(٥) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٢٠ .

ثالثاً : استخدام وسيلة البطش والتعذيب ضد الرسول وصحابته :

مما يدعو للدهشة والتعجب أنه في الوقت الذي كان فيه رسول الله ﷺ وأتباعه يدعون الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وكل ذلك يتم في هدوء تام من قبل رسول الله ﷺ وصحابته ، كانت قريش على النقيض من ذلك تماماً ؛ فقد قابلت ذلك بمنتهى العنف والقسوة وبغاية البطش والإرهاب لرسول الله ﷺ ولصحبه على السواء .

فلقد لاقى رسول الله ﷺ أنواعاً كثيرة من إيذاعات المشركين ، نذكر منها على سبيل المثال :

ما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة » (١) .

وما رواه أيضاً بسنده عن عروة بن الزبير قال « سألت ابن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعته المشركون بالنبي ﷺ فقال :

« بينا النبي ﷺ يصلى في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر « رضى الله عنه » لحتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » (٢) .

وما رواه كذلك بسنده عن عبد الله « رضى الله عنه » قال « بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبى معيط بسلى جزور فقفده على ظهر النبي ﷺ ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة « رضى الله عنها » فأخذته من ظهره ودعت على من صنع . فقال النبي ﷺ « اللهم عليك الملائة من قريش أبأ جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، أو أبى بن خلف » شك من الراوى « شعبة » فرأيتهم قتلوا يوم بدر ، فألقوا في بئر غير أمية ، أو أبى تقطعت أوصاله ، فلم يلق في البئر » (٣) .

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق ، باب : ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

وأخيراً ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة « رضى الله عنه » قال :
« قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقليل : نعم .
قال : واللوات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته . قال فما فجئهم منه
إلا وهو ينكص^(١) على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقليل له : مالك ؟ فقال : إن
بيني وبينه لخندقاً وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ لو دنا منى لاختطفته
الملائكة عضواً عضواً ، قال : فأنزل الله عز وجل لا ندرى فى حديث أبى هريرة
أو شيء بلغه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَى . أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . إِنَّ إِلَى رَبِّكَ
الرُّجْعَى . أَرَأَيْتَ الْإِنْسَانَ إِذَا صَلَّى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى .
أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ﴾ « يعنى أبا جهل » ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ
اللَّهَ يَرَى . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ
سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ زاد عبد الله فى حديثه قال :
وأمره بما أمره به ، وزاد ابن عبد الأعلى : فليدع ناديه يعنى قومه »^(٢) .

هذا بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من الأذى من قريش . أما أصحابه
« رضوان الله عليهم » ، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب ، حتى مات منهم
من مات تحت العذاب ، وعمى من عمى .

ولقد كان لهذا الموقف من قريش تجاه الدعوة الإسلامية أثره الخطير فى سير
الدعوة فى العهد المكي بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم الأحداث التى كانت
فى هذا العهد وأبعدها خطراً وأثراً ، إن لم نقل إنه أهمها على الإطلاق .

ولقد تناول القرآن الكريم فى كثير من آياته صوراً ومشاهد متعددة لهذا
الموقف ونتائجه ، وتدل آيات القرآن أيضاً على أن هذه المحنة قد بدأت فى مرحلة
مبكرة ، ثم استمرت طيلة العهد المكي ، وأن بعض مستضعفى المسلمين ظل
يكتوى بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدنى ، أما أهم نتائجها فهى الهجرات

(١) ينكص على عقبيه : النكوص الإحجام عن الشيء ، قال تعالى « نكص على عقبيه » المفردات
ص ٥٠٦ .

(٢) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب قوله « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

الأولى والثانية إلى الحبشة ، والثالثة إلى المدينة^(١) ونتناول بعض الآيات التي تبين لنا فتنة القرشيين وأذاهم للمؤمنين والمؤمنات يقول الله « تبارك وتعالى » في سورة البروج :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ . وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ﴾^(٢) .

ففى هذه الآيات الكريمة يهدد الله « تبارك وتعالى » ويتوعد كل من فتن المؤمنين فى دينهم ليرجعوا عنه — ويدخل فى ذلك كفار قريش دخولاً أولياً ، فهم عذبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواع من العذاب ثم لم يتوبوا من فتنهم للمؤمنين ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بسبب فتنهم للمؤمنين « ولهم » نار أخرى زائدة على الإحراق لعدم توبتهم ولعدم مبالاتهم بما صدر منهم .

وبعد ذلك أخبر « سبحانه وتعالى » أنه أعد لعباده الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح بساتين وحدائق زاهرة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم . ولهذا قال ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه .

ثم تتوالى تهديداته « سبحانه وتعالى » لهؤلاء الطغاة العصاة الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره فيقول :

إن بطشه وانتقامه من هؤلاء لشديد عظيم قوى فإنه « تعالى » ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر أو هو أقرب ، ولهذا قال : إنه من قوته وقدرته التامة يبدى الخلق ويعيده ، كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ، كما أنه أيضاً يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شيء « كان » ويحب من أطاعه^(٣)

(١) « سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم » ، للشيخ محمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ بتصرف ط ثانية ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م ط عيسى الحلبى .

(٢) سورة البروج آيات ١٠ : ١٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ج ٤ ص ٤٩٦ بتصرف .

وهكذا فقد احتوت هذه الآيات الكريمة إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم . وكان للمشركين أساليب متعددة لفتنة المؤمنين وإبعادهم عن دينهم منها :

محاولتهم فتنة المسلمين بالإكراه :

وذلك أن مشركى قريش حاولوا رد المسلمين عن دينهم بوسائل التعذيب المختلفة التى يصبونها على المسلمين ؛ عليهم بذلك يتركون دينهم ويعودون إلى دين آبائهم مرة ثانية .

ولكن المسلمين كانه ! يتحملون هذا العذاب الأليم فى سبيل الله ؛ لأنهم يعلمون أن الدنيا زائلة ، وأن ما عند الله هو خير وأبقى .

وقد حكى القرآن الكريم لنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك ، فقال « تعالى » :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلَمْ . اَحْسِبَ النَّاسَ اَنْ يُّتْرَكُوا اَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِيْنَ . اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ اَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَاِنَّ اَجَلَ اللهِ لَا تِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيْمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَاِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ اِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ . وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ اَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ففى هذه الآيات الكريمة يبين لنا الله « تبارك وتعالى » ما كان يفعله المشركون بالمسلمين من إيذاء واضطهاد ، وأن هذا طبعى بالنسبة للمسلمين لكى يتميز منهم المخلص من غير المخلص والراسخ فى الدين من المضطرب ، والملتصق بالعبادة على حرف (٢) كما قال تعالى : ﴿ لَتَبْلُوُنَّ فِيْ اَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِيْنَ اٰوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوا اَذًى كَثِيْرًا وَاِنْ تُصْبِرُوْا

(١) سورة العنكبوت آيات ١ : ٧ .

(٢) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل . للبيضاوى ص ٥٣٠ بتصرف .

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١﴾

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢).

وفيه خطاب من الله « تبارك وتعالى » لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين قائلاً لهم : أتنظنون أن تدخلوا الجنة بمجرد إيمانكم ، دون أن تتعرضوا لمثل ما تعرض له الأنبياء من قبلكم ومن معهم من المؤمنين ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة . إنكم ستبتلون بمثل ما ابتلى به غيركم (٣).

وفي ذلك إشارة إلى أن الوصول إلى الله « تعالى » والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ، ومكابدة الشدائد والرياضات (٤) ، قال عليه الصلاة والسلام « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (٥) ، وهكذا ، فقد رأينا أن زعماء المشركين لما رأوا النبي ﷺ مستمراً في دعوته رغم ما بدأ منهم لها من معارضة ومناوأة وتكذيب وصد ، ورأوا الناس أخذت تستجيب لها من مختلف الطبقات ، وخاصة الطبقات الضعيفة والفقيرة ، التي رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة نفس ، ورأوا أن النبي يشجع هذه الطبقة بتلقي القرآن ويدعو إلى البر بها ، ويهتم بأمرها وتحريرها ورفع مستواها ، في حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسى الاضطهاد ، خشوا أن يستشرى أمر الدعوة

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٢١٥ .

(٤) تفسير أنوار التنزيل « سابق » ص ٧٢ بتصرف .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها من حديث أنس ، الترمذى ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات من حديث أنس . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح ، النسائى فى السنن كتاب الإيمان والنذور باب الحلف بعة الله « تعالى » من حديث أبى هريرة « رضى الله عنه » ، وذكره مطولاً ، الدارمى فى السنن كتاب الرقائق باب حفت الجنة بالمكاره حديث أنس ، أحمد بن حنبل فى المسند ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ج ٣ ص ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤ .

ويتسع في هذه الطبقة فتكون الثغرة التي ينفذ منها إليهم وينهدم بها كيانهم ، فجئحوا إلى سدها منذ البدء باضطهاد من في حوزتهم من أرقاء ، ومن يقدرّون عليه من مستضعفين وإجبارهم على الرجوع عن الدين الجديد ، مِنَاوأة للدعوة ، ووسيلة لتخويف من تحدّثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم وفقرائهم بالالتحاق بها . ولقد رويت روايات عدة عن هذه المحنة ، يفهم منها أنها كانت من أشد ما هم النبي ﷺ هما عظيماً ، وأنه كان من صورها أن يعرى المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس ، وتوضع على أجسامهم الصخور الثقيلة ، ويمنع عنهم الماء والطعام ، وتقيّد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد ، ويجلدوهم بالسياط الشديدة ، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم ، فضربوا مثلاً خالداً على التمسك بالعقيدة ، وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس في سبيلها ، وأن بعض أغنياء المسلمين وخصوصاً أبا بكر رضي الله عنه « كانوا يشترّون الأرقاء المضطّهدين من مالكمهم وينقذونهم من الاضطهاد .

وهناك روايات يستفاد منها أن عدداً من الذين لهم عصبية قرشية اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبل ذويهم ، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن تقاليدهم ، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدواهم أيضاً . فكان ذلك سبباً لهجرة كثير منهم إلى الحبشة .

ومن اللافت للنظر أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبي ﷺ منذ البدء بالرغم من ضَعْفِهِنَّ ، وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد ، وأن منهن من تعرّضن فعلاً للأذى والفتنة . وفي الروايات أسماء لـنساء مسلمات أزهدت أرواحهن في سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال^(١) . وها هي ذى بعض الصور التي وقعت للمسلمين في مكة والتي تدل على مدى ما تعرضوا له من العذاب على أيدي مشركي قريش الذين انعدمت الرحمة من قلوبهم ، وماتت ضمائرهم حتى أصبحت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة .

(١) سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ بتصرف .

بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر « رضى الله عنهما »

كان من أول الناس إسلاماً بلال بن رباح : وكان مولاه أمية بن خلف الجمحى قاسى الكبد ، غليظ القلب ، لا ينبض قلبه بقطرة من الرحمة الإنسانية : كان يجرجره عند الظهيرة فى الحر الشديد فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة المكرمة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فما يزيد بلال عن ترديد : أحد .. أحد .. فيسرف أمية بن خلف الطاغية فى التنكيل ببلال وسومه سوء العذاب ، ويزداد بلال إيماناً واستعداداً لألوان العذاب من أجل ذلك استحق تلك المنزلة الرفيعة التى أخبره بها رسول الله ﷺ حين قال له « سمعت دف نعليك فى الجنة » (١) ، كما استحق أيضاً أن يكون سيدنا كما كان يقول سيدنا عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » (٢) .

آل ياسر :

ومن الذين عذبوا فى الله أيضاً آل ياسر فلقد كان المشركون يعذبونه عذاباً شديداً هو وأهله ، فيمر عليهم رسول الله ﷺ فما يملك إلا أن يشرهم بالجنة قائلاً لهم « أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة » (٣) فمات ياسر فى العذاب وأغلظت امرأته « سمية » القول لأبى جهل فطعنها فى قبلها بحربة فى يديه فماتت وهى أول شهيدة فى الإسلام

خبايا بن الأرت :

ونحنتم هذه النماذج التى تبين لنا مدى حنق ودناءة المشركين الذين فقدوا صوابهم ، فحاولوا بكل الوسائل أن يفتنوا المسلمين عن دينهم إلا أنهم قد فشلوا فشلاً ذريعاً — بصحابة جليل لاقى من المشركين ألواناً شتى من العذاب يصور لنا ما كان يحدث لصحابة رسول الله ﷺ من اضطهاد وتعذيب .

(١) صحيح البخارى ، باب فضائل الصحابة . مناقب بلال بن رباح ج ٥ ص ٢٣ .
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح . وهم ثقات ، انظر « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » لعل بن أبى بكر الهيثمى ج ٩ ص ٢٩٣ . مكتبة القدسي بالقاهرة .

وهذا الصباحى الجليل هو خباب بن الأرت .

فقد أخرج البخارى بسنده عن خباب بن الأرت قال :

« أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة . فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمّر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم لُيمشطُ بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم ، أو عَصَب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ولَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله » (١) .

وتمضى الأيام ، ويثبت الله الذين آمنوا ويسجل التاريخ لهم صفحة من أنصع صفحات البطولة لعدم تأثير هذا الطيش وذلك البطش وتلك الغطرسه التى وقعت عليهم من القرشيين ، لأن كل هذه الأشياء لم تستطع التأثير أو النيل من دين تمكّن فى نفوس أصحابه تمكّن الغرائز ، فماذا تفعل هذه الأشياء فى رجال جعلوا أنفسهم وقوداً لمبادئهم ودينهم .

يقول غوستاف لوبون : إن مكيدة قد تبید سطوة الجبار ، ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس (٢) . لقد جعل الاضطهاد من الثلة الصغيرة المسلمة كتلة قوية باتحادها وإيمانها ، وأثار فى كثير من الأحيان عصبية أهل هؤلاء السابقين إلى الإسلام وعاطفتهم ؟ وجعل منهم مدافعين عن حملة راية الإسلام ، ووحد بينهم فى الآلام والآمال (٣) .

يقول غوستاف لوبون أيضاً : إن الإيمان هو أكبر قوة فى تصرف الإنسان ، وأنه يرحزح الجبال عن مواضعها ، وإن المؤمن لا يتمكن من إقناع الخصم إلا إذا سكر بخمر المذهب ، وهؤلاء هم الذين يستطيعون أن يولدوا فى النفوس القوة الهائلة التى تجعل الناس عبيداً لدعوتهم (٤) . وكما سجل التاريخ لهؤلاء المؤمنين

(١) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب : ما لقى النبی ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

(٢) نقلاً عن كتاب « دراسات تاريخية » للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢١٦ .

(٣) دراسات تاريخية « سابق » .

(٤) نقلاً عن المرجع السابق .

صفحة ناصعة بيضاء من أنصع صفحات البطولة سجل هؤلاء القرشيين الطغاة
صفحة سوداء ، بل من أحلك صفحات الخسة والجبن والندالة .

هذه بعض الإيذاءات التي حدثت لرسول الله ﷺ ولأصحابه من
المشركين ، فهل كان ذلك سببه أن محمداً ﷺ لم يكن المهيب ، وأنه كان الهزيل
الذى يجترأ عليه ؟ ولماذا إذاً هذا العذاب الذى لقيه النبى ﷺ وأصحابه وهم على
الحق ؟ ولماذا لم يمنع الله « عز وجل » عنهم هذا العذاب وهم جنوده وفيهم رسوله
يدعون إلى دينه ويجهادون في سبيله ؟ .

والجواب :

أولاً : عن السؤال الأول يقول الشيخ أبو زهرة : إن محمداً ﷺ كان
المهيب فى شخصه ، والقوى فى ذاته ونفسه ، والذى آتاه الله « تعالى » القوة
الإنسانية الكاملة ، فهو المهيب المحبوب الذى لم يرد أن يكون مرهوباً ، وإن أراد
الرعبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغرون
بالبكرماء ، وكان محمد ﷺ كريماً ، ولم يرد أن يكون مخوفاً مفزعاً ، بل أراد أن
يكون أليفاً قريباً دانياً ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهبهم ، وقد كان « عليه
الصلاة والسلام » يفرض الرعبة فى قلوب المشركين إن كان لذلك موضع (١) .

ولعلنا لمسنا ذلك واضحاً عندما أراد أبو جهل أن يطأ رقبة رسول الله ﷺ
وهو يصلى . فما كان منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى يديه ، لأنه رأى
خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فلو دنا من الرسول ﷺ لاختطفته الملائكة عضواً
عضواً . وغير ذلك كثير يدل على تأثير مهابة الرسول ﷺ فيهم ، وما استطاعوا
لها رداً إلا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، وإصرار على مقاومة الهيبة .

ولكن لماذا لم يخفهم الرسول ﷺ بهيبته ؟ .

لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويحتصون من لهم حلم
ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون منهم مقاومة ، كأبى بكر وعثمان وجعفر
ابن أبى طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد ﷺ ، وينالون الضعفاء الذين لا حول

(١) خاتم النبیین ١ / ٤٠١ .

لهم ولا قوة يقاومون بها ، ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة وبطش ويزدقهم الكأس أكؤساً ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ولا عمر بن الخطاب ، لأنهم يتوقعون منهما المقاومة .

ولكن هل كان محمد ﷺ دون عمر مهابة أو دون حمزة في قوة النفس ؟ لا . لم يكن أقل منهما مهابة ولا قوة نفس بل كان أعلى منهما في ذلك كثيراً كثيراً ولكنهم نالوا منه وتحمل منهم الأذى في سبيل الدعوة ، ولم يرهب ولم يفزع بل رضى بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء . وإن ذلك من عمل النبوة ، إنه « عليه الصلاة والسلام » ما جاء مسيطراً ولكنه جاء مبلغاً ، وما جاء متحكماً ، ولكنه جاء داعياً مقنعاً ، فلو استخدم هيئته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ولبدأ النفاق في الذين يجيبون دعوته .

إن الرسول ﷺ يريد مؤمنين يدخلون في الإسلام رغياً لا رهباً . ولا يكون دخولهم عن خوف أياً كانت صورة الخوف ، لأن الذين الذي جاء به الرسول ﷺ دين الخليفة كلها لا دين جيل من أجيالها ؛ فلا بد من مؤمنين إيماناً قوياً ليحملوا هذا الدين إلى الخلف من بعده ﷺ ، ولا يكونون أقوياء في إيمانهم إلا إذا صبروا وصابروا في حضرة النبي ﷺ وينزل بهم البلاء في حضرته ليرى عليه الصلاة والسلام قوة احتملهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة في مشارق الأرض ومغاربها .

إن الذين يدخلون في الإسلام بهيبة النبي ﷺ سرعان ما يتركونه إذا غاب عنهم واعتبر ذلك بحال المؤمنين في المدينة ، فإنه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لأهل الإيمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا في الإسلام تابعين غير مؤمنين إيمان الصابرين المصابرين .

كالأعراب الذين ساروا مع القوى وقال فيهم الله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (١) وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد ﷺ . إن الله « تعالى » أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ

(١) سيرة التوبة آية ٩٧ .

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾ وإن ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعاً فى دعوته متطامناً لمن يخاطبهم ، ليس فظاً ولا غليظ القلب ، ولا مرهباً ولا مفرعاً .

وإن تطامن النبى ﷺ كما جرأ عليه الأقوياء الذين يؤذون الحق إذا بدا وضحه المبين ، قد قرب إليه الضعفاء ، وبهم كانت الدعوة الأولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم . بل إن تطامنه ﷺ والاعتداء عليه قد قرب بعض الأقوياء ولم يبعدهم .

ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لأنهم يرون أن محمداً « عليه الصلاة والسلام » بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان ليسمح لأحد أن يؤذيه إلا لطيب نفسه ، فيكون الإيذاء جاذباً للأنظار مستوعباً للذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الأحرار ، فيدعوهم ذلك إلى التفكير فى الذى يدعو إليه ، ويكفى ذلك لدخولهم فى الإسلام مناصرين غير محاريين ولا مجاملين .

من أجل ذلك ولأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه « عليه الصلاة والسلام » أن يتأق للأمر يسر وبرق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف (٢) .

وللإجابة عن السؤال الثانى يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى :

إن أول صفة للإنسان فى الدنيا أنه مكلف ، أى مطالب من قبل الله « عز وجل » بحمل ما فيه كلفة ومشقة ، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف والتكليف من أهم لوازم العبودية لله ، فالعبودية تستلزم التكاليف والتكليف يستلزم تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء .

من أجل هذا يجب على عباد الله فى هذه الدنيا أمران :

أولهما : التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح .

ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر ، وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك .

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) خاتم النبیین للأستاذ الدكتور محمد أبو زهرة ج ١ ص ٤٠٣ : ٤٠٥ بتصرف .

ولو شاء الله لجعل السبل لإقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به أمراً سهلاً وميسوراً ، ولكن فى هذه الحالة لا يتميز الصادق من الكاذب ، ولا المؤمن من المنافق لعدم تمحيص الواحد منهم عن الآخر .

وإذا فإن ما يلاقيه الدعاة إلى الله « تعالى » والمجاهدون فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى سنة إلهية فى الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :

أولاً : صفة العبودية الملزمة للإنسان ، لله عز وجل ، وصدق الله إذ يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

ثانياً : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية ، فما من رجل أو امرأة يبلغ أحدهما ، عاقلاً سن الرشد ، إلّا وهو مكلف من قبل الله « عز وجل » بتحقيق شرعة الإسلام فى نفسه وتحقيق النظام الإسلامى فى مجتمعه ، على أن يتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الشدة والأذى ، حتى يتحقق معنى التكليف .

ثالثاً : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين . فلو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله « تعالى » على ألسنتهم فقط ، لاستوى الصادق والكاذب ، ولكن الفتنة والابتلاء ، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب . وصدق الله القائل فى محكم كتابه : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) والقائل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده ؛ فلن تجد لسنة الله تبديلاً حتى مع أنبيائه وأصفیائه .

من أجل ذلك أودى رسول الله ﷺ وجميع الأنبياء والرسل كما أودى صحابته ﷺ كذلك حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمى من عمى ، رغم عظم فضلهم وجيل قدرهم عند الله « عز وجل » ، ومما ينبغى الإشارة إليه أن العذاب الذى يلقاه المسلم وهو فى طريقه لإقامة المجتمع الإسلامى ليس فى

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٢) سورة العنكبوت الآيات ١ : ٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢ .

حقيقته عقبات أو سدوداً تصده عن بلوغ غايته ، كما يتوهم بعض الناس بل هذه العقبات وتلك السدود في حقيقتها دليل على أن المسلمين قد اقتربوا لغايتهم التي كلفهم الله بالوصول إليها .

فلا ينبغي للمسلم إذا أن يتوهم اليأس ، إذا ما عانى شيئاً من المشقة أو المحنة . بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين .

أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضرر ، والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم « عز وجل » ، وتأمل فإنك ستجد برهان ذلك جلياً في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامى ، وتوهموا أن هذا الذى يرونه من الأذى والعذاب إنما هو عنوان ودليل على ابتعادهم عن النصر ، كان جواب هؤلاء من الله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

ونجد برهان ذلك جلياً أيضاً في قصة خباب بن الارت ، حينما جاء لرسول الله ﷺ بعد اكتواء جسده من عذاب قومه له ، يشكو إليه ﷺ ذلك ويسأله الدعاء بالنصر للمسلمين .

فقد كان جواب رسول الله ﷺ له بهذا المعنى :

« إن كنت تتعجب من العذاب والأذى وتستغرب أن ترى ذلك في سبيل الله « عز وجل » ، فاعلم أن هذا هو السبيل .. وتلك سنة الله في جميع عبادته الذين آمنوا به » .

مشط الكثير منهم في سبيل دينه بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب فما صدهم ذلك عن شيء من دين الله .

وإن كنت ترى في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر ، فأنت متوهم .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

بل الحق هو أن تجدد في العذاب والألم سيراً في الطريق ودنواً من النصر ولينصرن الله هذا الدين حتى يسير الرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله . وفي رواية « والذئب على غنمه » (١) .

فتنة المسلمين بإغصاب الوالدين عليهم :

ومن فتنة المسلمين أن حاول المشركون أن يضغطوا على المسلمين بواسطة الوالدين ليردوهم عن دينهم ولكن ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

فما كان ذلك يؤثر على المؤمنين لأنهم آمنوا بكل جوارحهم ، واستسلموا لله فلن يصرفهم عن دينهم صارف صغيراً أو كبير هذا الصارف .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على هذا الموقف منها قول الحق « تبارك وتعالى » : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين ما رواه مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد أنه قال : نزلت في أربع آيات فذكر قصة ، فقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ، والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، فقال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا (٤) فهاها فنزلت هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ الآية (٥) .

(١) « فقه السيرة » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٨٥ : ٨٧ الطبعة السابعة ط دار الفكر .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآيتين ٨ ، ٩ .

(٤) شجروا فهاها : أى جعلوا في شجره — وهو مفرجه — عوداً حتى فتحوه . الفائق في غريب

الحديث للزخشري ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) الجامع الصحيح « سنن الترمذى » لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩ — ٢٩٧ ج ٥

٣٤٢ ، ٣٤٣ كتاب تفسير القرآن باب سورة العنكبوت ، حديث رقم ١٨٩ ٣ — ط ثانية ١٣٩٥ هـ

١٩٧٥ م تحقيق إبراهيم عطوة عوض . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وهاتان الآيتان تستهدفان تثبيت الابن المسلم في إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وهاتان الآيتان جاءتا استطراداً على الأرجح في سلسلة مواعظ لقمان ، ويدل مضمونهما على أنهما استهدفتا نفس الهدف الذي استهدفته آيتا العنكبوت ، واحتوتا إيضاحاً أكثر ، بما هو الواجب على الولد نحو والديه الكافرين ، وهو الحسنى بما يتعلق بأمور الدنيا فحسب .

وهذا التكرار يدل على أن محنة غضب الوالدين واضطهادهما وإلحاحهما لم تكن مقصورة على حادث واحد ، بل تعرض لها أكثر من وإجد من المسلمين في مكة ممن كانوا يمتنون إلى البيوت القرشية الوجيبة .

وهذا مشهد جديد من مشاهد الأذى والفتنة كما هو المتبادر ، كما أن فيه مغزى عظيماً وهو أن بعض فتیان هذه البيوت أقبلوا على الدعوة والاستجابة إليها ، والالتفاف حول صاحبها برغم مواقف آبائهم وذوئهم من معارضتها والصد عنها (٢)

طمأنة بعض المسلمين والتعهد لهم بحمل ذنوبهم إذا رجعوا عن دينهم :

وهذا أسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ، فقد كان الزعماء من المشركين يعمدون أحياناً إلى طمأنة بعض المسلمين الذين لا يقدرّون على اضطهادهم من أهل العصبية .

(١) سورة لقمان الآيتين ١٤ ، ١٥ .

(٢) « سيرة الرسول » محمد عزة دروزة ج ١ ص ٨١

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

ولكن المسلمين لم يلتفتوا إليهم لتمكن الإيمان في نفوسهم ، وبذلك أخفقت قريش وفشلت فشلاً ذريعاً .

رابعاً : مساومته ﷺ بعرض الأمور الدنيوية المغرية عليه لاستمالته :

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن السخرية والتهكم التى لجئوا إليها ستهد قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً (٢) ، ومحاولاتهم قد باءت بالفشل الذريع . الأمر الذى جعل قريشاً تفكر فى ملاطفته ﷺ وملاينته ، علها تستطيع بذلك أن تصل إلى ما تريده من صرفه عن دعوته ، فرأت أن ترسل إليه ﷺ عتبة بن ربيعة — وكان سيداً فيهم — ليعرض عليه أموراً عليه يقبل بعضها ويكف عنهم — وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثر — فقال عتبة لرسول الله ﷺ يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشطر فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفहत به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له رسول الله ﷺ « يا أبا الوليد أسمع » .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى

(١) سورة العنكبوت الآيتين ١٢ ، ١٣ .

(٢) « فقه السيرة » للشيخ محمد الغزالي ص ١١٤ ط بمطبعة حسان الطبعة السابعة .

يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه — أو كما قال له — حتى إذا فرغ عتبة . قال له النبي ﷺ :

« أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم .

قال : اسمع مني ، قال : أفعل .

فقال رسول الله ﷺ : ﴿ حَمَّ . تُنْزِلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرأها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمدا عليها ، ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال « سمعت يا أبا الوليد ؟ » قال سمعت قال : « فأنت وذاك » .

ثم قام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلسوا إليه قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي . تخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

إن هذه الإجابة التي أجاب بها عتبة على القرشيين إنما كانت بعد ما لمسه من صدق ثبات الرسول ﷺ وأنه لا يرضى بدينه بديلاً . ولو كان ممن يطلبون الدنيا لاغبط بما عرض عليه واتفق مع قريش في الحال وأراح نفسه وصحابته من الإيذاء والفتنة .

(١) هذه القصة ذكرها عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من حديث جابر « رضى الله عنه » كما في تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ ، من ٩١ بسند حسن ، أخرجه ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ بسند حسن أيضاً . وذكرها السهيلي في الروض الأنف ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٢١ ط دار الكتب الحديثة .

ولكنه مكلف برسالة خالدة لا بد وأن يبلغها للناس مهما لحقه من أذى أو عاق طريقه من معوقات .

خامساً : مطالبتهم للرسول ببعض المعجزات :

وبعض أن فشل المشركون في وسيلة الإغراء التي استخدموها مع رسول الله ﷺ اتجهوا وجهة جديدة عليهم بواسطتها أن يقضوا على هذا الدين . وهذه الوجهة هى مطالبتهم للرسول ﷺ بأن يأتي لهم بالمعجزات والآيات الخارقة للعادة برهاناً على صدق دعواه .

ولم يطلبوا ما طلبوه من المعجزات للهداية والإرشاد ، بل طلبوها بهدف العناد والتعجيز فقط . وهم بذلك سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم السابقة من تحديهم لأنبيائهم الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما نرى في الأمثلة الآتية : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفاً أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ يَنْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً تُقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشِراً رَسُولاً ﴾ (١) .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٣) .

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم كثيراً ، حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من التحدى الضمنى ومن التحدى بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن مواعده .

(١) الإسراء : ٩٠ : ٩٣ .

(٢) الحجر : ٦ ، ٧ .

(٣) الأنبياء : ٥ .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدى المتكرر كان سلبياً ، إذا استثنينا الإشارة إلى القرآن باعتباره الآية الباقية ، أو إلى احتوائه ما فى الكتب السماوية دليلاً على صحة وحى الله به ، كما نرى فى الأمثلة الآتية :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْ لَمَّا تُاتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ (١) .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤) .

وهكذا طالب المشركون الرسول ﷺ أن يأتيهم بخوارق من عند الله « تبارك وتعالى » لتكون دليلاً على صدقه فى دعوته ، إلا أن الله « سبحانه وتعالى » الذى يعلم منهم العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به « لم يستجب لما طلبوه من رسول الله ﷺ ، ولعل آيات الحجر والأنعام التالية :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (٥) .

(١) طه : ١٣٣ .

(٢) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .

(٣) العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) الملك : ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) الحجر : ١٤ ، ١٥ .

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١)

من هذا الباب من ناحية تأكيد نية المكابرة والعناد في الكفار ، والاستمرار
في الموقف السلبي من أجل ذلك .

وهكذا فقد اقتضت حكمة الله ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد
« عليه السلام » وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب
جديد ، هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها
على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة
والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل
النقي البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من
الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار
أن الدعوة التي تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه
بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هي في غنى عن
معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات .

وفي هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود
والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة لحادثات وقعت وانقضت ، ولكن
أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب
المنزلة على بعض أولئك الأنبياء ، هو أسلوب خالد حتى قوى في كل زمان ومكان
ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسُموه ، ولذلك
كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي (٢) .

سادساً : محاولتهم بث الفرقة بين الرسول ﷺ وعمه أبي طالب :

وذلك بتكوين وفد للذهاب إلى أبي طالب ليطلب منه أن يرد عنهم محمداً
ﷺ .

(١) الأنعام : ٧ .

(٢) « سيرة الرسول » لمحمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ . .

وذهب الوفد لأبي طالب وأخذ يقول له : يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا في أفينيتنا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال أبو طالب لابنه عقيل : التمس لي ابن عمك فأخرجه عقيل من كبس^(١) من أكباس أبي طالب ، فأقبل محمد ﷺ يمشي مع عقيل يطلب الفيء يمشي فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب فقال له أبو طالب : يا ابن أخي والله ما علمت إن كنت لي لمطيعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتهم في كعبتهم وفي ناديتهم تسمعهم ما يؤذيهم فإن رأيت أن تكف عنهم^(٢) .

وهنا أطرق محمد ﷺ إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتجاهه . في الكلمة التي تفتت عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل في الضلال يُمدُّ له فيه ، فتطغى الجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الحرف والآفن ، أم هو يضيء أمام العالم نور الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتحرر فيه العقول من رق العبودية ، والقلوب من إसार الأوهام وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى .

وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ، لا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدَّة والعدد . إذا لم يبق له دون الحق الذي ينادي الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدَّة . ليكن !!

إن الآخرة خير له من الأولى . وليؤد رسالته وليذع إلى أمر ربه . ولخير له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أوحى إليه من أن يخذله أو يتردد فيه . لذلك التفت إلى عمه ممتلىء النفس بقوة إرادته^(٣) وقال له « والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار »^(٤) يا لعظمة الحق وجلال الإيمان به « اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف كذلك منهوكاً أمام هذه

(١) الكبس : بيت صغير ويروى بالنون ، من الكناس بيت الظبي . النهاية ٤ / ٥ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والكبير إلا أنه قال : من جلس مكان كبس ، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٦ / ١٤ ، ١٥ .

(٣) حياة محمد « سابق » ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٤) الحديث السابق .

القدسية والإرادة السامية فوق الحياة وكل ما في الحياة . ولم تك إلا لحظة اهترفها وجود أبى طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه^(١) ثم قال : « والله ما كذب ابن أخى قط ارجعوا راشدين »^(٢) .

وهكذا خرج رسول الله ﷺ من هذه المفاوضات وتلك المساومات مصمماً على الاستمرار في دعوته مهما تألب عليه المبطلون .

واكتسبت دعوته نصراً مؤزراً ، لأنه رسخ في الأذهان ، أن دعوة لا تقبل المساومة ، وترفض أسخى العروض التى يشتهىها كل طموح

مثل هذه الدعوة التى ستعيش ، وسيكتب لها النصر والخلود ، وفي هذا الموقف الذى وقفه الرسول ﷺ تعليم للدعاة في كل عصر أن يستمروا في دعوتهم مُتَحَدِّين كل الصعاب ، ومُتَسَامِينَ فوق كل إغراء ، وذلك لأن المتاعب في سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم ، ورضا الله وجنته أعز وأغلى عندهم من كل مناصب الدنيا وجاهها وأموالها .

وخرجت قريش من هذه الإغراءات والمفاوضات بخيبة أمل كبيرة ، حيث أخفقت في تعويق مسار الدعوة الإسلامية ، وأدركت بعد خوض هذه التجربة أن ما تصبو إليه بعيد المنال .

سابعاً : التشنيع والدعاية وترويح الشائعات الكاذبة :

لقد كان ما بذلته قريش من جهود في محاربة محمد ﷺ وصحبه ، وما تابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء عليه وعلى دعوته ، يعدو ما يتصوره العقل ، هددته وهددت أهله وأعمامه . تهكمت به وبدعوته ، وسخرت منه ومن اتبعه . أرسلت شعراءها تهجوه وتعري أديمه . نالته بالأذى ونالت من أتباعه بالسوء والعذاب .

عرضت عليه الرشوة والملك وكل ما يطمع الناس فيه شردت أنصاره عن

(١) حياة محمد ﷺ « سابق » ص ١٤٤ .

(٢) الحديث السابق .

أوطانهم وأصابتهم في تجارتهم وفي أرزاقهم . أنذرته وأنذرتهم بالحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمر ، حاصرتهم لتقتلهم جوعاً إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

ومع ذلك ظل محمد ﷺ يشتد في دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذي بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً .

أفان لقريش بعد كل هذا أن تلقى سلاحها وأن تصدق بالأمين الذي عرفته منذ طفولته وكل صباه وشبابه أميناً ؟ .

كلا : لم يأن لها أن تدعن أو تسلم . إنها الآن أشد ما تكون خوفاً من انتشار دعوة محمد ﷺ بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة .

وقد بقى لديها سلاح لجأت إليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها في قوته وفي مضائه مطمع ، ذلك سلاح الدعاية .

الدعاية بكل ما ينطوى عليه من مجادلة وحجج ومهاترة ، وترويج شائعات الدعاية على العقيدة وعلى صاحبها واتهامه فيها ، واتهامها لذاتها .

الدعاية التي لا تقف عند حدود مكة التي ليست بحاجة إليها كمحاجة البادية وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها . كان التهديد والإغراء والإرهاب بعض ما يغني عن الدعاية في مكة لكن لم تكن لتغني عنها شيئاً عند الألوف الوافدة إلى مكة لأى غرض من الأغراض سواء للحج أو للتجارة أو لغير ذلك .

لذلك قام المشركون من أهل مكة بتحذير الوافدين إليها من الاجتماع برسول الله ﷺ أو الاستماع إلى كلامه ؛ لأنه في زعمهم ساحر أو شاعر أو مجنون أو كاهن أو متقول كاذب .

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم ، عن رجل من كنانة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى الحجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، فإذا هو أبو جهل وهو يقول : يا أيها الناس لا يغربكن هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى » (١) .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٣٧٦ ورجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد ج ٦

وما رواه أيضاً :

عن إبراهيم بن أبي العباس عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : أخبرني رجل يقال له ربيعة بن عباد من بني الدئل — وكان جاهلياً فأسلم . قال رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجار وهو يقول « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين^(١) يقول : هذا صابئ كاذب — يتبعه حيث ذهب — فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب^(٢) .

كذا قال في هذا السياق أبو لهب وفي الحديث الأول ذكر أبا جهل وقد يكون وهماً من الراوى ، ويحتمل أن يكون تارة ذا وتارة يكون ذا وأنهما كانا يتناوبان على إيدائه ﷺ .

وغير ذلك أمثلة كثيرة تدل على استخدام قريش لهذا السلاح — سلاح الدعاية الوقحة ضد الرسول ﷺ . لكنه « عليه الصلاة والسلام » لم يأبه ولم يعأ بذلك واستمر يدعو الناس ليلاً ونهاراً وفي كل لحظة من لحظات حياته ، ولم يشنه عن ذلك شيء مما تفعله قريش ضده .

وهكذا فشلت قريش في إبطال دعوة رسول الله ﷺ ومقارعة حجته بباطلهم فتقطعت بهم الأسباب ، وسقطت كل أسلحتهم التي استخدموها ضد الرسول ﷺ من تهكم وسخرية وتشويش وبطش ومساومة وجدل وغير ذلك . وذلك لأن رسول الله ﷺ قد استوثق بعقيدته ، ووثق بما يدعو إليه ، وأنه حق ، فإن هذه العقيدة في حد ذاتها تؤتي نتائجها حقاً وصدقاً ، فالثقة والإيمان بما يدعو إليه نتائجها محققة ، وقد تجلى هذا في رسول الله ﷺ ، حين وقف راسخاً أمام تحديات قريش ، ورفض كل محاولاتها اليائسة التي استخدمتها لصرفه عن مهمته الكبرى التي خلقه الله من أجلها .

(١) ذو غديرتين : الغدائر الذوائب ، واحدها غديرة . قال الليث : كل عقيصة غديرة والغديرتان : الذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر وقيل الغدائر للنساء هي المضفورة والصفائر للرجال . وفي صفته ﷺ قدم مكة وله أربع غدائر ، هي الذوائب واحدها غديرة اللسان مادة غدر .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٤٩٢ الطبعة الثانية بمطبعة المكتب الإسلامي ببيروت ، والطبراني في الكبير ، والحديث رجاله ثقات « مجمع الزوائد ج ٦ ص ٣٢ » .

ثامناً : المقاطعة الظالمة :

وبعد أن استخدمت قريش الوسائل السابقة التي ألجأت الصحابة « رضوان الله عليهم » إلى الهجرة للحبشة ، وجدت أن كل هذه الوسائل قد باءت بالهزيمة ، ولم تنجح في القضاء على محمد وأتباعه ، وراعى أن أنصار الإسلام يزدادون كل يوم ، وأنهم يجدون من يحقق لهم الأمن والقرار في غير مكة ، وفكر زعماءوها في هذا الخطب الجلل ، وانتهاوا من تفكيرهم إلى قتل محمد ﷺ ، فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم ، وبنى المطلب ، فأمرهم فأدخلوا رسول الله ﷺ شيعتهم : شيع بنى هاشم^(١) ، ومنعوه ممن أرادوا قتله فأجابوه لذلك حتى كفارهم ، فعلوا ذلك حمية للرحم والقراية على عادة أهل الجاهلية في ذلك ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو لهب بن عبد المطلب ، فقد انحاز إلى قريش ، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أمرهم ، وأتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على أن لا يُنكحوهم ولا ينكحوا إليهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يتاعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

وكتبوه في صحيفة بخط بغيض بن عامر وقال ابن هشام : بخط النضر بن الحارث — فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها . فشلت يده . وقال ابن إسحاق إن الصحيفة كتبت بخط منصور بن عكرمة . وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة .

قال ابن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة — رضى الله عنها — وفي ذات يوم كان حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهى عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب فقابله أبو جهل فتعلق به ، وقال له : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . فقال له أبو البحتري

(١) شيع بنى هاشم : الشعب بكسر الشين كان منزل بنى هاشم غير مساكنهم ويعرف بشيع بن يوسف كان لهاشم « شرح المواهب اللدنية للشيخ محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي ج ١ ص ٣٢٣ والشعب الطريق في الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

ابن هشام بن الحارث — وهلك كافراً — طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ نخل سبيل الرجل فأى أبو جهل حتى نال كل واحد منهما من صاحبه ، فأخذ أبو البحتري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه ووطأ شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم ، ومع كل هذا فقد كان رسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سراً وجهراً لا يتقي في ذلك أحداً من الناس (١) .

نقض الصحيفة

مكث بنو هاشم ، وبنو المطلب بالشعب ثلاث سنين حتى بلغ بهم الجهد مبلغه ، فقيض الله تعالى رجالاً من بنى عبد مناف ، ومن قصى ورجالا من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه ، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة (٢) فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق ، ويقال كانت معلقة في سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته (٣) ، وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم ، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبنى ، فانطلق يمشى بعصابته من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك

(١) انظر السيرة النبوية لمحمد بن عبد الملك بن هشام ٢ / ٣ : ٥ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة ، البداية والنهاية ٣ / ٨٤ : ٨٦ ، الكامل في التاريخ لعز الدين أبو الحسن على الشيباني ابن الأثير ٢ / ٤١ ، ٤٢ ، شرح المواهب ١ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٠٢ : ٥٠٤ .

(٢) الأرضة بفتح الهمزة والراء والضاد المعجمة دوية صغيرة كالعدسة تاكل الخشب شرح المواهب ١ /

(٣) وفي شرح المواهب أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم فلم تدع إلا أسماء الله فقط كما ذكر ابن هشام وأما ذكر ابن إسحق وابن عروة بأن الأرضة لم تدع اسماً لله إلا أكلته وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة قال البرهان ما حاصله « وهذا أثبت من الأول فعلى تقدير تساوى الروايتين يجمع بأنهم كتبوا نسختين فأبقت في إحداها ذكر الله وفي الأخرى خلافه وعلقوا إحداها في الكعبة والأخرى عندهم فأكلت من بعضها اسم الله ومن بعضها ما عداه لئلا يجتمع اسم الله مع ظلمهم انتهى . شرح المواهب ج ١ ص ٣٣٧ .

وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فنكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعاً إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم ، فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نصف ، إن ابن أخي أخبرني — ولم يكذبني — أن الله يرى من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيان وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبداً حتى يموت من عندنا آخرنا ، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم قالوا : قد رضينا بالذي تقول — ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا وعادوا بشر ما كانوا عليه ، فقال أولئك النفر من بنى عبد المطلب : إن أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإننا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم طمس ما كان فيها من اسمه وما كان فيها من بغى تركه ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بنى عبد مناف وبنى قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بنى هاشم ، منهم أبو البحتري والمطعم بن عدى وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بنى عامر بن لؤى — في رجال من أشرافهم ووجوهم : نحن برءاء مما في هذه الصحيفة ، فقال أبو جهل لعنه الله : هذا أمر قضى بليل .

واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال ، فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فشققها . وفي رواية : قام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ، فلبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بنى هاشم والمطلب فأمدوهم بالخروج إلى مساكنهم .

ففعّلوا ، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة (١) .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا :

أن هذه القطيعة ، تصور قمة الشدة التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام ، وقد رأينا أن المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب ، شاركوا المسلمين في تحملها ، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ .

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا ، فقد كان الذي دفعهم إليه حمية القرابة والرحم ، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم تخلوا بين محمد ﷺ ومشركي قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونهم ويفتكون به ، بقطع النظر عن العقيدة والدين .

فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتي في صدورهم :

الأولى : الثبات على الشرك والاستكبار على الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ .

الثانية : الانصياع للحمية التي تدعو إلى حماية القريب من بطشه الغريب وظلمه ، بحق كان أو بباطل .

أما المسلمون ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فإنما صبرهم على ذلك الانصياع لأمر الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهَوَانُ الدنيا عندهم في جنب مرضاة الله « عز وجل » ، وهذا ما يهمننا أن نبحث فيه .

قد نسمع بعض المبطلين من محترفي الغزو الفكري ، يقولون :

إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب ، كانت تكمن خلف دعوة محمد ﷺ .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٧ : ١٩ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٥ : ٩٧ ، الكامل في التاريخ لعز الدين ابى الحسن على الشيباني ٢ / ٤١ ، ٤٢ الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ، شرح المواهب ٢ / ٣٣٧ ، « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ٢ / ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، سلسلة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى . بمطابع الأهرام التجارية .

وكانت تحوطها بالرعاية والحفظ!.. والدليل على ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين .

وللإجابة على ذلك يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في فقه السيرة : « وإنما المغالطة مكشوفة ، لا يتناسك عليها حجاب أى منطق ولو كان صورياً . ذلك لأن من الطبيعي جداً أن تقود الحمية الجاهلية بنى المطلب وبنى هاشم إلى الذود عن حياة ابن عم لهم ، عندما تتهددها يد غريبة ويدنو إليها بالسوء شخص دخيل . والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القرابة إلى مثل هذا التعصب ، لا تنظر إلى مبدأ ، ولا تتأثر في ذلك بحق أو بباطل ، وإنما هى العصبية ولا شيء غير العصبية . ولذلك أمكن أن يجتمع في ذوى قرباه ﷺ صفتان متناقضتان بحسب الظاهر : الاستكبار على دعوته والجحود بها ، والانتصار له ضد سائر المشركين من قريش .

ومع ذلك ، فأى فائدة حققوها للنبي ﷺ من وراء اعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كما أوذى هو وأصحابه ، ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم وبنو المطلب من غلوائهما شيئاً .

والمهم أن نعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له ، لم تكن حماية للرسالة التى بعث بها ، وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية ، من قبل المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم ، فأنعم بذلك من جهد مشكور ، وسبيل يتنبهون إليها .

أما رسول الله ﷺ ، ومعه أصحابه المؤمنون ، فما الذى كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟ .. وأى غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟ . بماذا يجب على هذا السؤال ، أولئك الذين يتأولون رسالة محمد ﷺ وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين أو ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟ وللإجابة على ذلك أيضاً يقول الدكتور البوطي :

تصور هذه السلسلة من حلقات الإيذاء والتعذيب ، لرسول الله ﷺ

والمسلمين ، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهمها الجحد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها ؟...

لقد عرض المشركون على محمد ﷺ الملك والثراء والزعامة ، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الإسلام ، فلماذا لم يرض « عليه الصلاة والسلام » بذلك ، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه — وإن غايتهم الشيع بعد الجوع — كى يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون فى أيديهم والمال يكون فى جيوبهم .

ولقد قوطع محمد ﷺ ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بنى قومه ، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم ، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم حتى راحوا يأكلون الشجر ، وهم على ذلك صابرون ، محذقون برسولهم « عليه الصلاة والسلام » أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ ..

وعندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه ، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة ، وقد تجردوا عن كل ما يتعلق به الطامعون فى المال ، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلاً ، ولا يقيمون وزناً لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم ، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟ ..

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون ، ملاحظة الأمرين التاليين :

الأول : أن الجماعة الاولى من أصحاب محمد ﷺ فى مكة ، كانت على الأغلب من الفقراء والموالى والمضطهدين ، وهو يدل على أنهم ينفسون باتباعهم محمداً ﷺ عن شيء من كرههم ، وأنهم كانوا يتأملون مستقبلاً اقتصادياً أفضل لأنفسهم فى ظل الدين الجديد .

الثانى : أن هؤلاء الأصحاب ، ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا ، وأقبل إليهم الثراء والمال ، وهو دليل على أن خطة الرسول ﷺ كانت ترمى إلى تحقيق هذه الغاية .

وإذا تأملنا في استدلالهم على ما يتصورونه ، بهاتين الملاحظتين ، أدركنا كم هو نصيب الخيال والوهم من عقولهم ومنهج تفكيرهم .

أما أن الجماعة من أصحابه ﷺ كانت على الأغلب من الفقراء والموالي ، فنعم ، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أى علاقة أو نسب ، إن شريعة تقضى بإرساء ميزان العدالة بين الناس ، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية ومستكبر ، من المسلم به أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين استمروا حياة البغى والظلم ، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغائم ، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم ، بل كل إنسان ليس له في تجارة البغى والاستغلال نصيب ، لأنها تقدم لهم المغائم أكثر من أن تقدم لهم المغارم ، أو لأنهم — على أقل تقدير — ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكاليفها .

إن معظم من كان حول رسول الله ﷺ ، كان مستيقناً أنه على حق وأنه نبي مرسل ، ولكن أرباب الزعامة وعشاق العظمة والسيطرة ، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الاستسلام لهذا الحق والتفاعل معه ، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعوقهم عن الاستسلام لشيء آمنوا به واستيقنوه .

فما العلاقة بين هذه الحقيقة التى يفهمها كل باحث ، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟ وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التى سلكها رسول الله ﷺ كانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثورة واستيلائهم على عروش الملوك واستلاب السيادة منهم ، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً إلى ذلك — فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب ..

إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم وفارس ، فى حقبة يسيرة من الزمن ، بعد أن صدقوا الله فى إسلامهم ، أفىكون ذلك دليلاً على أنهم ما أسلموا إلا طمعاً بعرش الروم والفرس ؟ .

لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت ، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح .

لو كان عمر وهو يجهز جيش القادسية ويودع قائده سعد بن أبى وقاص ،

يستهدف كنوز كسرى ، ويسيل لعبه رغبة في أن ينقلب في مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه ، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان ، ولكنهم صدقوا الله في الجهاد من أجل نصرة دينه ، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون .

لو كان الحلم الذى يراود المسلمين في معركة القادسية ، وصولاً إلى ثروة وتقلباً في نعيم وتحقيقاً للذائد العيش ، إذلاً لما دخل ربعى بن عامر « رضى الله عنه » سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التى غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رحمه على البسط والتمارق الفاخرة حتى أفسدها ، ولما قال لرستم : إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !.

أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال ؟ .

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها ، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها ، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً إلى تحقيق مرضاة الله .

ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا إلى شىء منها . المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهي الذى يقول : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١) وإن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أى عقل كان ، بشرط واحد ، هو أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأى رغبة أو غرض (٢) .

ثانياً : إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر ، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق ، ابتكروا وسائل أخرى ، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائى ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة (٣) .

* * *

(١) سورة القصص آية رقم ٥ .

(٢) فقه السيرة للبوطنى ص ٩٥ : ٩٨ .

(٣) « السيرة النبوية » للشيخ مصطفى السباعى ص ٦٠ .

الباب الثاني

هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة

الفصل الأول : الهجرة الأولى وما وقع فيها .

الفصل الثاني : الهجرة الثانية وما وقع فيها .

الفصل الأول

هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة

وبعد أن فشلت قريش في محاولاتها للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وجدت أنه لا مناص من الاستمرار في وسيلة التعذيب والاضطهاد ، عسى أن تنجح في التخلص من هذا الدين ، فصبت جام غضبها على المؤمنين ، وضاعفت من تعذيبهم واضطهادهم لدرجة أن أصبحت حياتهم في مكة شقاء متصلاً .

فحزن الرسول ﷺ لتلك المآسى التي تقع على المسلمين من أصحابه ﷺ وهو عاجز عن كفها ، فكان لا بد من البحث عن حل لهذه المشكلة التي تواجه المسلمين ، ولم يكن هناك طريق لإنقاذهم من أيدي هؤلاء العتاة إلا الهجرة ولكن إلى أى أرض يهاجرون . لا بد من أرض تتوفر فيها الحرية ، وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش — تلك القبيلة التي لها مكانة مرموقة بين القبائل — وتحت سلطان حاكم لا يؤذيهم ، ولا يمكن أحداً من إيذائهم . حتى يكونوا في بعد عن الاضطهاد واحتماله .

ولا يتوفر كل ذلك إلا في أرض الحبشة . فهي بعيدة عن سطوة قريش . وهى لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل . وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر . لذلك أشار رسول الله ﷺ عليهم بالهجرة إليها^(١) وأمر الرسول هذا لأصحابه مستمد من نحو قوله تعالى^(٢) :

(١) « خاتم النبیین » للأستاذ الدكتور محمد أبو زهرة ج ١ ص ٤٠٥

(٢) « جوامع السيرة » لابن حزم الأندلسي ص ٤٤ بتصرف .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

فهذه الآية الكريمة كما يقول ابن عباس يراد بها جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة (٢)، والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة (٣). واستجاب المسلمون لأمر الله وأمر رسوله فهاجروا إلى الحبشة .

وقت خروجهم إليها :

خرج الصحابة « رضوان الله عليهم » إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية وكانوا عشرة رجال ، وأربع نسوة ، وقيل : وخمس نسوة ، وخرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار (٤) .

أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى :

أما الرجال فهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وأبو حذيفة بن عتبة ، ومصعب بن عمير ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة ، وسهيل بن بيضاء ، وأبو سبرة بن أبي رهم العامري ، قال ابن إسحاق : ويقال بدله حاطب بن عمرو العامري . ثم قال ابن إسحاق أيضاً فهؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى الحبشة . قال ابن هشام : وبلغني أنه كان عليهم عثمان بن مظعون . وأما النسوة فهن رقية بنت النبي ﷺ ، وسهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة ، وأم سلمة بنت أبي أمية امرأة أبي سلمة ، وليلى بنت أبي جثممة امرأة عامر بن ربيعة ، وأم كلثوم بنت سهل بن عمرو ابن عبد شمس امرأة أبي سبرة بن أبي رهم (٥).

(١) سورة الزمر آية رقم ١٠ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٥٦٨٤ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل . محمد بن أحمد بن الجوزي الغرناطي المالكي ٣ / ١٩٢ ط دار الكتب الحديثة .

(٤) فتح الباري ٥ / ٣١ .

(٥) فتح الباري ج ١٥ ص ٣١ ، ٣٢ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٦ ، ٩٧ .

استقبال النجاشي للمهاجرين من المسلمين :

ولما وصل المسلمون إلى الحبشة أكرم النجاشي مَثَواهم ، وأحسن لقاءهم ،
ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهليهم .

روى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت :

« لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار — النجاشي — أمنا على ديننا
وعبدنا الله لا نُؤذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه » (١) .

رجوع مهاجري الحبشة إلى مكة وسببه :

واستمر المسلمون المهاجرون في الحبشة ينعمون بالاستقرار والأمن والحرية
التامة في تأدية عباداتهم دون حدوث أية مضايقات لهم من أحد ، وذلك بسبب
ملكها الذي أكرمهم غاية الإكرام ، ولم يمكث المهاجرون بها سوى ثلاثة أشهر ،
فقد خرجوا إليها في رجب وأقاموا بها شعبان ورمضان ، ورجعوا في شوال من
سنة خمس (٢) ، وكان سبب رجوعهم مائتي إليهم من أن المسلمين يزدادون قوة
وأنتهم يمكنهم أن يعيشوا في مكة دون أن تُقدّر الجاهلية بصلفها وحمقها على أن
تسيء إليهم أو تنال منهم فقد أسلم من الرجال من تهابه قريش وله بينها منزلة رفيعة
وشأن مرموق ؛ فرجعوا إلى مكة .

ولكن الجاهلية سرعان ما انطلقت مسعورة غير عابئة بمن أسلم من رجالها
تسوم المؤمنين صنوف العذاب الأليم ، لا يردعها رادع من دين ولا يزرعها زاجر
من خلق أو رحم .

قصة الغرائق وتفنيدها :

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما ذكره بعض المفسرين من أن سبب رجوع

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ورجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد

ج ٦ ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) فتح الباري ج ١٥ ص ٣١ .

مهاجرى الحبشة إلى مكة يرجع إلى قصة باطلة مختلقة تعرف بقصة الغرائق^(١) ، وأن الله أنزل بسببها قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢) .

رواية باطلة في سبب نزول هذه القصة :

قال الحافظ في « الفتح » أخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة ﴿ وَالْعَجْمِ ﴾ فلما بلغ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ، فنزلت هذه الآية . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال في إسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ثم ساق الحديث . وبعد أن ذكر الحافظ من خرج هذه القصة ومنهم ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب ، والطبري من طريق العوفي عن ابن عباس . قال وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع ، ثم يقول : لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين ، أحدهما : ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب ، والثاني : ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية^(٣) .

تفنيد هذه القصة الباطلة :

وقد أنكر هذه القصة جمهور علماء الإسلام القدامى والمحدثين بل ورفضوها

(١) الغرائق : المراد بها ههنا الأصنام ، وهى فى الأصل الذكور من طير الماء ، واحدها غرنوق وغرنيق ، سمى به لبياضه ، وقيل هو الكركي . والغرنوق أيضاً الشاب الناعم الأبيض وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم ؛ فشبهت بالطيور التى تعلق فى السماء وترتفع . النهاية ج ٣ ص ١٦٠ .

(٢) سورة الحج آية : ٥٢ .

(٣) فتح البارى ج ١٨ ص ٤١ ، ٤٢ بتصرف .

بشدة جملة وتفصيلاً ، وذلك لأنها تتنافى وعصمة رسول الله ﷺ بل وتطعن في نبوته « عليه الصلاة والسلام » .

وأكتفى هنا بذكر نص واحد أراه كافياً وافياً في تفنيد هذه القصة ، وهو للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبه في كتابه « السيرة النبوية » حيث يقول :
« وإني لأجيب على ما ذكره الحافظ ابن حجر في « الفتح » وتابعه عليه غيره ، بما يأتي :

١ — أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحدث غير صحيح وحديثه يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذاباً ، وقد قرر الإمام مسلم هذه الحقيقة في مقدمة صحيحه فقال : « والمرسل من الروايات في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة »^(١) وقال ابن الصلاح في مقدمته : « وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه ، هو المذهب الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث ونقاد الأثر ، وتداولوه في تصانيفهم ، والاحتجاج به مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما — رحمة الله عليهم — في طائفة^(٢) ، وأما الشافعي فيحتج به بشروط ذكرها في « الرسالة » في أواخر باب « خبر الواحد »^(٣) وقد نقلها العراقي في شرح ألفيته .

٢ — الاحتجاج بالمرسل إنما هو في فروع الدين التي يكتفى فيها بالظن ، أما الاحتجاج به على شيء يصادم العقيدة ، وينافي دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به في العقائد لأنه لا يكفي فيها إلا بما يفيد اليقين ، فما بالك بالضعيف أو المختلف به .

٣ — هذا التأويل الذي ارتضاه الحافظ وغيره ممن تابعه قديماً وحديثاً ما أضعفه عند النظر والتأمل فهو يوقع القائل به فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبي ، فالتسلط عليه بالحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه كلاهما

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٤ .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٠ ، ١٤١ ط دار الكتب ١٩٧٤ تحقيق د . عائشة عبد الرحمن « بنت

الشاطي » .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٨

لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات . وإذا سلمنا أن الشيطان هو الذى نطق بهذا المنكر من القول فى أثناء سكوت النبى فكيف لم يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا كان سمعه فلم لم يبادر إلى الإنكار ، والبيان فى مثل هذا واجب على الفور ؟ .

وإذا لم يسمع النبى ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فلم لم يبادروا إلى تنبيه الرسول ؟ وأهون من هذا فى الإبطال وأشد فى الاستغراب ما ذكره موسى بن عقبة فى مغازيه من أن المسلمين ما سمعوها وإنما ألقى الشيطان بهذه المقالة فى أسماع المشركين فهل كان الشيطان يسر بها فى آذان المشركين دون المسلمين ؟ ثم كيف يتفق هذا الذى اختاروه وما روى من أن النبى حزن حزناً شديداً وأن جبريل قال له : ما جئتكَ بهذا ؟ .

الحق أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون وحاولوا إثبات أن لها أصلاً مهلهلاً متداخلاً لا يثبت أمام البحث ، وأن أغلب البلاء دخل على الإسلام من المنقطعات والمراسيل ثم يقول إن هذه القصة مخالفة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١) ومن أحق بهذه العبودية من الأنبياء بله رسول الله ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) وأى بشر أصدق إيماناً وأشد توكلاً على الله من الأنبياء ، ولا سيما خاتمهم ﷺ ، وقد أقر رئيس الشياطين بأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين فقال ما حكاه الله عنه فى قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَرِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء ؟ أو من أشد فى إخلاصهم منهم لله ؟ ونبينا محمد على رأس المصطفين الأخيار ، وفى الذروة منهم إخلاصاً لله ، فهؤلاء الزنادقة الحاقدون على الإسلام ونبيه نسبوا إلى الشيطان ما أقر هو بأنه لا قبل له به ، ووضعوا هذه الروايات الباطلة التى تصادم نص القرآن الذى لا ريب فيه .

(١) الحجر آية ٤٢ .

(٢) النحل آية ٩٩ .

(٣) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

ثم قام بإبطال القصة بطريق العقل والنظر ، فقال : وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر فقد قام الدليل العقلي القطعي وأجمعت الأمة على عصمته « عليه الصلاة والسلام » من مثل هذا ، وكل ما جاءت به الروايات الباطلة ممتنع في حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً ، أو سهواً ، وهو في اليقظة أو هو وسنان لمكان العصمة منه ، قال القاضي عياض : « وقد قرنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً ، أو أن يشبهه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان ، أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ (٢) .

ولو جوزنا شيئاً من ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ووجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الأديان ، ووجه آخر لفساد هذه القصة ، وهو أن الله « تعالى » ذم الأصنام في سورة النجم وأنكر على عابديها وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وأن التمسك بعبادتها أوهام وظنون ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (٣) فقد جاءت آيات على هذا الأسلوب الإنكارى ، والتوبيخى ، التهكمى بالأصنام وعابديها ، وقال بعد الموضع الذى زعموا أنه ذكرت فيه الفرية : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُهَا أَنْثَىٰ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ (٤) فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظم مفككاً ، والكلام متناقضاً ، وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون وهم أهل اللسن والفصاحة ، وأصحاب عقول لا يخفى عليها مثل هذا ، ولا سيما أعداؤه الذين يتلمسون له العثرات والزلات ، فلو أن ما روى كان واقعاً لشغب عليه المعادون له ، ولارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولثارت ثائرة مكة ولا تخذ منه اليهود

(١) سورة الحاقة آيات ٤٤ : ٤٧ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧٥ .

(٣ ، ٤) سورة النجم آيات رقم ١٩ : ٢٣ .

بعد الهجرة متكأً يستندون إليه في الطعن على النبي ﷺ والتشكيك في عصمته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

وجه ثالث : وهو أن بعض الروايات ذكرت أن فيها نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ آلِدَىٰ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تُحَدِّثُكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (١) وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رواه —؛ لأن الله ذكر أنهم كادوا يفتنونه ، ولولا أن ثبته لكاد أن يركن إليهم ، ومفاده أن الفتنة لم تقع وأن الله عصمه وثبته حتى لم يكد يركن إليهم ، فقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون ، فالأسلوب القرآني جاء على أبلغ ما يكون في تنزيه ساحته ﷺ عن ذلك ، وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون ، بل افترى بمدح آلهتهم ، وهذا يناقض ما تدل عليه الآية ، وهو توهين للخبر لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ ولقد طالبتة ﷺ ثقيف وقريش إذا مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كاد ليفعل ! .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهي مخالفة للقرآن ، ولما قام به الدليل العقلي فلا جرم أن التحقيق يدعونا إلى أن نصدع بأن حديث الغرانيق مكذوب اختلقه الزنادقة الذين يريدون إفساد الدين ، والطعن في سيد الأنبياء ، وإمام المخلصين (٢) .

* * *

(١) سورة الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة » للدكتور محمد محمد شعبة ج ١ ص ٣٨٠ : ٣٨٥ ط . دار الكتب المحمدية .

الفصل الثاني

هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة

لما قدم المسلمون من الحبشة إلى مكة قابلهم قومهم بصب الأذى والعذاب الشديد عليهم ، بل اشتدوا في ذلك عن ذى قبل ، فعندما رأى المسلمون ذلك خرجوا إلى الحبشة مرة أخرى ، وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم ، وعدتهم نحو من ثمانين رجلاً كما روى الإمام أحمد بن حنبل ، فقد روى بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً^(١) وقد أقام المهاجرون بخير دار إلى خير جار آمنين على أنفسهم ، ودينهم حتى أراد الله لهم الأوبة .

قريش تحاول الوقيعة بين المسلمين والنجاشي^(٢) :

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ أصبحوا في مأمن من بطشهم ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة ، إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري .

فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين وهو جعفر بن أبي طالب ، وبين ملك الحبشة أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي ، وتأمين المسلمين المهاجرين عنده .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦١ ، حديث إسناده جيد قوى وسياقه حسن ، انظر « البداية والنهاية » لابن كثير ج ٣ ص ٦٩ ، وقال ابن حجر في الفتح : إسناده حسن ج ١٥ ص ٣٢ .
(٢) النجاشي : اسم ملك الحبشة وغيره . والياء مشددة ، وقيل الصواب تخفيفها . النهاية ج ٤ ص ١٢٨ .

فعلن أم سلمة « رضى الله عنها » قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا ، وعبدنا الله وحده ، لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدتين . وأن يهدوا للنجاشي هداياً مما يستطرق من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم^(١) ، فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقه^(٢) بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم . وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم . ثم قدموا للنجاشي هداياه ، ثم أسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا فقدمنا على النجاشي ، ونحن عنده بخير جوار ، وعند خير جار ، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعنا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، ثم قالوا لكل بطريق منهم : إنه قد صبا^(٣) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاعوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لتردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قربا هداياهن إلى النجاشي فقبلها منهم ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاعوا بدين لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما

(١) الأدم . بالضم ما يؤكل مع الخبز أى شيء كان . النهاية ج ١ ص ٢١ .

(٢) قال صاحب القاموس وتاج العروس : البطريق ككبريت القائد من قواد الروم وهو معرب قيل بلغة الروم والشام ، ويقال إنه غري وافق العجمي وهى لغة أهل الحجاز ، ويقال إن البطريق هو القائد تحت يده عشرة آلاف رجل ، وقيل البطريق هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم وهو ذو منصب ، وقد يقدم عندهم . قلت هو بالرومية بترك كما قاله الجواليقي وغيره ، وقيل البطريق الرجل المختال المزهو عن ابن عباد وغيره . تاج العروس ج ٦ ص ٢٩٦ للسيد محمد مرتضى الزبيدي ط دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م الناشر دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازى مادة « بطرق » .

(٣) صبا إلى بلد الملك : أى مال إلى بلد الملك . لسان العرب عدد ٢٧ ص ٢٣٩٨ بتصرف ، « المفردات في غريب القرآن » لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ص ٢٧٤ بتصرف . ط مصطفى الحلبي .

عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم . فقالت بطارقتة حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردوهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها (١) الله ، أيم (٢) الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد (٣) قوماً جاوروني ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فأسألمهم ما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان ، أسلمتهم لهما ، ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهن منهما ، وأحسن جوارهم ما جاوروني (٤) .

حوار بين جعفر والنجاشي :

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول ، والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته (٥) ، فنشروا مصاحفهم (٦) حوله ، سألمهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الأمم ؟

(١) لاها الله — أى لا والله فالهاء بدل الواو .

(٢) أيم الله : من ألفاظ القسم كقولك لعمر الله وعهد الله وفيها لغات كثيرة ، وتفتح همزتها وتكسر وهمزتها وصل . وقد تقطع . وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع بين وغيرهم يقول هى اسم موضوع للقسم . النهاية ج ١ ص ٥٤ .

(٣) أكاد : من الكيد وهو الاحتيال والاجتهاد وإرادة السوء ، وبه سمي الحرب كيداً المفردات ج ٤ ص ٤١ بتصرف .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٠٢ ورجال رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ٦ / ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) أساقفته : الأسقف هو العالم والرئيس من علماء النصارى ورؤسائهم . وهو اسم سريانى ويحتمل أن يكون سمي به لخضوعه وانحنائه فى عبادته . والأسقف فى اللغة طول فى انحناء — النهاية ٢ / ١٦٩ .

(٦) مصاحفهم : مفرداها مصحف والمصحف ما جُعلَ جامعاً للصُّحُف المكتوبة — المفردات ٢٧٥ .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأفئ الفواحش^(١) ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام — فصدقناه — وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً . وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واختزنك على من سواك ، ورجبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عَلَيَّ ؟

فقرأ عليه صدرأ من « كهيعص » ، قالت : فبكى والله النجاشي ، حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة^(٢) واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد^(٣) .

(١) الفواحش : الفُحْشُ والفحشاء والفاحشة ما عَظُمُ قُبْحُهُ من الأفعال والأقوال — المفردات ص ٣٧٤ .

(٢) المشكاة : الكُوَّةُ غير النافذة ، وقيل : هى الحديدية التى يعلق عليها القنديل — أراد أن القرآن والتوراة كلام الله « تعالى » وأنهما من شيء واحد — النهاية ج ٤ ص ٩٦ .

(٣) المسند ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

محاولة ثانية للدس بين المهاجرين والنجاشي :

فلما خرج كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من عند النجاشي قال عمرو بن العاص : والله لأنبئهم غداً عيهم عندهم ، ثم أستأصل به خضراءهم^(١) ، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة — وكان أبقى الرجلين فينا — لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، قالت ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه — قالت : ولم ينزل بنا مثله ، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه ؟ .

قالوا : نقول ، والله فيه ، ما قال الله ، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ . فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا — هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت^(٢) بطارقه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي « والسيوم الآمنون » من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، فما أحب أن لي دبراً ذهباً ، وإلى آذيت رجلاً منكم ، والدبر بلسان الحبشة الجعل ، ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لنا بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه . قالت : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(٣) .

(١) استأصل به خضراءهم : أي أفضى به على ذمائمهم وسوادهم — النهاية ١ / ٣٠٠ .

(٢) تناخرت بطارقه : أي تكلمت وكأنه كلام مع غضب ونفور — النهاية ٤ / ١٣٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ٢٠٣ ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ج ٦

وفي هذه الحادثة عبرة للمتصدين للدعوة الإسلامية ، فيعتبرون بما فيها من أخلاق إسلامية ، مثل الالتزام بجانب الصدق في دعوتهم ، وعدم التحريف فيها ، أو تغيير بعض منها ، أو المداينة تبعاً لأهواء الساسة وغيرهم ، كما يجب عليهم المجاهرة بالحقائق الإسلامية ، غير مباليين في ذات الله لومة لائم .

وقفة مع هذه الأحداث السابقة :

أولاً : إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنزلَ بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد ، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسمو نفوسهم وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل ، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد .

إن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة ، وبهذا تنتصر الدعوات . وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات (١) .

ثانياً : لقد كانت الفترة المكية مرحلة صهر للإيمان والعزائم ، وقبول التحدى إلا أن رسول الله ﷺ لم يكن يسمح لإيمان أصحابه أن يتعرض لأذى ضعيف ، أو لثقتهم في نصر الله أن تتعرض لأذى فتور ، أو لطاقة احتمالهم أن تتعرض لأذى اهتزاز . وحتى في أحلك الظروف وأشدّها بلاءً ، كان صلوات الله عليه يشد من عزائمهم ، ويجول بينها وبين أن تتعرض لشيء من الخور .

كان يمر بآل ياسر وهم يعذبون ، بل يصب العذاب على أبدانهم صبراً ، فلم يقل لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم النصر » وإنما كان يقول لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » وهذه لمحة يجب أن نتأملها طويلاً ، فكأن رسول الله « صلوات الله وسلامه عليه » لم يشأ أن يمنهم بالنصر الذي ينهى بلاءهم ، وإنما أرادهم أن يستعذبوا البلاء حتى الموت ، الذي يضع حداً لثقتهم ، والجنة في

(١) « السيرة النبوية » للدكتور مصطفى السباعي ص ٥٧ .

انتظارهم حيث ينعمون فيها بمقام أعلى للشهداء .

. وهكذا : فقد لمس الرسول ﷺ من رغبة أصحابه في الدعاء على الأعداء آثار الضعف ، فتدارك إيمانهم أن يتعرض للاهتزاز ؛ لذلك رفض فكرة الدعاء على الأعداء في مثل هذا المقام ؛ مع أنه « عليه السلام » في غير هذا المقام دعا على الأعداء أكثر من مرة . حتى ينتصر أتباعه بإيمانهم . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

وهنا ملحّة يجب أيضاً أن نتأملها طويلاً :

أكان أصحاب رسول الله ﷺ يتعجلون آية خارقة من الله « سبحانه وتعالى » ، تضع حداً لما هم فيه من محنة وبلاء ؟ فقد عرفوا قصص أصحاب الدعوات قبلهم ، وأن الله « سبحانه وتعالى » قد أجرى آيات خارقة على أعدائهم ، هذه الآيات كما وضعت حداً لجبروت الأعداء الطغاة ، وضعت في نفس الوقت حداً لابتلاء أصحاب الدعوات وذلك كالطوفان في عهد نوح ، والريح العاتية في عهد هود ، والطاغية في عهد صالح ، والغرق وغيره في عهد موسى ...

لكن في عهد محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فقد رجا محمد نفسه ربه ، ألا يُهْلِكَ قومه بآية عامة ، إنه عليه السلام ، يريد لدعوته أن تشق طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة بالدليل القاطع ، والحجة الدامغة .

إن الفترة المكية كانت فترة صهر للإيمان ، وامتحان للعزائم ، إذن فليصبر أتباع الدعوة ولا يعتمدوا على آية خارقة من السماء بل على الإيمان وحده .

إن الآية الخارقة قد تضع حداً لابتلائهم ، وحداً لجبروت أعدائهم ، ولكنها لن تسجل للفئة المؤمنة أدنى صفحة من صفحات البطولة بين دفتي التاريخ^(١) .

ثالثاً : لم يكن معقولاً أن يظل هؤلاء الضعاف نهياً للآلام والحسرات ليسومهم المجرمون سوء العذاب والرسول « صلوات الله وسلامه عليه » ينظر إليهم ، ولكنه لا يملك لهم شيئاً . فهل من وسيلة تنقذ هؤلاء من الفتنة ؟ ألم يجعل

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق ص ١٥٧ : ١٦٠ .

الله من الهجرة سبيلاً إلى تحرير النفوس من الشر والفرار بالإيمان إلى أرض طيبة وجوار صالح ؟ لقد فكر صلوات الله وسلامه عليه ثم قدر .. فكر في أن يأذن لهم بالارتحال إلى أرض الحبشة ليجدوا متنفساً من ذلك الضيق .. ولمارسوا عبادة ربهم دون أن يجدوا ما يصدّهم عنها أو يفتنهم فيها .. لذا أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إليها (١) لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق — حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه . ومن هنا ينبغى على الداعية في أى زمان إذا وجد جماعته في خطر على حياتهم أو معتقداتهم من الفتنة ، أن يهبط لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبتلين ويضمنون استمرار دعوتهم وانتشارها ، وإلا عرض جماعته ودعوته لخطر لا يعلم مداه إلا الله . ولا ينافى ذلك ما على دعاة الحق من تضحية .

رابعاً : وقد يتبادر إلى الذهن سؤال فحواه ، لماذا لم يذهب النبی مع من هاجر إلى الحبشة ؟ وللإجابة عن ذلك يقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاتة في كتابه « دراسات في تاريخ العرب » لأنه ﷺ كان أكثر صبراً واجتماعاً ممن هاجر ، وفضل أن يبقى في مركز الدعاية ليقضى على الوثنية ، كما أنه وجد من أبى طالب حماية تمنعه من قريش ، ثم إن الوحي لم يأت بعد بالإذن في الهجرة — وتعتبر الهجرة إلى الحبشة أول هجرة كانت في الإسلام .

ولماذا لم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية أو إلى أى موطن من مواطن أهل الكتاب ؟ وفضل الهجرة إلى الحبشة :

ويجب عن ذلك الدكتور عبد الفتاح شحاتة في كتابه السابق فيقول :

« لم يوجه رسول الله ﷺ المسلمين للهجرة إلى إحدى القبائل العربية ؛ لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج ، تمسكاً بدينها الوثني ، أو بمعاملة لقريش . كذلك لم يفكر في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين في يثرب ونجران وغيرهما ؛ لأن كلاً من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى

(١) « أضواء على الهجرة » للشيخ توفيق محمد سبع ص ١٥٤ ط من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية .
طبع بمطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

وتنافسها في النفوذ الأدنى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، خصوصاً إذا كان من العرب أنفسهم الذين يحتقرونهم ويقولون عنهم : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (١) أما اليمن — وهى مستعمرة للفرس الجوسيين — فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها ، وقد برهن المستقبل على بعد نظره ، وذلك حينما كتب كسرى إلى باذان عامله على بلاد اليمن يقول له : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتياى به . وفضلاً عن هذا فقد كانت للقرشيين الوثنيين علاقات تجارية ببلاد العرب الجنوبية الخاضعة إذ ذاك للفرس .

هذا إلى جانب وجود اليهودية والمسيحية فيها — كما كانت فارس عدواً قديماً للدول المسيحية وخاصة الحبشة . وكان هوى المكين مع الفرس .

وآية ذلك أن القرشيين حينما انتصر الفرس على الروم في سورية سنة ٦١٤ م تلقوا هذا النبأ بالبشر والابتهاج ، وشمثوا بالروم وسخروا من مسلمى مكة بدعوى أن كلاً منهما أهل كتاب ، وتربصوا بهم هزيمة كهزيمة الروم ، وقد تأثر المسلمون لهذا ، فوعدهم الله بأن النصر والغلبة ستكون للروم أخيراً :

﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ . اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ولم يتجه التفكير إلى الحيرة أو الغساسنة بالشام مثلاً ، لبعدهما ، كما أنه كان لقريش بهما صلات تجارية وزيارات في أوقات منتظمة ، فإذا علمت قریش بوجودهم هناك فإنها تطلب إلى أهل ذلك البلد إعادتهم إليها ويخرجونهم ، كما حاولت ذلك مع النجاشي ، ومن ناحية أخرى فإن الحيرة والغساسنة كانتا تابعتين لدولتى الفرس والروم . فكيف يحمون ديناً يغاير دين سادتهم ، ومن ناحية ثالثة فإنهم عرب يأنفون من رجل عربى أن يسلب عنهم نفوذهم (٣) .

(١) آل عمران ٧٥ .

(٢) سورة الروم آيات ٢ — ٥ .

(٣) « دراسات في تاريخ العرب وصدر الإسلام » للدكتور عبد الفتاح على شحاتة القسم الثانى ص ٦٤ ، ٦٥ ، ط بمطبعة المدلى :

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة . فمن الممكن أن يكون بسبب تيسر السفر إليها ، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحرى وظروفه ، وهو لا شك يمت بسبب إلى ما كان من التقارب الدينى بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى ، وإشارة الإنجيل إلى رسالة النبى ﷺ .

بل وإنه ليخطر بالبال أن يكون للنبي أمل فى وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل .

فمن الممكن أن يكون من أهداف هذه الرحلة بجوار أنها فرار من الفتنة والخلاص من الظلم ، هدف آخر سياسى ، هو شرح قضية الإسلام وموقف قريش منه ، وإقناع الرأى العام بعدالة هذه القضية . على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسى لشرح قضاياها وكسب الرأى العام إلى جوارها ، وقد كان النجاشى فى ذلك الوقت رجلاً محايداً ، فيه من لطافة الحس وحصافة العقل وقوة الشخصية ، ما يجعل له وزناً عالمياً خاصاً ، وبخاصة وأنه راعى المسيحية مما يجعل لاستقطابه إلى قضية الإسلام قيمة كبرى ، ولسنا نريد أن نطمع فى إسلامه ، بل فقط فى كسب ثقته ضد قريش ، لأنه صاحب دين سماوى وكتاب مقدس !! فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيحية على عهده لم تكن صافية الجوهر كما أرادها الله ، وكما بلغها المسيح .. وإنما لوثتها أطماع القسس ، وأضافت إليها ما ليس منها .. كالتأليه لمريم ولعيسى .. وداخلتها الوثنية مما يجعلها غير قادرة على الصمود .. أو على الأقل مما يجعل رجلاً كالنجاشى يقتنع بالإسلام حين يُعرض عليه ديناً سماوياً نظيفاً بعيداً عن الدس والتحريف . ولم يكن هناك خوف على المسلمين من تلك المسيحية المحرفة التى داخلتها الأطماع والوثنيات ؛ فإن الرجال الذين رباهم محمد على التوحيد ، وشرح لهم قضية الإيمان ، وغرس جقائقه فى نفوسهم — لم يكونوا ليستبدلوه بمسيحية مهلهلة !!

لذلك فمن الممكن أن نقول بأنه كان من أهداف هذه الهجرة هدف سياسى بجوار هدف الإيواء الذى أشار إليه الرسول بقوله « حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . ومما يرجح ذلك أنه قد تم احتكاك شديد بالفعل بين الوثنية المجرمة — وبين الإسلام أمام النجاشى فى بلاطه .. حيث تم فتح حوار أمامه مع جعفر بن أبى طالب فى مواجهة وفد قريش الذى جاء بالهدايا والتحف ليستميل النجاشى

وبطارقته .. فيسلم اللاجئين المسلمين !! ولقد كان من ثمار هذا الحوار أن اقتنع النجاشي بالدعوة . وقيل إنه اعتنقها وسخا في الكرم والمعاملة الحسنة للمسلمين الذين لاذوا بجواره ، وقد أثارت هذه المعاملة الكريمة بعض أتباعه من المتعصبين ، ثم طرد وفد قريش ورده خائباً .. أكان هذا الكسب السياسى متوقعاً ؟ أكان مخططاً له قبل الهجرة ؟ أياما كان فقد جاءت هذه الهجرة بأكثر مما كان يتوقع لها .. حيث وطدت للإسلام ركناً قوياً في تلك الأرض البعيدة ، وضمت إلى صف المسلمين رجلاً له خطره السياسى وهو النجاشي ، وهذا في ذاته أروع كسب وأعظمه ، ولا يبعد أن يكون الرسول قد أراد للدعوة أن تكسب أصدقاء محايدين ليجعل لها رصيذاً من القوة أمام جبروت قريش وطغيانها ، أو على الأقل يقلل الوطأة عن ضعاف المسلمين ، وهذا الهدف زائد على أصل الإيواء .

وهذه الهجرة لم يكن القصد منها أن تلاق الدعوة مقرأً جديداً تنتشر فيه ومنه ، بل كان الهدف منها الإيواء مضافاً إليه ذلك الكسب السياسى الجليل !! أما أن تكون أرض الحبشة مقرأً للدعوة وحصناً لها فذلك ليس معقولاً لأسباب :

أولاً : لأن هذه الهجرة كانت مؤقتة بوقت معين ، حتى يجعل الله للصحابة فرجاً من الضيق ولم تكن هجرة للإقامة الدائمة .

ثانياً : أن هذه البيئة الحبشية لم تكن لتسمح لهذا الدين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحية ، ولم تكن الرومان وهى المهيمنة على المسيحية في العالم لتسمح للحبشة بذلك .

ثالثاً : كيف يمكن أن يجد القرآن العربى في تلك البيئة الحبشية من يفهمه ويتعلمه ويحفظه وقد نزل بلسان العرب ١٩ .

يضاف إلى ذلك كله أن الحبشة لم تكن في عصر من عصورها التاريخية . منطقة انطلاق ، وإنما كانت في منطقة معزولة لا تصلح متنفساً للدعوة الجديدة .

وإزاء كل هذه الأسباب فإن منطقة الانطلاق المعقولة للدعوة الإسلامية لم تكن سوى المدينة المنورة . التى تستطيع الدعوة فيها أن تجد منطلقاً واسعاً .

أما اختيار الرسول ﷺ الحبشة لهجرة أصحابه فقد كان مؤقتاً « حتى يجعل

الله للمسلمين فرجاً ؛ لأنه لم يكن معقولاً أن يتخذ الرسول ﷺ من تلك المنطقة المعزولة منطلقاً للدعوة الجديدة (١) .

خامساً : حاول بعض المستشرقين غمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم ، وفي رغبتهم في النجاة بأنفسهم وتخليبهم عن رسول الله ﷺ وليس في هذا شيء من الحق من جهة ، وهو ملقى جزافاً بعقل اليوم المجرد ، وآت من عدم معرفة البيئة النبوية وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين أمرين : إما أن يظلوا يتعرضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد ، وإما أن يصبروا حتى يودى الصبر بحياتهم ، وليس في هذا مصلحة للمسلمين : ولقد وقعت الحالتان في بعض الذين أسلموا فليس في تفادى مثل ذلك بالهجرة محل للغمز ؛ بل هي دليل على تعلق المهاجرين بدينهم ، وخوفهم من الافتتان عنه ، وتضحيتهم لوطنهم وعائلاتهم وأموالهم — ومنهم من كان ذا مال كبير — في سبيله ، وفي هذا ما يستوجب الإكبار والثناء عليهم (٢) .

سادساً : هذه الهجرة فيها دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواء كان الجير من أهل الكتاب كالنجاشي إذ كان نصرانياً عندئذ ، ولكنه أسلم بعد ذلك (٣) .

أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، كأبي طالب عم الرسول ﷺ وكالمطعم بن عدي ، الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف . وهذا مشروط — بحكم البدهة — ألا يستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية ، أو تغييراً لبعض أحكام الدين ، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرمات ، وإلا لم

(١) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ١٥٦ ، ١٦١ .

(٢) سيرة الرسول لمحمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) كان النجاشي ممن أسلم برسول الله ﷺ ولما مات نعه رسول الله ﷺ للصحابة ، ثم خرج بهم إلى المصلى فصلى عليه . والدليل على ذلك ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مات اليوم عبد لله صالح أصحمة » فقام فأثمتا وصلى عليه « وما رواه أيضاً بسنده عن أبي هريرة أنه قال : نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه فقال : استغفروا لأخيكم » صحيح مسلم كتاب الجنائز . باب في التكبير على الجنائز .

يجز على المسلم الدخول فيها . ودليل ذلك ما كان من موقفه ﷺ حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء . فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه (١) .

سابعاً : عندما رأت قريش هجرة المسلمين إلى الحبشة أحست أن ترك باب الهجرة مفتوحاً للمسلمين خطر على كيائها ، فهؤلاء اللاجئون سيكونون في أرض المهجر « جالية » كبيرة بل قوة خطيرة يعمل حسابها ، ورُبَّما ثرت فعاتت إلى مكة قوية بالمال والسلاح .. على أنهم سيمكنون هناك من المجاورة للحبشيين أن يذيعوا أمر عقيدتهم ودينهم فيعظم خطرهم ، وبخاصة وأنهم يحسنون التعبير عنها .. وستكسب قضية الإسلام أنصاراً جُددًا وأصدقاءً محايدين . وستكون لذلك آثار سياسية بعيدة المدى يعظم بها أمر محمد وأتباعه !! .

ولذلك كله جد المشركون في استقدام اللاجئين ، ولم يقصروا في اتخاذ الوسائل الكفيلة بعودتهم .. ولو أنهم لم يعملوا حساباً لآثار هذه الهجرة لسكتوا عنهم ، وفرحوا بتركهم مكة ليرتع فيها الكفر البواح إلى ما شاء الله .

لكن قريشاً أبت السكوت على تلك الهجرة ، فهي تلاجقهم بالأذى في أى مكان وتطاردهم في أية بقعة ، وتقعدهم بكل طريق لتصدهم عن الله !! .

لذلك أرسلت للمهاجرين في دار هجرتهم وفداً مكوناً من رجلين هما خبرة وتجربة ، وفيهما ذكاء وتفتح ليطلبوا بالفارين ويحضراهم إلى مكة ليلقوا جزاءهم على فعلتهم !! .

وبمجرد أن وصل الوفد القرشي إلى الحبشة بدأت المفاوضات على الفور بين هذا الوفد وبين البطارقة الحبشيين وملكها بعد تقديم الهدايا لهم ، وعبثاً حاول الوفد استخدام ذكائه ليقنع الملك بطرد هؤلاء اللاجئين من أرضه لكي يعودوا إلى مكة ثانية ، لكن الوفد الإسلامي بقيادة جعفر بن أبى طالب استطاع بمتهى الفطنة والكياسة عرض قضيته وكسب الجولة ضد قريش ، وكشف الجاهلية وتعرية قبائحها .. وذلك في ذاته أعظم انتصار أدنى وسياسى أمام رئيس دولة لها تأثير في

(١) فقه السيرة . للشيخ محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٠٢ .

العالم يومذاك ! ولعل ذلك الانتصار لم يكن يغيب عن إلهام الرسول حين أشار على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة لأنها أرض عدالة ونصفه !!

وهكذا أخفقت محاولات وفد قريش في رد المهاجرين أيما إخفاق — وعاد إلى مكة بالحبيبة والحسرة وعرفت قريش أن هناك رأياً عاماً عالمياً لا تستطيع تزييفه ولا التطاول عليه ، ولا احتواءه بالباطل . رغم ما توفر لها من قوة تأثير وارتفاع مكانة ، وهكذا انتصر الحق الأعزل على الباطل المسلح في مواقف الرأي ، ومعارك الحوار ، وأعظم من ذلك أن النجاشي تعهد أمام وفد قريش بحماية المسلمين ، وزكى آراءهم ، وأطلق لهم الحرية في أرضه ، وطرد وفد قريش ورفض قبول هديته .

كأن هذا الوفد المشثوم قد حقق عكس النتائج التي كان يبتغيها .. وكان صاحب فضل على المهاجرين ، لأنه قد استخرج من النجاشي كل عطفه وكرمه يمنحه للمسلمين وتعهد بحمايتهم وحريتهم (١) .

ثامناً : نأخذ من هجرة المسلمين إلى الحبشة — وبعد المناقشة التي جرت بين سيدنا جعفر بن أبي طالب والنجاشي — حقيقة العلاقة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد ﷺ وسيدنا عيسى « عليه الصلاة والسلام » ، فقد كان النجاشي على دين عيسى « عليه السلام » ، وكان مخلصاً وصادقاً في نصرانيته . ولقد كان من مقتضى إخلاصه هذا ألا يتحول عنها إلى ما يخالفها ، وألا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى « عليه السلام » .

أى فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون انتماءهم إلى عيسى بن مريم وتمسكهم بالإنجيل ، من أن عيسى ابن الله تعالى وأنه ثالث ثلاثة ، تملك النجاشي « الذي كان من أخلص الناس لنصرانيته » بذلك ، ولردّ على المسلمين كلامهم وانتصر لرسول قريش فيما جاءوا من أجله .

ولكننا رأينا النجاشي يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى بن مريم بقوله : إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة — يقول ذلك على مسمع من بطارفته وعلماء الكتاب الذين من حوله .

(١) أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع ص ٢٠٢ : ٢١٦ بتصرف .

وهذا يؤكد ما هو بدهى الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاءوا بعقيدة واحدة لم يختلف بعضهم عن بعض قيد شعرة ، ويؤكد لنا أن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى .

تاسعاً : أنتجت الهجرة نتائج لا بأس بها من أهمها إسلام النجاشي — رضى الله عنه — ويظهر هذا واضحاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود — والذي مر سابقاً — فقد جاء فيه أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب بعد ما دار بينهم من نقاش « مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم » (١) .
ولذلك فقد صلى عليه رسول الله ﷺ عند موته .

روى البخارى بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وابن المسيب أن أبا هريرة « رضى الله عنه » أخبرهما أن رسول الله ﷺ نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه ، قال استغفروا لأخيكم » (٢) .

وفي رواية أخرى عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة « رضى الله عنه » أخبرهم أن رسول الله ﷺ صف بهم في المصلى فصلى عليه وكبر (٣) .

* * *

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦١ إسناده حسن « الفتح » ج ١٥ ص ٣٢ .

(٢) صحيح البخارى . باب موت النجاشي ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) المرجع السابق .

الباب الثالث

هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة

الفصل الأول : طور الإعداد للهجرة

الفصل الثاني : تنفيذ الهجرة .

الفصل الثالث : صفات المهاجرين .

الفصل الرابع : أهم النتائج المترتبة على الهجرة

الفصل الخامس : أحكام الهجرة .

الفصل الأول

طور الإعداد للهجرة

تمهيد :

بينما كان رسول الله ﷺ يدعو الناس لعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة غير الله « سبحانه وتعالى » ، والمشركون يحاولون بكل قواهم القضاء على هذه الدعوة . والرسول وأتباعه — يجاهدون في سبيل الله جهاداً مريراً ، ويتحملون من الأذى ومن العذاب ألواناً .

ولم تمض شهور قليلة على نقض الصحيفة الظالمية إذ صدمت محمداً ﷺ في العام العاشر من بعثته فاجعتان — أعد الله « تبارك وتعالى » رسوله بهما للهجرة من مكة إلى بلدة أخرى ينطلق فيها بدعوته إلى كل بقاع العالم — اهتزت لهما نفسيهما ، هما وفاة عمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين (١) .

وكانت السيدة خديجة وزير صدق في الشدة والرخاء ، يشكو إليها رسول الله ﷺ فيجد عندها الموائسة ويركن إليها فتواسيه ، وكانت عوناً له على البأساء والضراء فهي بحق التي تسمى السكن ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٢) .

(١) فتح الباري ج ١٥ ص ٤٠ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢١ .

وأما أبو طالب فقد كان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصرراً له على قومه ، فلم يضمن بمساعدته لرسول الله ﷺ ومنع قومه عنه .

لقد ذهب هذا كله بذهاب خديجة وأبي طالب ، وأصبح الآن بحيث لا يجد له في الداخل أنيساً ولا في الخارج نصيراً ، فكان حرياً أن يشتد به الحزن ، لأنه أصبح وجهاً لوجه أمام أعدائه ، فوجدوا منفذاً إليه فنالوا منه ما لم ينالوه في حياة أبي طالب .

يقول ابن إسحاق « فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، فدخل رسول الله ﷺ بيته يقول : ما نالتني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب » (١) .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يسمى ذلك العام الذي مات فيه عام الحزن (٢) .

وذلك لما وقع فيه من الشدائد على رسول الله ﷺ .

ومجدد الإشارة هنا إلى عدة نقاط مهمة هي :

أولاً : الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيراً من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته في همومه وآلامه ، وبذلك تخفف عنه عبء هذه المهموم ، وتبث في نفسه الاستمرار والثبات ، فيكون لها أثر في نجاح الدعوة وانتصارها ، وموقف السيدة خديجة « رضى الله عنها » من رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى لما تستطيع الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تقوم به في سبيل نجاح زوجها الداعية ، وثباته ، واستمراره في دعوته ، وفقد مثل هذه الزوجة في احتدام معركة الإصلاح خسارة كبيرة لا يملك معها زوجها الداعية إلا أن يحزن ويأسى ويظل طوال حياته

(١) تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٢ / ٣٤٤ ط ثانية بدار المعارف بمصر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سيرة ابن هشام ٢ / ٤٦ ، البداية والنهاية ٣ / ١٢٢ فتح الباري ١٥ / ٤٠ مع اختلاف في ألفاظ يسيرة .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية . للشيخ محمد بن عبد الباقي الزرقاني ج ١ ص ٣٤٤ ط ١٢٩١ هـ .

يذكر فضلها ، ويترحم عليها ، ويبر صديقاتها ، حتى كانت السيدة عائشة « رضى الله عنها » تغار منها — وهى متوفاة — لكثرة ما كانت تسمع من ثناء النبي ﷺ عليها (١).

فقد روى البخارى بسنده عن عائشة « رضى الله عنها » قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : إنها كانت ، وكانت ، وكان لى منها ولد (٢) » .

ثانياً : قد تحدث حماية للداعية من أحد أقربائه الذين ليسوا متبعين لدعوته ، وفى ذلك فائدة عظيمة للدعوة حين تكون مستضعفة ؛ لأن حماية هؤلاء الأقارب للداعية تمنع الأشرار من الاعتداء على حياته أو التعرض له بأى صنف من صنوف الأذى ، ومثال ذلك ما حدث من أبى طالب الذى جعل نفسه واجهة ظليلة طالما رفعت عن قلب الرسول ﷺ ، وأمدته بالأمل العذب والحنان الرطيب ! . وكان قوة تستمد منها الدعوة عزماً يعينها على مغالبة الصعاب ومدافعة الأعداء .

لقد سَخَّرَ الرجل جاهه وسلطانه لدعوة الحق وعاش لها يتابع مسارها ، ويناول خصومها ويناصر أصحابها ، لا يضمن عليهم بمجهود أو مال !! .

ولكن فجأةً فقدت الدعوة هذا الرجل العظيم ، فأحست أنها قد تعرَّتْ أمام العدو وأن البرد قد سقعها « وأصبحت قريش لا تبالى فى محمد أحداً بعده ، ولقد اعترف رسول الله « صلوات الله وسلامه عليه » بمدى الخسارة التى استهدفت لها الدعوة حين قال : « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » (٣) !! .

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للشيخ مصطفى السباعى ص ٦٥ : ٦٧ الناشر عدنان زرزور دمشق

١٣٩٢ هـ ١٩٧٣ م .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المناقب باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها .

(٣) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤٦ ، الروض الأنف ج ٤ ص ١٥ ، البداية والنهاية ج ٣

ص ١٣٤ ، الكامل ج ٢ ص ٤٢ ، سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٧٢ .

ولكن ما الحكمة في أن يتعجل قضاء الله في استلاب أبا طالب من الحياة ، قبل أن يشتد ساعد المسلمين في مكة ويتكون لهم شيء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول — قدر الإمكان — من كثير من المصائب والشدائد ، وما الحكمة في أن يتعجل القضاء باستلاب زوجته « رضى الله عنها » ، وقد كان يجد عندها أنسه وسلواه وينفض بمساعدتها عن كاهله كثيراً من أحاسيس الشدائد والآلام .

وللإجابة عن هذا السؤال يقول الأستاذ البوطي في كتابه فقه السيرة :
لو بقى أبو طالب بجانب رسول الله ﷺ يحميه وينصره إلى أن تقوم الدولة الإسلامية في المدينة وريثاً ينجو رسول الله ﷺ من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان في ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى كان يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وإن لم يظهر الإيمان بها والانضواء تحتها ، ولجاء من يطيل ويطنب في بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول ﷺ أثناء قيامه في الدعوة بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح الحال .
لكن اقتضت حكمة الله أن يفقد الرسول ﷺ عمه أبا طالب وزوجه خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان في الظاهر حامياً له ومؤنساً ؛ لكي يكون الرسول قدوة للمسلمين في مواجهة التحديات والحن التى كان المشركون يصنعونها في طريق الدعوة الإسلامية .

فلو أن النبى ﷺ نجح في دعوته بدون أى مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح ، ولا تستثقلوا المصائب والحن التى يجذبونها في طريقهم إلى الدعوة الإسلامية .

أما والحالة هذه ، فإن مما يخفف وقع الحنة والعذاب على المسلمين شعورهم أنهم ياقوقن مما ذاقه رسول الله ﷺ ، وأنهم يسيرون في نفس الطريق التى أودى فيها رسول الله .

ومهما يصيبهم من ألم السخرية بهم وإهانة الناس لهم . فإن ذلك لن يثنيهم عن عزمهم ولن يزعجهم عن عقيدتهم ، ولن يجعلهم يتركون الطريق الذى يسيرون

فيه لإعلاء كلمة الحق والدين (١) .

ثالثاً : لماذا أطلق رسول الله ﷺ على العام الذى فقد فيه عمه أبا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد عام الحزن ؟ .

قد يحسب بعض الناس أن سبب تسمية الرسول ﷺ لهذا العام بعام الحزن هو مجرد فقدته ﷺ لعمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة ، وربما استساغوا إقامة علامات الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة مع الزمن مستدلين بهذا .

والواقع أن هذا خطأ فى الفهم والتقدير .

وذلك لأن النبى ﷺ لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجته ذلك الحزن الشديد ، ولم يطلق على ذلك العام عام الحزن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقداهم .

بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية فى وجهه . فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة وسبلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم . وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به ربه . أما بعد وفاته فقد سدت فى وجهه تلك المجالات فمهما يحاول وجد صداً وعدواناً ، وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة فى وجهه فيعود بدعوته كما ذهب بها : لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد ، بل الكل ما بين مستهزئ ومعتد ومتهم به ، فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من المهمة التى كلفه الله بها بنتيجة ، فمن أجله سمي ذلك العام عام الحزن . بل لقد كان حزنه على ألا يؤمن الناس بالحق الذى جاء به شيئاً غالياً على نفسه ، فى أكثر الأحيان . ومن أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية ، ومذكرة إياه بأنه ليس مكلفاً بأكثر من التبليغ ؛ فلا داعى إلى أن يذهب نفسه عليهم حسرات إذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا (٢) .

استمع مثلاً لهذه الآيات :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٠٥ : ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ .

بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا
وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِّكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ
الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي
الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾ .

الرسول يعرض نفسه على القبائل

ذاق محمد ﷺ ما ذاق من أهل مكة المكرمة من صد عن سبيل الله
ومقاومة ، وإيذاء له ولأصحابه ، والله في ذلك حكمة ولو كانوا أول من يطيعه
لقيل إنهم يريدون بذلك السلطان على الناس .

« وأياً ما يكن الأمر ولأن من المعلوم بداهة أن دعوته « عليه الصلاة والسلام »
هى للناس عامة وليست لقريش خاصة ، كان لزاماً عليه ﷺ مسارة مع
بمقتضيات هذا العموم أن يجاهد في تبليغ دعوته إلى غير قريش كما بلغها لقريش ؛
فاتجه إلى عرض نفسه على قبائل العرب في بلادهم ، وفي مواسم الحج ، وأسواق
التجارة .

« خروجه إلى الطائف »

توجه الرسول ﷺ أول ما توجه إلى الطائف عسى أن يقبلوا منه ما جاءهم
به من عند الله « تبارك وتعالى » ، فيستطيع بذلك أن ينتصر ويمتنع بهم من قومه .
وخرج الرسول إليها في أخريات شوال من السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة
ومعه زيد بن حارثة .

ولما انتهى إليها عمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف
وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة ، عبد ياليل ومسعود وحبيب ، بنى عمرو بن
عوف ، وعند أحدهم صفية بنت معمر القرشى الجمحى ، فجلس إليهم ،
وكنهم بما جاء له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من

(١) سورة الأنعام آيات ٣٣ : ٣٥ .

قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الثاني : أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبداً ، لكن كنت رسول الله لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولكن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك ، فقام ﷺ من عندهم ، وقد يعس من مناصرتهم له ، وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكنتموا على » وكره أن يبلغ قومه عنه ذلك ، فيزيدهم عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلى رسول الله ﷺ لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج . ومازالوا بهما حتى ألجئوهما إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حيلة من عنب فجلس فيه ، هو وصاحبه زيد ، وابنا ربيعة ينظران إليه ﷺ ، ويريان ما يلقي من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة القرشية التي من بنى جمع ، فقال لها ماذا لقينا من أمهاتك ، فلما اطمأن قال « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

قصة عداس مع رسول الله :

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس ، وقالوا له : خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ثم ذهب حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٤٤ : ٣٤٦ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٣ مختصر ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٤٤ : ٣٤٨ وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ج ٢ ص ٥٧٦ : ٥٧٨ .

« بسم الله » ثم أكل ، ثم نظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ ومن أهل أى بلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عداس وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاء عداس قال له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شئ خير من هذا لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى ، قال له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه (١) .

خروج الرسول من الطائف :

ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف مهموماً ، حزيناً مكلوم الفؤاد بسبب ما حدث له من هؤلاء القوم حمقى العقول وغلاظ القلوب ، فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب وهناك نزل عليه جبريل وعرض الانتقام من المشركين بسبب قسوتهم وغلظتهم معه ﷺ إلا أن الرسول رفض ذلك ورجا من الله أن يخرج من أصلاهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً .

روى البخارى (٢) ومسلم بسندهما عن عروة بن الزبير ، أن عائشة حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (٣) ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ،

(١) المراجع السابقة .

(٢) رواه الشيخان واللفظ لمسلم . ورواية البخارى فى كتاب بدء الخلق باب « إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداها الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » ورواه مسلم فى كتاب الجهاد باب « ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين ، والإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٣٣٥

(٣) قرن الثعالب : جمع ثعلب . الحيوان المشهور ، وهو موضع بقرب مكة . وقال النووى : هو ميقات أهل نجد . ويقال له قرن المنازل بفتح الميم ، ويقال هو على مرحلتين من مكة . وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير : وقال عياض : يقال فيه قرن غير مضاف على يوم وليلة من مكة . قال ورواه =

فنظرت فإذا فيها جبريل « عليه السلام » فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال^(١) لتأمره بما شئت فيهم ، ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال : يا محمد قد بعثنى الله ، إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك ربك لتأمرني ما شئت ، إن شئت تطبق عليهم الأخشبين^(٢) ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك في شيئاً » .

دخول النبي مكة :

وقفل الرسول ﷺ عائداً إلى مكة المكرمة — ومعه زيد بن حارثة — فقال له زيد كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم انتهى إلى حراء فأرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدى يخبره أن رسول الله ﷺ يريد دخول مكة في جواره — بعد أن عرض ذلك على غيره من رؤساء قريش فاعتذروا — فاستجاب مطعم لذلك وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة^(٣) .

وما ينبغي الإشارة إليه هنا أنه :

لو تأملنا هذه الرحلة التي قام بها رسول الله ﷺ إلى الطائف وما حدث فيها من عذاب شديد تعرض له رسول الله ﷺ ، ثم في شكل عودته إلى مكة لاستخلصنا عدة أمور وهي :

= بعضهم يفتح الرء وهو غلط . وقال القاسبي . من سكن الرء أراد الجبل المشرف على الموضع ، ومن فتحها أراد الطريق الذي يتفرق منه ؛ فإنه موضع فيه طرق متفرقة . انظر شرح النووى للحافظ يحيى بن شرف النووى ١٢ / ١٥٥ ط المطبعة المصرية ، عمدة القارى ليدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العيني ١٢ ، ٢٩٠ ط مصطفى الحلبي الطبعة الأولى ، فتح البارى ١٣ / ٣٨ .

(١) أى الملك الذى سخر الله له الجبال وجعل أمرها بيده .

(٢) الأخشبين هما جبلا مكة أبو قبيس والذى يقابلة ، وكأنه قمعقان ، وقال الصنعاني بل هو الجبل الأحمر الذى يشرف على قمعقان . ووهم من قال هو ثور كالكرمانى ، وسميا بذلك لصلابتهما وغلط حجارتهما ، والمراد بإطباقهما أن يلتقيا على من بمكة ، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقاً واحداً « الفتح ٣٨ / ١٣ » .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ ؛ طبقات ابن سعد ١ / ١٩٦ ، شرح المواهب اللدنية ١ /

٣٥٥ .

أولاً : في توجهه ﷺ إليها بعد أن أعرضت عنه مكة دليل على التصميم الجازم في نفس الرسول ﷺ على الاستمرار في دعوته وعدم اليأس من استجابة الناس له ؛ فقام يبحث عن ميدان جديد لعرض دعوته فيه بعد أن قامت الحواجز دونها في ميدانها الأول (١).

ثانياً : إن ما تعرض له رسول الله ﷺ من محن مختلفة إنما كان من جملة أعماله التبليغية إلى الناس ؛ فكما أنه جاء لتبليغ العقيدة الصحيحة السليمة للناس وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمرنا الله بهما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ (٢). وبذلك يكون قد علمنا الصبر بالتطبيق العملي كما علمنا القيام بالعبادات بالوسائل التطبيقية ، فقد قال ﷺ « خذوا عني » (٣) وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » (٤)، ولعله قد يظن من لم يطلع على سيرة الرسول ﷺ إلا من الظاهر فقط أن رسول الله ﷺ قد غلب على أمره في الطائف ، وأن اليأس قد تسرب إليه ، لذلك توجه إلى الله « سبحانه وتعالى » بذلك الدعاء بعد أن لجأ إلى بستان ابني ربيعة .

ولكن في الحقيقة أن الرسول ﷺ قد استقبل كل ما حدث له من صعوبات ومشقات وشدائد بصبر ورضا تامين ، ولأفقد كان في استطاعته — لو أراد — أن ينتقم من هؤلاء السفهاء الذين قسوا عليه وآذوه من الزعماء الذين أغروا به سفهاءهم ، وردوه رداً منكراً لفعل ، ولكنه ﷺ لم يرد ذلك ، ولعل أوضح دليل على ذلك ما حدث منه ﷺ مع ملك الجبال عندما نزل عليه وقال له : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؛ فقال له رسول

(١) دراسات في تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد الزنا ، مسند الإمام أحمد ٥ / ٣١٣ ، ٣١٨ ، ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة إلخ .

الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^(١) .

إذاً فقد توفرت له فرصة الانتقام فهل استغل هذه الفرصة ، فاستبدت به شهوة الانتقام ممن أهانوه وآذوه ؟ أم أنه ارتفع عن الجراح والرغبة الجارحة في الانتقام ، وهو القادر على الفتك بأعدائه ؟ ، لا شك أن هذه الفرصة لو سنحت لغيره ما تردد لحظة في الانتقام لنفسه .

ولكن أتى لصاحب الخلق الكريم أن يكون كغيره من الناس ، فيقابل الإساءة بالإساءة ، والقبيحة بمثلها ، ولكنه ﷺ وهو الذى وصفه الله بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) قد أبى أن ينتقم ممن أهانوه وأوجعوه ، ورد مباشرة على ملك الجبال بقوله : « لا تفعل بهم شيئاً فعسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » .

فما أعظم رحمته ﷺ بقومه ، وما أشد حرصه على ما ينفعهم بدنياهم وأخراهم فلقد آذوه واضطهدوه فأغضى عن سفههم ولم يرض أن ينتقم منهم بإنزال العذاب عليهم ، بل رجا الله « سبحانه وتعالى » أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له ، ولا غرو في ذلك فهو رسول الإنسانية كافة ، وهو المثل الكامل والقدوة الحسنة .

ولكن ربما يقول قائل : فما معنى ارتفاع صوته بالشكوى إذا ؟ وما معنى دعائه الذى تدل ألفاظه وصيغته على الضجر والملل من طول المحاولة التى لم تأت بنتيجة إلّا الأذى والعذاب ؟ .

وللإجابة عن ذلك يقول الشيخ الشعراوي فى كتابه الإسراء والمعراج :
أولاً : إن الإنسان الذى يمده الله بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب وأن يجتهد وسعه فى أن يستخدمها فى الوصول إلى أغراضه ، وحين يلجأ إلى الله

(١) الحديث رواه الشيخان . رواه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب « إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » ، ورواه مسلم فى كتاب الجهاد .
باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين .
(٢) سورة القلم رقم : ٤ .

ومعه الأسباب يرد الله رجاءه لأنه لا تزال معه الأسباب ، ولكن إذا ما أصبح مضطراً ، وقد أعيته الأسباب ، فله أن يلجأ إلى الله لينصره لأن السبب قد امتنع ، والمقدمات لم تعد في استطاعة البشر ، فوقف موقفه الضارع إلى الله « سبحانه وتعالى » ، بعد أن فقد أسباب البشر وقال دعاءه السابق الذى يشتمل على كل مقومات الإيمان واليقين ، لأن الله الذى أرسله لن يخذله ، ويشتمل أيضاً على أن رسول الله ﷺ قد استنفد الأسباب ، وأنه لم يجد إلا عدواً ، وإلا بعيداً فلا بد إذاً أن تتدخل السماء (١) .

ثانياً : إن الشكوى إلى الله تعبد ، والضراعة والتذلل له « سبحانه وتعالى » تقرب إليه وطاعة ، وللمحن والمصائب حكم ، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى باب الله تعالى وتليسه جلباب العبودية له ، فليس إذاً بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله أى تعارض ، بل الواقع أن الرسول ﷺ كان يعلمنا في حياته كلا الأمرين .

فبصبره الشديد على المحن يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة ، وبطول ضراعتهم والتجائه إلى الله تعالى يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها .

على أن النفس البشرية لا تتجاوز بشريتها مهما تسامت ، والبشر مجبول فى أصل فطرته على الإحساس والشعور ، الإحساس بلذة النعيم والشعور بألم العذاب ، وهو مجبول على الركون إلى الأول والفرع من الثانى . وهذا يعنى أن الرسول ﷺ حتى وهو يوطن نفسه لتلقى أنواع الضر والعذاب فى سبيل ربه فهو مع ذلك بشر . يتألم للضر ويستريح للنعيم . ولكنه مع هذا يفضل الضر مهما تكن آلامه ، على النعيم مهما تكن لذائذه ، إرضاء لوجه ربه وأداء لحق العبودية عليه . ولا ريب أن هذا هو مناط استحصال الثواب وظهور معنى التكليف للإنسان (٢) .

ونلاحظ من دعاء رسول الله ﷺ الذى توجه به إلى ربه « سبحانه وتعالى »

(١) انظر الإسراء والمعراج للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ط دار الشروق الطبعة الرابعة ١٩٧٥ .
(٢) فقه السيرة للبوطى بتصرف ص ١١٠ ، ١١١ .

أن فيه تأكيداً لصديق رسول الله ﷺ في دعوته ، وتصميماً على الاستمرار فيها مهما قامت في وجهه الصعاب ، وأنه لا يهمله إلا رضا الله وحده ، فلا يهمله رضا الكبراء والزعماء ، ولا رضا العامة والدعاهاء « إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي » كما أن فيه استمداد القوة من الله باللجوء إليه والاستعانة به عندما يشتد الأذى بالداعية ، وفيه أن خوف الداعية كل الخوف هو من سخط الله عليه وغضبه ، لا من سخط أى شيء سواه (١) .

ثالثاً : إذا تأملنا في مشاهد سيرته مع قومه ، وجدنا أن ما كان يجده الرسول ﷺ من الأذى في هذه المشاهد قد يكون قاسياً ، بيد أننا نجد في كل مشهد منها ما يعتبر رداً إلهياً على ذلك الإيذاء وما يهدف إليه أربابه كى يكون في ذلك مواساة وسلوى للرسول « عليه الصلاة والسلام » ، وكى لا يتجمع في النفس من عوامل التلم والضجر ما يدخل إليها اليأس .

ففى مشهد خروجه ﷺ إلى الطائف ، وما لحقه فيها من عذاب الإيذاء ، وألم الإخفاق ، يجد رداً إلهياً واضحاً على وقاحة وسفاهة أولئك الذين لحقوا به وآذوه واعتذاراً له عن سفاهتهم وغلظتهم ، ويظهر ذلك في موقف الرجل النصراني « عداس » حينما جاء يسعى إليه وفى يده طبق فيه عنب . ثم انكب فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه وذلك عندما أخبره « عليه الصلاة والسلام » أنه نبي (٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن الرد الإلهي الواضح على سفاهة هؤلاء الذين آذوا الرسول ﷺ ، ومواساة الله لرسوله عن سفاهتهم وغلظتهم أن ننقل هنا كلاماً للأستاذ مصطفى صادق الرافعي « رحمه الله » بعد ذكره للقصة في كتابه وحى القلم إذ يقول :

« ياعجباً لرموز القدر في القصة : « لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة . وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، ومن مشوا إلى أبى طالب عم

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للشيخ مصطفى السباعي ص ٦٨ .

(٢) فقه السيرة للبطي ص ١١١ بتصرف .

النبي ﷺ من أشرف قريش يسألونه ، أن يكفه عنهم أو يخلّي بينهم وبينه أو ينزلوه وإياد حتى يهلك أحد الفريقين فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني الذي جاء به هذا الدين ؛ لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتعزّه . إن الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الدين العقل . ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة ، بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامي العظيم الذي امتلاً حباً ، كل حبة فيه مملكة (١) .

رابعاً : إن ما فعله زيد بن حارثة لوقاية الرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء حتى إنه شج في رأسه عدة شجاج — نموذج لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة ، من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته .

وهكذا كانت حال الصحابة « رضوان الله عليهم » بالنسبة لرسول الله ﷺ (٢) ، لذلك فمن الواجب على دعاة اليوم أن يتحملوا في سبيل دعوتهم المحن والعذاب والمشقات والتحديات التي تواجههم لكي لا تكون حائلاً بينهم وبين تبليغ الدعوة الإسلامية للناس .

ولا تبث فيهم روح الكسل والدعة ما داموا على هدى من الإيمان بالله وتوفيقه ، وأن يستمدوا القوة من الله « سبحانه وتعالى » لأن من استمد القوة من الله « سبحانه وتعالى » جدير به ألا يعرف للكسل أو لليأس معنى إذ ما دام الله « سبحانه وتعالى » هو الأمر فلا شك أنه هو الناصر أيضاً .

كما ينبغي أن يكون للمسلمين في كل عصر وزمن قادة للدعوة الإسلامية لكي يكونوا بهذه القيادة. خلفاء لقيادة النبي ﷺ في دعوته ، وواجب المسلمين

(١) وحى القلم : ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ط ثلاثة ١٣٦٦ — ١٩٤٧ مطبعة الاستقامة بالقاهرة . تأليف مصطفى صادق الرافعي . ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العريان . ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١١٢ .

كلهم أن يجعلوا من أنفسهم جنوداً مخلصين لهؤلاء القادة ويفدوهم بكل ما يملكون من نفس ومال ، كما كان شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ .

خامساً : في رد الرسول ﷺ على زيد بن حارثة قائلاً له : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً . وذلك عندما قال له زيد « يا رسول الله كيف تدخل على قريش مكة وقد أخرجوك ؟ » .

نقول في رد الرسول على زيد دليل على وثوق الرسول ﷺ من نصر الله « سبحانه وتعالى » له في حلقة اليأس ، وشدة الحال وما كان الرسول ﷺ يشك لحظة واحدة أو يخالجه الشك أصلاً في أمر نصر الله « سبحانه وتعالى » له مهما تلسد الجو ، وكثرت الأعاصير ، وفي دخول الرسول ﷺ مكة بعد رحلة الطائف في جوار مطعم بن عدي حكمة بالغة منه ﷺ حيث إنه « عليه الصلاة والسلام » أراد أن يستوثق لنفسه ولدعوته كي لا يغدر به القوم .

الدعوة في مواسم الحج

رأينا فيما سبق كيف أن أهل مكة كفروا بالدعوة الإسلامية التي جاءهم بها رسول الله ﷺ من عند الله ، بل وآذوه ﷺ هو وأصحابه وقعدوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويغونها عوجاً ..

كما رأينا أيضاً إباء أهل الطائف نصرته والدخول في دعوته ، وإيذاءهم له . لكن الله « سبحانه وتعالى » أراد أن يقضى لتلك الدعوة من يستنقذها من تلك البيئة الوثنية الضالة التي حرمت الخير كله .

وإذا كان أهل مكة قد استنفذوا جهودهم في حجب أنوار الدعوة الإسلامية لكيلا تصل إلى قبائل العرب ولا إلى الناس جميعاً ، وتفننوا في توهين أمر محمد ﷺ ووصفوا أصحابه بالسفه ونجحت دعاياتهم الكاذبة هذه في منع قبائل كثيرة من الدخول في الإسلام .

فقد أراد الله « سبحانه وتعالى » أن تجد هذه الدعوة المستادرة المضطهدة أنساً .

بعد وحشة وأمناً بعد فزع ، ويسراً بعد عسر ، وانطلاقاً بعد طول توقف وجمود .

وذلك في بلدة أخرى غير مكة ، هذه البلدة هي المدينة المنورة التي أعدها الله « سبحانه وتعالى » لتكون المنطلق الثاني للدعوة الإسلامية حيث تستطيع الدعوة أن تجد فيها منطلقاً تنطلق منه لكل بقاع العالم .

ولكن كيف الطريق إلى ذلك ؟ لا بد من إعداد جيد ومدرّس للوصول إلى هذه البلدة المباركة الطيبة التي سوف تأخذ الدعوة منها طريقاً للانتشار .

من أجل ذلك قام رسول الله ﷺ بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج والجماع والمنازل ، يكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك شيئاً إلا أن يؤروه ويمنعوه .

لاوى ابن ماجه في سننه : عن جابر كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول « هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » (١) .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن ربيعة عن عبادة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي الحجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله تعالى » (٢) .

ثم لجأ رسول الله ﷺ إلى وسيلة أخرى عسى أن يكون من ورائها خير للدعوة ، فكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده (٣) .

قصة أبي الحيسر وإسلام إياس بن معاذ :

فمن ذلك ما حدث من رسول الله ﷺ عند قدوم أبي الحيسر — أنس بن

(١) سنن الإمام ابن ماجه . المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية . والحديث صحيحه الحاكم آخر فتح الباري ج ١٥ ص ٧١ ، وقال صاحب المجمع رجاله ثقات ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٩ ، أبو داود ج ٢ ص ٥٣٦ كتاب السنة باب في القرآن والحديث صحيحه ابن حبان . انظر فتح الباري ج ١٥ ص ٧١ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ص ٣٥١ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٥٢ .

نافع — ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمي بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : هل لكم إلى خير مما جئتم إليه ، قالوا : وما ذاك؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على كتاباً ، ثم ذكر الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : وكان غلاماً حدثاً : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم إليه . فأخذ أبو الحيسر أنس بن نافع حفنة من البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا . فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعثت بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

وقد روى من حضره من قومه عند موته . أنهم لم يزالوا يسمعون بهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً ، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع (١) .

وهكذا نرى أن البراعم الناشئة تتجه إلى الضوء وتفتتح للنور الجديد ، وقد كان إياس بن معاذ من تلك البراعم التي اتجهت بفطرتها لاستقبال النور . ولكن أنس بن نافع أبى عليه ذلك ونكس هذا البرعم إلى الأرض ليصرفه عن استقبال النور ، إلا أن إياس بن معاذ قد تشربت نفسه الإسلام حين استمع من رسول الله ﷺ وجلس إليه مرة واحدة .. فأمن بالله .. وصدق بآياته فمات على الإسلام !! ومهما يكن من شيء فقد ترك حديث الرسول ﷺ بين القوم أكبر الأثر في نفوسهم ، مما جعل الأوس والخزرج كليهما يلتمسون في محمد نبياً ورسولاً وحليفاً وإماماً (٢) .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٤٢٧ والطبراني . وقال الهيثمي في المجمع هذا الحديث رجاله ثقات انظر المجمع ج ٦ ص ٣٦ .
(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

إسلام سويد بن الصامت :

ومن ذلك ما حدث من رسول الله ﷺ مع سويد بن الصامت — أخى بنى عمرو بن عوف بن مالك بن أوس وأوس هذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ عندما قدم مكة حاجاً أو معتمراً وكان سويد إنما يسمى فى قومه بالكامل ، لجلده وشعره ، وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد ، لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان — يعنى حكمة لقمان . فقال رسول الله ﷺ له : اعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد عنه ، وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قتل وهو مسلم ، وكان قتله يوم بعث^(١) .

إسلام أهل المدينة

جاء موسم الحج فى السنة الحادية عشرة من النبوة ، فخرج رسول الله ﷺ ليعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً^(٢) من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم ببلاذهم ، وكانوا

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٤٧ ، سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٢) الرهط من الرجال ما دون العشرة . وقيل الأربعين ولا تكون فيهم امرأة ، ولا واحد له من لفظه ، ويجمع على أرهط وأرهاط وأرهط جمع الجمع « النهاية ٢ / ١١٤ » .

أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم^(١) ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظلم زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر^(٢) ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم . تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا^(٣) .

وكانوا ستة نفر : وهم :

١ — أبو أمامة أسعد بن زرارة . قال أبو النعمان : إنه أول من أسلم من الأنصار من الخرج .

٢ — عوف بن الحرث بن رفاعه من بنى النجار ، وهو ابن عفراء بنت عبيد النجارية ، وهى أم معاذ ، ومعوذ وإليها ينسبون .

٣ — ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى .

٤ — وقطبة بن عامر بن حديدة^(٤) أبو الوليد السلمى .

٥ — وعقبة بن عامر^(٥) .

(١) بالعين المهملة . عز فلاناً يعز عزا من باب نصر ، غلبه وقهره ، ورجل عزيز : منيع لا يغلب ولا يقهر . اللسان مادة عز .

(٢) النفر : بالتحريك والرهط : ما دون العشرة من الرجال ، ومنهم من خصص فقال : للرجال دون النساء والجمع أنفار ولا واحد له من لفظه ومعناه الجمع « اللسان مادة نفر » .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٤ ، ٥٥ ، والبداية والنهاية ٣ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، دلائل النبوة ٢ / ١٧٣

باب ذكر العقبة .

(٤) بفتح الحاء ودالين مهملتين أولاهما مكسورة . شرح المواهب ١ / ٣٦١ .

(٥) بضم العين وسكون القاف — شرح المواهب ١ / ٣٦١ .

٦ - وجابر بن عبد الله بن رباب (١) .

وذكر موسى بن عقبة فيما رواه عن الزهري وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه « عليه السلام » بهم كانوا ثمانية وهم معاذ بن عفراء ، وأسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وذكوان — وهو ابن عبد قيس — وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة (٢) .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوههم إلى الإسلام حتى فشا بينهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ (٣) .

وبعد : فهذا أول موكب من مواكب الخير ، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه ، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله ، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله .. وعرضوا كلمة الهدى على آلهم وذويهم فلم تبق دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد ﷺ ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد ، لكنه لقاء هياؤه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول ، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ .. وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار ، بل إنها على التحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور . أكان معقولاً في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين ، وجنود للحق مخلصين ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم . وبين جوانحهم نور ، وعلى وجوههم نور ، وإنهم لعل نور ؟ تلك مشيئة القدر العالی هيأت للدعوة مجاهداً الخصب ، وحماها الأمين .. والسنوات العجاف التي قضها الرسول نضالاً مستمراً ، وكفاحاً دائماً ، وتطوفاً على القبائل . والتماساً للحليف .. قد ولت إلى

(١) بكسر الراء فتحتية خفيفة وهو غير جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصاري الصحابي ابن الصحابي ، وجابر بن عبد الله خمسة ، هذان والثالث جابر بن عبد الله العبدى من عبد القيس ، والرابع جابر ابن عبد الله الراسي ، والخامس جابر بن عبد الله الأنصاري استصغره الرسول ﷺ يوم أحد فزده وليس بالذى يروى عنه الحديث ، رواه ابن سعد عن زيد بن حارثة وذكره الطبري وكذا البيهقي في المغازي « شرح المواهب » ١ / ٣٦١ .

(٢) البداية والنهاية ٣ / ١٤٩ ، فتح الباري ١٥ / ٧١ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٥ . البداية والنهاية ٣ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

غير رجعة .. سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة ، وجيشه الباسل وسيلتقى الحق بالباطل ليصفى معه حساب الأيام الخوالى ، والعاقبة للمتقين !! وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب النور — التى هياها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح فى النور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير ، وبما حملت من نور^(١) .

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التى حدثت عند العقبة وتلاقى فيها فريق من الخرج بالنبي ﷺ وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة^(٢) ، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق فى أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم فى المدينة ولكنهم أخلصوا فى تبليغ رسالة الإسلام^(٣) .

بيعة العقبة الأولى

تجاوبت أصداء الدغوة الحمذية فى ربوع يثرب وتذاكروها تذاكر من لا يتنازعون فى شرف تمسه ، أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صغت أفئدتهم إليه ، ومن يرجو من الاستجابة زوال الفرقة التى تقتسمهم ، وتجعلهم فى حرب مستمرة ، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذين كانوا يستفتحون عليهم بأن النبي ﷺ سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون إليه ، لأنهم يسارعون فى الحق ، ولا ييغون سواه^(٤). وبعد عام من هذه المقابلة الأولى التى تمت بين الرسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة وفى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة وبايعوه العقبة الأولى ، وكان فيهم خمسة من الستة الذين أسلموا فى المقابلة الأولى وهم : ١ — أبو أمامة أسعد بن زرارة . ٢ — وعوف بن عفراء . ٣ — ورافع ابن مالك . ٤ — وقطبة بن عامر بن حديدة . ٥ — وعقبة بن عامر بن نائى . ولم

(١) أضواء على الهجرة . لتوفيق محمد سبع ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) البيعة عبارة عن المعاهدة والمعاهدة كأن كل واحد باع ما عنده من صاحبه — النهاية ١ / ١٠٥ وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضى له ، ويقال لذلك بيعة ومبايعة ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ إشارة إلى بيعة الرضوان — المفردات ص ٦٧ .

(٣) دراسات تاريخية للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٤٧ .

(٤) خاتم النبیین ١ / ٤٩٢ .

يكن منهم جابر بن عبد الله بن رباب ... وأما السبعة تنمة الإثنى عشر منهم فهم :
 ٦ — معاذ بن الحرث بن رفاعه وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور وأخو معوذ أيضاً
 الثلاثة أشقاء . ٧ — وذكوان^(١) بن عبد قيس البدرى الزرقى^(٢) . ٨ — وعبادة بن
 الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف ابن الخزرج . ٩ —
 وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن حُرمة . ١٠ — والعباس بن عبادة بن فضلة^(٣) بن
 مالك بن العجلان^(٤) ، وهؤلاء من الخزرج .

ومن الأوس رجلاً : ١١ — أبو الهيثم مالك ويقال عبد الله بن التيهان^(٥) .
 ١٢ — وعويم بن ساعدة^(٦)

على أى شيء كانت هذه البيعة :

وقد ادعى بعض العلماء أنها كانت بيعة على نمط بيعة النساء فقد ذكر ابن
 إسحاق فى سيرته بسنده عن عبادة بن الصامت ، قال : كنت فيمن حضر العقبة
 الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك
 قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ،
 ولا نقتل أولادنا . ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى
 معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل
 إن شاء عذب وإن شاء غفر .

ثم ذكر عن ابن شهاب الزهري عن عائذ الله بن عبد الله الخولاني أبى إدريس
 عن عبادة بن الصامت أيضاً نحو ذلك إلا أنه أوفى وأتم ، ولفظه « وإن غشيتم من

(١) ذكوان : بفتح الذال المعجمة وإسكان الكاف . شرح المواهب اللدنية ١ / ٣٦٣ .

(٢) الزرقى بتقديم الزاى المضمومة على الراء وكذا كل ما فى نسب الأنصار قال ابن ماكولا وغيره نسبة
 إلى جده زريق الخزرجى يكنى أبا اليسع ، وقيل إنه رحل إلى رسول الله ﷺ فى مكة فسكنها معه فهو
 مهاجرى أنصارى وقتل يوم أحد . شرح المواهب ١ / ٣٦٣ .

(٣) فضلة بنون مفتوحة وضاد معجمة . شرح المواهب اللدنية ١ / ٣٦٣ .

(٤) وأقام العباس بمكة حتى هاجر معه ﷺ فكان أنصارياً مهاجراً ، واستشهد بأحد « نفس

المصدر » .

(٥) بفتح الفوقية فتحية مخففة عند أهل الحجاز ، مشددة عند غيرهم قال السهيلي : واسمه أيضاً مالك
 لكن فى الإصابة يقال التيهان شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها . « نفس المصدر » .

(٦) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٧ ، البداية والنهاية ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ .

ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا ، فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » وقد نَهَجَ نَهَجَ ابن إسحاق — رحمه الله — بعض كتاب السيرة من القدماء — كابن جرير الطبري في تاريخه ٣ / ٣٥٦ ، وابن سعد في طبقاته ١ / ٢٠٤ ، وابن الأثير في كتابه الكامل ٢ / ٤٥ وغيرهم — وبعض المحدثين كالبوطي في كتابه فقه السيرة ص ١٢٤ والشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة أيضاً ص ١٥٧ ، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد « ص ١٩٨ ، وكذلك في كتاب قصص القرآن ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ وغيرهم . وذلك لأن ظاهر رواية الإمام البخاري في صحيحه تفيد ذلك ، فقد روى بسنده أن عبادة بن الصامت — رضى الله عنه وكان شهد بداراً . وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة (١) من أصحابه : يا يعقوب على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك (٢) .

وليس في هذه الرواية الصحيحة التي رواها عبادة أن هذه البيعة بيعة العقبة إذ لم يقل بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة (٣) .

ولما كانت آية بيعة النساء قد نزلت بعد الحديبية بلا خلاف (٤) وهو ما يمكن أن يقدح فيما قاله ابن إسحاق هنا فإن الحافظ ابن كثير لجأ إلى تأويل كلمة ابن إسحاق فقال : وقوله على بيعة النساء — يعنى على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية ، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة . وليس هذا عجيباً فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن كما بيناه في سيرته وفي التفسير ، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحى غير

(١) العصابة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، ولا واحد لها من لفظها ، وجمعت على عصاب . النهاية ٣ / ٩٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان باب علامة الإيمان حب الأنصار .

(٣) إنسان العيون في سيرة الأئمة المأمون المعروف بالسيرة الحلبية . للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي ج ٢ ص ٨ ط بمصر مطبعة محمد أفندي مصطفى .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١ ص ١٢٧ .

متلو فهو أظهر والله أعلم^(١) .

وتم رأى آخر يرى أن البيعة كانت على شيء خلاف ما جاء في بيعة النساء .

وقد تزعم هذا الفريق الحافظ ابن حجر حيث يقول :

« إن المبايعة المذكورة في حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة ، وإنما نص ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه » وفي كتاب الفتن وغيره عند البخاري قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، الحديث وأصرح من ذلك في هذا المراد ما أخرجه أحمد والطبراني من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام فقال : « يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول بالحق ولا نخاف في الله لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما تمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا ولنا الجنة فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها » فذكر بقية الحديث .

وعند الطبراني ، له طريق أخرى وألفاظ قريبة من هذه ، وقد وضح أن هذا هو الذي وقع في البيعة الأولى ، فقد صدرت مبايعات أخرى منها هذه البيعة التي في حديث الباب في الزجر عن الفواحش المذكورة . والذي يقوى أنها وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهي قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾^(٢) ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف ، والدليل على ذلك ما عند البخاري في كتاب الحدود من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري في حديث عبادة هذا : « أن النبي ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها » وعنده في تفسير الممتحنة من هذا الوجه قال : « قرأ آية النساء » ولمسلم من طريق معمر عن الزهري قال : فتلا علينا آية النساء قال : « لا تشركن بالله شيئاً » ، وللنسائي من طريق الحارث بن فضل عن الزهري أن

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .

(٢) سورة الممتحنة آية (١٢) .

رسول الله ﷺ قال : « ألا تباعوني على ما بايع عليه النساء : ألا تشركوا بالله شيئاً » الحديث وللطبراني من وجه آخر عن الزهري بهذا السند : « بايعنا رسول الله ﷺ على ما بايع عليه النساء يوم فتح مكة ، ولمسلم من طريق أبي الأشعث عن عبادة في هذا الحديث : « أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ، فهذه أدلة ظاهرة في أن هذه البيعة إنما صدرت بعد نزول الآية ، بل بعد صدور البيعة ، بل بعد فتح مكة ، وذلك بعد إسلام أبي هريرة بمدة ، ويؤيد هذا ما رواه ابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبيه عن محمد بن عبد الرحمن الطغاوي عن أيوب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئاً فذكر نحو حديث عبادة ورجاله ثقات . وقد قال إسحاق بن راهويه إذا صح الإسناد إلى عمرو بن شعيب فهو كأبيوب عن نافع عن ابن عمر . هـ . وإذا كان عبد الله بن عمر أحد من حضر البيعة وليس هو من الأنصار ولا ممن حضر بيعتهم ، وإنما كان إسلامهم قرب إسلام أبي هريرة وضح تغاير البيعتين ، بيعة الأنصار ليلة العقبة ، وهي قبل الهجرة إلى المدينة ، وبيعة أخرى وقعت بعد فتح مكة ، وشهدها عبد الله بن عمر ، وكان إسلامه بعد الهجرة بمدة طويلة ، ومثل ذلك ما رواه الطبراني من حديث جرير قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على مثل ما بايع عليه النساء ، فذكر الحديث ، وكان إسلام جرير متأخراً عن إسلام أبي هريرة على الصواب ، وإنما حصل الالتباس من جهة أن عبادة بن الصامت حضر البيعتين معاً ، وكانت بيعة العقبة من أجل ما يمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنوياً بسابقتها . فلما ذكر هذه البيعة التي صدرت على مثل بيعة النساء عقب ذلك ، توهم من لم يقف على حقيقة الحال أن البيعة الأولى وقعت على ذلك (١) .

وهذا الذي ذكره الحافظ هو الذي يجب أن يصار إليه فهو — رحمه الله — من أعلم الناس بالقرآن ، وتنزيلاته ، والسنة وطرق الجمع بين رواياتها المختلفة ، وبالسيرة وتواريخ الصحابة ، وله انتقادات كثيرة صائبة على ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة وتاريخ الرجال .
والخلاصة أن المبايعة في العقبة الأولى كانت على السمع والطاعة والعسر واليسر .

(١) فتح الباري شرح البخارى ج ١ ص ١٢٦ : ١٢٨ .

وفى المنشط والمكره ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقول الحق ،
والألا يخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله ﷺ إذا قدم عليهم
يثرّب ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وأزواجهم ، وأولادهم ، وأما المبايعه
على مثل بيعه النساء فقد كانت بعد ذلك (١) .

إلا أن صاحب كتاب « عمدة القارى » حاول أن يرد على ابن حجر رأيه
هذا وينتصر للرأى الأول أعنى أن بيعه العقبة كانت على ما فى آية النساء ، فيقول
بعد أن ذكر كلام ابن حجر السابق قلت : فيه نظر من وجوه .

الأول : أن قوله ويطلبه أن أبا هريرة صرح بسماعه غير مسلم من وجهين :
أحدهما أنه يحتمل أن يكون أبو هريرة « رضى الله عنه » سمع من النبى ﷺ بعد ما
سمعه من صحابى آخر ، فلذلك صرح بالسماع وهذا غير ممنوع ولا محال ،
والآخر أنه يحتمل أنه صرح بالسماع لتوثقه بالسماع من صحابى آخر ، فإن
الصحابة كلهم عدول لا يتوهم فيهم الكذب .

الثانى : أن قوله وإن الحدود لم تكن نزلت إذ ذاك ، لا يلزم من عدم نزول
الحدود فى تلك الحالة انتفاء كون الحدود كفارات فى المستقبل ، غاية ما فى الباب
أن النبى ﷺ أخبر فى حديث عبادة أن من أصاب مما يجب فيه الحدود التى تنزل
عليه بعد هذا ، ثم عوقب بسبب ذلك بأن أخذ منه الحد فإن ذلك الحد يكون كفارة
له ، ولا شك أن النبى ﷺ كان يعلم قبل نزول الحدود أن حال أمته لا تستقيم
إلا بالحدود فأخبر فى حديث عبادة بناء على ما كان علمه قبل الوقوع .

الثالث : أن قوله والحق عندى أن حديث أبى هريرة صحيح غير مسلم لأن
الحديث أخرجه الحاكم فى مستدركة والبخارى فى مسنده من رواية معمر عن ابن أبى
ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة . وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ،
وقد علم مساهلة الحاكم فى باب التصحيح على أن الدارقطنى قال : إن عبد الرزاق
تفرد بوصله ، وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر فأرسله ، فإذا كان الأمر
كذلك فمتى يساوى حديث أبى هريرة حديث عبادة بن الصامت حتى يقع بينهما
تعارض فيحتاج إلى الجمع والتوفيق . فإن قلت : قد وصله آدم بن أبى إياس عن

(١) السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة ج ١ ص ٤٥٧ .

ابن أبى ذئب أخرجه الحاكم أيضاً . قلت : ولو وصله هو أو غيره ، فإن قطع غيره مما يورث عدم التساوى بحديث عبادة ، وصحة حديث عبادة متفق عليها ، بخلاف حديث أبى هريرة على ما نص عليه القاضى عياض وغيره فلا تساوى فلا تعارض فلا احتياج إلى التكلف بالجمع والتوفيق .

الرابع : أن قوله والمبايعة المذكورة فى حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة غير مسلم ، لأن القاضى عياض وجماعة من الأئمة الأجلاء قد جزموا بأن حديث عبادة هذا كان بمكة ليلة العقبة لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ البيعة الأولى بمنى ، ونقيم بصحة ما قالوا دلائل . منها « أنه ذكر فى هذا الحديث » وحوله عصابة » وفسروا أن العصابة هم النقباء الاثنا عشر ولم يكن غيرهم هناك ، والدليل على صحة هذا ما فى رواية النسائى فى حديث عبادة هذا قال : « بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة فى رهط » الحديث . وقد قال أهل اللغة : إن الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ (١) قال ابن زيد : وربما جاوز ذلك قليلاً ، قاله فى العَبَاب . والقليل ضد الكثير ، وأقل الكثير ثلاثة ، وأكثر القليل اثنان ، فإذا أضفنا الاثنان إلى التسعة يكون أحد عشر ، وكان المراد من الرهط هنا أحد عشر نقيباً ، ومع عبادة يكونون اثني عشر نقيباً ، فإذا ثبت هذا فقد دل قطعاً أن هذه المبايعة كانت بمكة ليلة العقبة البيعة الأولى ، لأن البيعة التى وقعت بعد فتح مكة على زعم هذا القائل كان فيها الرجال والنساء وكانوا بعد كثيراً . والثانى : أن قوله ليلة العقبة دليل على أن هذه البيعة كانت هى الأولى ، لأنه لم يذكر فى بقية الأحاديث ليلة العقبة ، وإنما ذكر فى حديث الطبرانى يوم فتح مكة ، ولا يلزم من كون البيعة يوم فتح مكة أن تكون البيعة المذكورة هى إياها ، غاية الأمر أن عبادة قد أخبر أنه وقعت بيعة أخرى يوم فتح مكة وكان هو فيمن بايعوه « عليه الصلاة والسلام » .

والثالث : أن ما وقع فى الصحيحين من طريق الصنابحي عن عبادة « رضى الله عنه » قال : إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، وقال : بايعناه على ألا نشرك بالله شيئاً » الحديث . يدل على أن المبايعة المذكورة فى الحديث المذكور كانت ليلة العقبة ، وذلك لأنه أخبر فيه أنه كان من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وأخبر أنهم بايعوه ، ولم يثبت لنا أن أحداً بايعه « عليه الصلاة

(١) الفمل آية (٤٨) .

والسلام » قبلهم ، فدل على أن بيعتهم أول المبايعات ، وأن الحديث المذكور كان ليلة العقبة . وأما احتجاج هذا القائل في دعواه بما وقع في الأحاديث التي ذكرها من قراءة النبي ﷺ بالآيات المذكورة على ما ذكره فلا يتم ، لأنه يحتمل أن عبادة لما حضر البيعات مع النبي ﷺ وسمع منه قراءة الآيات المذكورة في البيعات التي وقعت بعد الحديبية أو بعد فتح مكة ذكرها في حديثه ، بخلاف حديث البيعة الأولى فإنه ليس فيه قراءة شيء من الآيات ، وتمسك هذا القائل أيضاً بما زاد في رواية الصنابحي في الحديث المذكور ولا تنتهب على أن هذه البيعة متأخرة لأن الجهاد عند بيعة العقبة لم يكن فرضاً ، والمراد بالانتهاب ما يقع بعد القتال في المغنم ، وهذا استدلال فاسد لأن الانتهاب من أن يكون في المغنم وغيرها ، وتخصيصه بالمغنم تحكم ومخالف للغة (١) .

ونجيب على الإمام العيني « رحمه الله » بما يلي :

بالنسبة للوجه الأول أعنى ادعائه مجازية السماع .

إن الموقف لا يحتاج لكل هذه الفروض والاحتمالات لأن هذه الاحتمالات بعيدة الحدوث في موطننا هذا ، فقد اعتدنا من رواة الحديث الدقة كل الدقة في التعبير والإصابة بالعبارات ما هم متأكدون منه بالفعل ، فإذا ورد السماع لم يكن إلا السماع حقيقة عن النبي ﷺ إذ لا يقبل المجاز في مثل هذا الموقف إلا حيث تقوم قرينة توجب تعذر الحقيقة وبالتالي الحمل على المجاز وأنى له بمثل تلك القرينة

وبالنسبة للوجه الثاني أعني تجويزه ألا يكون حديثه ﷺ عن الحدود حديثاً عن ماض أو حاضر بل عن مستقبل أقول بالنسبة لهذا الوجه فهو مجازفة وخلاف لما هو ظاهر بنفسه أتم ظهور ، لأن الإخبار في مثل هذه المواطن لا يكون إلا عما هو كائن لا عما سيكون في المستقبل .

ولو كان الرسول ﷺ أخبرهم عما سيقع في المستقبل لكان في ذلك إعجاز منه ﷺ يحرص المسلمون على إثباته ويحكيه القاصي والداني ، ولكن لم يحكه أحد على أنه إحدى معجزاته ﷺ .

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى . للإمام بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العيني ج ١

وبالنسبة للوجه الثالث أعنى محاولته إبطال الاستشهاد بحديث أبي هريرة عن طريق ضعف رتبته بالنسبة لحديث عبادة فإنى أقول ليس فى هذا حجة على الحافظ لأنه يمكن أن ينهض دليلاً لو كان هناك تعارض بين الحديثين يحتاج إلى كل هذا ، فحديث عبادة لم يصرح بأن البيعة كانت بيعة العقبة بدليل أن روايات متعددة وكثيرة نقلت عن عبادة نفسه فيما بايعهم عليه النبى فى العقبة ولم يكن من بينها على كثرتها ما يشير إلى أن بيعة النساء ببيع عليها الرجال ليلة العقبة .

وما زعمه الشيخ من ثبوت التصريح بليلة العقبة فى رواية النسائى فإنى قد استقصيت البحث بنفسى فى سنن النسائى فلم أجد لذكر ليلة العقبة عيناً ولا أثراً ، وكذلك استقصى البحث قبلى محدث هذا الزمان الثقة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى تحقيقه لجامع الأصول حيث علق على ما ذكر ابن الأثير من ثبوت هذه الرواية عند النسائى بقوله « هذه الزيادة لم نجدها فى « سنن النسائى » ولا نحسبها تصحح ، لأن هذه البيعة كانت بعد الهجرة بزمان كما حققه الحافظ « فى الفتح » (١) أ . هـ . فإذا كان العيني « رحمه الله » يريد السنن الصغرى للنسائى وهو الظاهر لشهرتها وانصراف الحديث إليها عند الإطلاق فهو وهم تبع فيه ابن الأثير ، وإن كان يريد غيرها كالسنن الكبرى مثلاً فإنى أقول هنا بمقالة الأرناؤوط الآتفة « أحسب هذه الزيادة لا تصحح » وأستبعد جداً أن يخفى مثلها لو صحت على مثل الحافظ ابن حجر وهو من هو حفظاً وإتقاناً وتحقيقاً وبالنسبة للوجه الرابع .

أعنى محاولته تخطئة ابن حجر بكلام القاضى عياض وجماعة فإنى أقول ليس ملزماً لأنه وإن كان القاضى عياض موضع ثقة فليس ابن حجر بمعزل عن هذه الثقة بل هو فى معيار التحقيق والنصفة أوثق وأخبر من ينبغى الرجوع إليه فى أمثال هذه المجالات .

واستدلّاه بكلمة « عصابة » على أن المراد بها النقباء الإثنا عشر واضح البطلان ؛ فليس بلازم فى اللغة أصلاً قصر العصابة على هذا العدد أو غيره . ألا ترى إلى قول الجوهرى فى الصحاح مثلاً فى هذه المادة « العصابة » بالكسر

(١) انظر جامع الأصول لابن الأثير بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ج ١ ص ٢٥١ بالمهامش .

الجماعة من الناس والخييل والطير « أ . هـ .

وهكذا وقع لغيره من أصحاب المعاجم مثل هذا الإطلاق ، بل ألا ترى كيف أطلقها النبي ﷺ نفسه على الجمع الكثير الذى يربو على الثلاث مائة فى قوله يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض بعد » (١) ألم تكن هذه العصابة ثلاثمائة وأربعة عشر كما هو مشهور فى كتب السيرة مما يدل أبلى الدلالة على صحة إطلاق هذه اللفظة لغة وشرعاً على القليل والكثير من العدد اثنى عشر كان هذا العدد أو أقل أو أكثر ، فمن أين له إذا مثل هذا التحديد الذى يريد حتى يلزمنا القول بصحة هذا التفسير الذى فسره .

واستدلالة بلفظة « رهط » فيه نظر إذ لا مانع من تعدد المبايعات التى كان لعبادة شرف لحضورها ويمكن أن يكون المراد بالرهط جزءاً من جماعة المبايعين كأن يكونوا مقسمين إلى رهوط على رأس كل رهط نقيب لهم .

وعلى ذلك لا تكون لفظة رهط المذكورة فى الحديث دالة على أن المراد بيعة العقبة والدليل متى تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال .

وأما الحديث الوارد عن طريق الصناجحي فليس فيه دلالة على أن البيعة المذكورة كانت فى العقبة فقول ابن الصامت فيه « إلى من النقباء » سبق لابن حجر أن أجاب عنها ؛ فبين عندها أن بيعة العقبة كانت مفخرة يتفاخر بها كل من حضرها فهذه هى المفاخرة .

ثم قوله بعد ذلك « بايعناه على ألا نشرك به شيئاً » حديث عن بيعة جديدة كانت بعد الفتح ، وهى التى جاءت على صورة بيعة النساء .

ومحاولته إبطال الاستشهاد بذكر الآية عقب الحديث وهى متأخرة فى النزول بقوله وهذا لا يتم ثم يعلل بقوله : لأنه يحتمل ليس من لغة العلم فالاحتمال لا يرد به على الحقيقة الثابتة ، وإلا فأين ما قاله عندما حاول إبطال حديث أبى هريرة بأنه لا ينهض أمام حديث عبادة لأنه ليس مساوياً لحديث عبادة بل أضعف منه . فلماذا نراه الآن يحاول إبطال اليقين بالاحتمال .

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة فى بدر ، وإباحة الغنائم .

أما أن الانتهاب ليس مقروناً بالجهاد لأنه ليس مقصوراً على الغنائم فنحن نسأل
أى انتهاب انتهبه المسلمون قبل الجهاد لقد كانوا مستهدفين لكل انتهاب غير قادرين
حتى عن الدفاع عما يملكون . على أن التأمل المنصف يقتضى أن تكون بيعة العقبة
الأولى كانت قاصرة على الاتفاق على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط
والمكره وعلى التأيد والمنعة .

أما والقوم حديثو عهد بالدعوة الإسلامية التى لم تكن إلى هذا الوقت تعنى
بغير الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك — فلم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة
التشريع والتفصيل حتى يتحدث عن الحدود وكونها كفارات إلى أمثال ذلك من
التشريعات التفصيلية .

ولذا فالصحيح الذى أكدته الأدلة أن الحق مع ابن حجر وأن خصومه ليسوا
على شئ .

أول سفير في الإسلام :

وبعد أن أتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث
رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير^(١) وابن أم مكتوم^(٢) فقد روى البخارى

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب العبدري وكنيته أبو
عبد الله . كان أنعم غلام في مكة ، وأجود شبابها حلة وبهاء ، ولما جاء الإسلام كان أحد السابقين إليه فقد
أسلم والنبي ﷺ في دار الأرقم وكنم إسلامه خوفاً من أمه وقومه ؛ فلما علموا بإسلامه أوثقوه فلم يزل
محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة ثم رجع مع من رجع إلى مكة — فهاجر إلى المدينة وشهد بدرأ
ثم شهد أحدأ ومعه اللواء فاستشهد ، ولم يترك إلا ثوباً واحداً فكان إذا غطوا رأسه خبرجت رجلاه وإذا غطوا
رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ ضعوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجله شيئاً من الأذخر . فرضى الله
تعالى عنه وأرضاه . صحيح مسلم ج ٣ ص ٤٨ . كتاب الصلاة باب في كفن الميت ، الإصابة في تمييز
الصحابة للمحافظ ابن حجر العسقلاني ج ٦ ص ١٠١ ط المطبعة الشرقية ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

(٢) هو عمرو بن أم مكتوم القرشي ويقال اسمه عبد الله وعمرو أكثر وهو ابن قيس بن زائدة بن
الأصم ، ومنهم من قال عمرو بن زائدة لم يذكر قيساً ومنهم من قال قيس بدل زائدة وقال ابن حبان من قال
ابن زائدة نسبة لجده ، ويقال كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله . حكاه ابن حبان وقال ابن سعد :
أهل المدينة يقولون اسمه عبد الله وأهل العراق يقولون اسمه عمرو واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله بن
عنكة بمهمله ونون ساكنة وبعد الكاف مثله ابن عائذ بن غزوم وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين . وقد أسلم
قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين قدم المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يستخلفه على
المدينة في عام غزواته يصلى بالناس قال ابن الزبير بن بكار خرج إلى القادسية فشهد القتال واستشهد هناك =

بسنده ، أن البراء بن عازب قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس » (١) وكان الغرض من بعثتهما كما بين الحديث الشريف هو تعليم من أسلم من أهل المدينة القرآن والفقه في الدين ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام ، وكان مصعب متمسكاً في دعوته بحسن أسلوبه وجميل عرضه ومرونته .

فلم يشأ أن يعقد الأمور بل كان يطلب ممن يريد أن يدخل الإسلام ببساطة ويسر : التطهر ثم شهادة الحق ، ثم الصلاة ، إنها أمور لا تكلف أدنى مشقة ولا تحمل أدنى عناء : تطهير الجسد والثوب من أدران الجاهلية ، وتطهير النفس من رواسب الوثنية ، ثم الإقبال على الله « عز وجل » بعد ذلك بالصلاة (٢) .

وبهذا المنهج الحكيم الذي اتبعه مصعب بن عمير انتشر الإسلام في دور المدينة كلها ولم يكن بينهم حديث إلا عن الإسلام .

ويجدر بنا أن نشير إلى عدة نقاط تتضح لنا من مداورة هذه الفترة المهمة في حياة الدعوة الإسلامية :

أولاً : في عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل في مواسم الحج دليل على أنه ينبغي على الداعية ألا يقتصر في دعوة الناس إلى الخير ضمن مجالسه وفي بيته فحسب ، بل يجب عليه أن يذهب إلى كل أماكن التجمع للناس أو ما يغلب على ظنه أن الناس يتجمعون فيه ، كما أنه لا ينبغي له أن يئس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى ؛ فقد يهيب الله له أنصاراً يؤمنون بدعوته الخيرة من حيث لا يحتسب ، وقد يكون لهذه القلة التي تهتدى به في بعض المناسبات شأن كبير في انتشار دعوة الحق والخير ، وفي انتصارها النهائي على الشر وأعدائه .

وكان معه اللواء حينئذ وقيل بل رجع إلى المدينة بعد القادسية فمات بها . ذكره البغوي روى عن النبي ﷺ وحديثه في كتب السنن المرجع السابق ٢٨٤ / ٤ .

وقال العيني في « عمدة القارى » ومكتوم من الكتم سُمي به لكتان نور عينيه ج ٤ ص ٢٩٤ .

(١) البخارى كتاب بدء الخلق باب « مقدم النبي وأصحابه المدينة » .

(٢) « الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق » للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

سلسلة بجمع البحوث الإسلامية السنة الرابعة — الكتاب ٤٦ المحرم ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

ولعلنا نجد ذلك واضحاً في إيمان الستة أو الثمانية الأوائل من الأنصار الذين
التقوا برسول الله ﷺ أول مرة .

فقد أدى إيمانهم إلى تغلغل الإسلام في المدينة ، وكان لهذا التغلغل أثر في
انتشار الإسلام وسيطرته عليها ، مما مهد للمؤمنين المضطهدين في مكة أن يجدوا
في المدينة مَهَاجِراً يتمركزون فيه ، ولرسول الله ﷺ مؤثلاً أميناً يقيم فيه دولته ،
ويبث منه دعوته ، وينطلق منه أصحابه إلى مقاومة الشرك والمشركين بالحروب
والمعارك التي كانت نهايتها انتصاراً خالداً للإيمان ، وهزيمة أبدية للشرك (١) .

ثانياً : في هذه الفترة من حياة الدعوة الإسلامية رأينا كيف بدأ التحول في
طبيعة ما كان يلاقيه النبي ﷺ طيلة هذه السنوات التي مرت من عمر بعثته ﷺ
لقد أُنِيعَ الصبر وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه
ليعطى النتيجة والغلال بعد أن استمر الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة يعاني فيها
من حياة لا راحة فيها ولا استقرار ، تصب قريش فيها عليه ألواناً من الحزن
والشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزيمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه ، كما
كان يعاني فيها أيضاً من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات
والقبائل المحيطة به ، فلا يئس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز
وجل ، كما ظل يجاهد في سبيل الله ويتحمل كل المشقات في هذا السبيل ، لكي
يؤدي ثمن إقامة مجتمع إسلامي عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه
الروم وتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات .

والآن آن لنا أن نتأمل تلك الثار التي أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة
من الدعوة الإسلامية وطبيعتها وكيفية نموها :

أولاً : جاءت هذه الثار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه « عليه
الصلاة والسلام » رغم جواره معهم ، واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟ .

ذلك لأن حكمة الله الباهرة قد اقتضت أن تسير الدعوة الإسلامية في سبيل
لا تدع شكاً للمتأمل في طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الإيمان بها ، ولا يقع أى
التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى .

(٢) انظر السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعي ص ٧٠ ، ٧١ .

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وبعث في أمة أمية لم تقتبس حضارة ولم تعرف مدنية أو ثقافة معينة ، وجعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة .

ثم اقتضت حكمة الله « سبحانه وتعالى » أن يكون نصر محمد ﷺ الحاسم من غير بيئته وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن الدعوة الإسلامية كانت في حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا في الواقع من أجل المعجزات التي تكشف لنا أن يداً إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب ، كي لا توجد في أى جانب منها ثغرة لمطعن ، يقوم به مشكك أو محترف غزو فكري^(١) .

ثانياً : إن الله « سبحانه وتعالى » قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية ، وذلك بأن وفر لها ظروفها وعوامل معينة ساعدت على سرعة انتشار الإسلام بين أهلها .

فما الظروف والعوامل التي ساعدت على سرعة انتشار الإسلام في المدينة ؟ :

علمنا مما سبق ما لاقاه الرسول ﷺ وصحبه من معارضة شديدة واضطهاد وتعذيب للمسلمين وسخرية واستهزاء بالنبي ﷺ وبمن معه ، وذلك أثناء دعوته بمكة ، ورغم كل ما لاقاه هو وصحابته لم تضعف عزيمته عن تبليغ دعوة ربه ، بل ظل يدعو إلى دين الله متحملاً ما يلاقيه من متاعب ومشقات ، إلى أن هدى الله له قلوب أهل المدينة المنورة فأسلموا بهذه الدعوة السامية وعقدوا مع النبي ﷺ معاهدة العقبة .

ولكن قد يسأل سائل عن الدوافع التي دفعت أهل المدينة للدخول في الإسلام ؟

إن بعض المستشرقين الفرنسيين يدعى : بأن السبب الوحيد الذي حمل الأنصار على اعتناق الدين الإسلامي ودعوتهم له عند رجوعهم إلى المدينة هو

(١) السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعي ص ٧٠ ، ٧١ .

غيرتهم من مكة وحسدتهم على التجارة التي يحضرها الحجاج معهم إليها ، مع فقدان الصناعة من يثرب وضآلة الزراعة بها ، ولهذا كان طبعياً أن تنهات يثرب على أن تستقبل مكياً من إحدى عائلاتها النبيلة ، والذي يعتبر مؤسساً لدين جديد فيمكنه تحت هذا الستار أن ينقل المركز الديني من مكة إلى يثرب ، والذي يتبعه حتماً أن يحج إليها جميع قبائل شبه الجزيرة ومعهم تجارتهم وثرواتهم ، مما يزيد في ثروة يثرب ويضعف من دخل الأوس والخزرج .

فهل هذا الادعاء صحيح ؟ :

إن هذا الادعاء باطل ولا أساس له من الصحة .

وقد فنده الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاته في كتابه « دراسات في تاريخ العرب وصدر الإسلام » فقال :

« إن التاريخ لم يحدثنا أن الأنصار حينما بايعوا الرسول أشاروا عليه بجعل المدينة مركزاً للحج ، كما لم يتحدث المنافقون بالمدينة عن خيبة الأمل التي لاقاها الأنصار ، ولما أخفقوا في جعل المدينة قبلة لحجاج العرب أجمعين ، إذا كان ذلك مأربهم ، وقد تحدث التاريخ من قبل عن بناء أبرهة لكنيسة القليس بصنعاء ، وصرف الحجاج عن مكة إليها . كما أنه لم يفهم من حديث النبي قبل الهجرة أو بعدها أن تصبح المدينة كعبة بدلاً من كعبة مكة يحج إليها الناس فيما بعد ، بل بالعكس عمل النبي والأنصار معه على أن يحجوا إلى الكعبة بمكة ، وأيضاً فإن جميع مسلمي المدينة كانوا يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس أولاً ، وإلى الكعبة بعد ، ولم تكن المدينة يوماً ما المكان المقدس الذي سوف يتجهون إليه .

ثم يستمر الدكتور عبد الفتاح شحاته قائلاً :

« وأخيراً فإن الخزرج الستة الذين أسلموا بالعقبة الأولى ، لم يخطر ببالهم أن محمداً ﷺ سوف يهاجر إليهم حتى يصح أن يفهموا أن « المدينة » قد تصبح فيما بعد مركزاً للدين الجديد ، إذا ما تحول إليها الحجاج (١) .

(١) دراسات في تاريخ العرب وصدر الإسلام ، للدكتور عبد الفتاح شحاته ، القسم الثاني ص ٩٧ ،

ولكن هناك ظروف وعوامل ساعدت على سرعة انتشار الإسلام بالمدينة
هى :

أولاً : أن المدينة كان يسكنها الأوس والخزرج واليهود ، وكان اليهود كما
نعرف أهل علم وكتاب ، أما الأوس والخزرج فكانوا أميين لا يقرأون
ولا يكتبون ، وكانوا أهل شرك وأوثان يعبدون الأصنام كما يعبدوها سائر العرب ،
وبمجاورة عرب يثرب لليهود كانوا أقرب إلى الأديان السماوية ، وذلك لكثرة
ماسمعوا من اليهود عن الله والوحى وعن البعث والحساب وعن الجنة والنار ونحو
ذلك (١) . وربما حاورهم اليهود في شئون الأديان ، ونعوا عليهم عبادة الأوثان ،
كذلك كان أهل المدينة على اتصال بإخوانهم عرب الغساسنة المسيحيين
بجنوب الشام وهم مثلهم من أصل يمنى فعلموا منهم مثل هذه التنبؤات التى وردت
فى الإنجيل .

فكانت هذه التعاليم مع تهيئة الفرصة لهم بملاقاة النبى ﷺ حافزاً لهم على
سرعة الدخول فى الإسلام .

ثانياً : كان هناك عدااء يكاد يكون متصلاً بين العرب واليهود ، وكانوا إذا
احتدم الخلاف بينهم وانتصر العرب على اليهود قال اليهود « إن نبياً مبعوثاً الآن ،
قد أظلم زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » (٢) .

ومن الغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبى بل وناصبوه العدااء وهم
أعرف الناس بأمره ؛ ولذلك ندد القرآن بمسلكتهم المتناقض . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا
جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ — وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣)
وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

(١) المرجع السابق .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٥٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٩ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ .

أما هؤلاء العرب فقد أصبحت نفوسهم تتوق لرؤية هذا النبي الذي تخبرهم عنه اليهود ليتبعوه عسى أن تنطفىء نار العداوة المستعرة بين أوسهم وخزرجهم ، وتتوحد بفضل صفتهم ، ويلتئم شملهم وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم ، فلما ظهر النبي سارع الجميع إلى قبول دعوته .

ثالثاً : كذلك كان من أسباب مسارعة الأنصار لاتباع الرسول ﷺ والدخول في الدين الجديد أنهم لم تكن لهم فائدة تعود عليهم من التمسك بعبادة الأوثان كما كان لقريش بمكة ، ولكن هذا لا يعنى أنهم كانوا يريدون إقامة بنية وثنية أو غير وثنية تقوم مقام الكعبة ، وللكعبة من تاريخها وقداستها في نفوس العرب ما لا يتصور معه أن يفكر أحد من العرب في نقلها من مكة^(١) .

رابعاً : كانت بيئة يثرب عاملاً قوياً كذلك في سرعة انتشار الإسلام ، إذ لم يكن لقريش من الأمر والسلطان في يثرب ما كان لها في سائر العرب ، بل إن المكيين أنفسهم كانوا في حاجة إلى أهل يثرب لحماية تجارتهم في أثناء ذهابها إلى الشام وإيابها منها^(٢) .

خامساً : ويرى أحد علماء الاجتماع : « أن قوة سريان الإسلام في يثرب ليس له شبيه في تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية وأنه لا يمكن تعليله إلا أنه آية من الآيات التي تكشف عن أسرار الروح الإلهي وهو الإسلام ، وعن صحة رسالة الداعي إليه فهو معجزة خارقة للناموس الطبيعي — وفي نظره — أن كل تحليل غير هذا لا يقوى على النقد » .

ثم يقول : « وأما أنه معجزة فلأن قبيلتين صغيرتين هما الأوس والخزرج قد ألقى في روعهم هداية اجتماعية على حين فجأة وهو أمر غير معتاد ، وثانياً : لأن هذا العدد الضئيل قبل أن يضطلع بعبء حماية الدعوة ضد الأبيض والأسود أي ضد العالم كله وهي مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين ضعيفتين في الأهمية والموارد ، إن الإقدام المنطلق من هذه الجماعة غير مألوف في النواميس المعتادة ، ويعجز الإنسان عن تعليله بالعلل الطبيعية . وكذا

(١) دراسات تاريخية العرب وظهور الإسلام . للدكتور محمد مصطفى النجار . ط شركة الطباعة المتحدة الفنية ص ٢٥٥ .

(٢) دراسات تاريخية . للدكتور عبد الفتاح شحاتة ج ٢ ص ٩٩ المدي ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

لا أراه إلا آية إلهية» (١) .

وسواء أكان هذا أو ذاك فإن الأوس والخزرج قد قبلوا الإسلام . وكما أن دعوى الغيرة من مكة قد ظهر بطلانها فكذلك لا تصح دعوى أن عصبية بنى النجار أقرباء النبي ﷺ بالمدينة كانت هى الداعية لقبول دعوة الإسلام ، فإنه كان أخرى بذلك القبول لوصحت هذه الدعوى عصبية فى قريش ، وأيضاً فإن ذلك لو كان له أثر كما يفترى البعض لكان ذلك من جهة أخرى سبباً لجفول الأوس عنه وتوجههم من قبول دعوته ، أما كثرة عدد الخزرج فى بيعتى العقبة فلعله راجع إلى كثرة عدد فروع هذه القبيلة وأفرادها .

والدليل على ذلك أن أهل المدينة اختاروا قبل دخولهم فى الإسلام عبد الله بن أبى بن سلول قريب الخزرجيين أميراً على المدينة ، وكاد أن ينصب فعلاً ألا أن اتباعهم للإسلام حال دون ذلك .

وفى هذا الاختيار دليل على أن قبيلة الخزرج كانت تتمتع بكثرة العدد ؛ لأن الإمارة عند العرب لا تكون إلا من القبيلة التى تتميز بالكثرة والمنعة .

لقاء الرسول بالأنصار فى العقبة الثانية :

استطاع مصعب بن عمير أن يجمع حوله عصابة مؤمنة من أهل يثرب ، عقدت العزم على أن تلتقى برسول الله ﷺ : بمكة وتستقى منه العلم والدين مباشرة ، فخرج مصعب من المدينة ومعه سبعون (٢) من أهل يثرب — وذلك فى موسم الحج من العالم الثالث عشر من البعثة النبوية الشريفة للملاقة رسول الله

(١) الأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٠ المجلد الحادى عشر من مجلة الأزهر . نقلاً عن كتاب دراسات تاريخية . للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٢) اختلفت الروايات فى عدد الذين حضروا بيعة العقبة الثانية ؛ ففى رواية كعب بن مالك كما فى المسند أنهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . وقال الحاكم : إن الذين حضروا البيعة كانوا خمسة وسبعين نفساً وهذا عين الأول إن لم يثبت أنه كان فيهم أكثر من امرأتين ، وقيل كانوا سبعين رجلاً كما ورد فى حديث جابر الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده وقطع به الحافظ فى سيرته وقدمه مغلطاً — كما فى المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٦٧ وقال ابن سعد فى طبقاته خرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين فى تحمر — أى جماعة الأوس والخزرج وهم خمسمائة — حتى قدموا على رسول الله ﷺ مكة « الطبقات الكبرى لأبى عبد الله محمد بن سعد ١ / ٢٠٥ .

صلى الله عليه وسلم . قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة من أوسط أيام التشريق ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا (١) .

وعن كعب بن مالك : وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها قال : ثمنا تلك الليلة — ليلة العقبة — مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساءنا ، نسيية بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن ثابت إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع (٢) .

العباس يستوثق للرسول :

ولما تكامل وفد الأنصار بالشعب ، جلسوا ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأبىعوهم حتى جاءهم صلى الله عليه وسلم ومعه يومئذ عبه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له — من هؤلاء الوفد — فتكلم وقال :

يا معشر الخزرج — وكانت العرب مما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها — إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أتى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكم إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك !! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت (٣) .

(١) أخرجه أحمد « ٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ » والحاكم « ٢ / ٦٢٤ — ٦٢٥ » وقال صحيح الإسناد . وقال الحافظ ابن كثير « ٣ / ١٦٠ » من البداية والنهاية « وهذا إسناد جيد على شرط مسلم » وقال الحافظ في « الفتوح » « ١٥ / ٧٤ ، ٧٥ » رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل « ٣ / ٤٦٢ » قال ابن حجر في الفتوح ج ١٥ ص ٧٢ صححه ابن حبان .

(٣) سبق تخريجه والحكم عليه المرجع السابق .

عهد الرسول على الأنصار والمبايعة :

تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله « عز وجل » ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايحكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزربنا^(١) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة^(٢) ، ورثناها كباراً عن كبار^(٣) .

اعتراض أبي الهيثم بن التيهان :

وكان أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الأشهل ممن حضر القول فاعترض كلام البراء بن معرور وقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً^(٤) وإنا قاطعوها — يعنى العهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرت الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم^(٥) الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

مقولة العباس بن عباد بن نضلة :

وعندما هم القوم بالبيعة اعترضهم العباس بن عباد بن نضلة الأنصارى — أخو بنى سالم بن عوف — قائلاً : يا معشر الخرج ، هل تدرون علام

(١) أزربنا : أن نساءنا وأهلنا كنى عنهن بالأزرب وقيل أراد أنفسنا وقد يكتفى عن النفس بالإزار النهاية ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الحلقة . يسكون اللام السلاح عامة وقيل هى الدروع خاصة النهاية ١ / ٢٥١ .

(٣) حديث كعب السابق .

(٤) حباً : الحبال هى العهود والمواثيق — النهاية ١ / ١٩٧ .

(٥) بل الدم الدم ، والهدم الهدم يروى يسكون الدال وفتحها فالهدم بالتحريك القبر يعنى إلى أقبر حيث تقبرون وقيل هو المنزل أى منزلكم منزل كحديثه الآخر الحيا محياكم والممات مماتكم أى لا أفارقكم . والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً هو إهدار دم القتل . يقال دماؤهم بينهم هدم أى مهجرة ، والمعنى إن طلب دمكم فقد طلب دمي وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي لاستحكام الألفة بيننا وهو معروف للعرب يقولون دمي دمك وهذمي هذمك وذلك عند المعاهدة والنصرة « النهاية ٤ / ٢٤٢ / ٢٤٣ » .

تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن : فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ .

قال عليه الصلاة والسلام : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم بن عمر بن قتادة : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشهد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم .

وأما عبد الله بن أبي بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة ، رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم . فالله أعلم أى ذلك كان (١) .

مقالة أسعد بن زرارة :

وعندما قام القوم ليبايعوا رسول الله ﷺ أخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو من أصغرهم — وقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وإن إخراجنا اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف .

فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وأما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينه فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله ! .

قالوا أمط عنايا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلها أبداً ، قال جابر راوى الحديث : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا الجنة (٢) .

(١) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٦٢ سبق الحكم عليه .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ ، والحاكم ٢ / ٦٢٤ — ٦٢٥ وسبق الحكم عليه

أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ :

اختلف الرواة في أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ لمبايعته ؛ فقد روى الإمام أحمد عن معبد بن كعب عن أخيه عن أبيه كعب بن مالك قال : « أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم تتابع القوم (١) .

وكذلك روى ابن إسحاق أيضاً أن البراء أول من بايع ثم بايع القوم (٢) .

وابن سعد في طبقاته روى عن سليمان بن نجم قال : تفاخرت الأوس والخزرج فيمن ضرب على يد رسول الله ﷺ ليلة العقبة أول الناس فقالوا :

لا أحد أعلم بهذا من العباس بن عبد المطلب فسألوه فقال : ما أحد أعلم بهذا مني ، أول من ضرب على يده ﷺ ، تلك الليلة ، أسعد بن زرارة ، ثم البراء بن معرور ثم أسيد بن الحضير (٣) .

وكذلك قال ابن إسحاق في رواية أخرى إن بنى النجار يزعمون أن أبا أمانة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده .

وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان (٤) .

وابن الأثير روى أن بنى سلمة يزعمون أن أول من بايعه ﷺ ليلته — كعب بن مالك (٥) .

أسماء النقباء الاثني عشر :

وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من بيعتهم جميعاً « رضوان الله عليهم » ، طلب منهم أن يخرجوا من بينهم اثني عشر نقيباً (٦) قائلاً لهم :

(١) الحديث السابق .

(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٧ .

(٣) شرح المواهب ١ / ٣٦٧ .

(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٧ .

(٥) النهاية ٣ / ١٦٣ .

(٦) النقيب هو كالعرف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم أى يفتش ، وكان النبي ﷺ قد جعل ليلة العقبة لكل جماعة من الذين بايعوه بها نقيباً على قومه وجماعته ليأخذوا عليهم الإسلام ويعرفوهم شرائطه ، وكانوا اثني عشر نقيباً كلهم من الأنصار وكان عبادة بن الصامت منهم — النهاية ٤ / ١٦٨ .

« أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ، يكونون على قومهم ، فأخرجوا منهم
اثني عشر نقيباً ، منهم تسعة من الخزرج وهم :

- ١ — أبو أمانة أسعد بن زرارة .
- ٢ — وسعد بن الربيع .
- ٣ — وعبد الله بن رواحة .
- ٤ — ورافع بن مالك .
- ٥ — والبراء بن معرور .
- ٦ — وعبد الله بن عمرو بن حرام .
- ٧ — وعبادة بن الصامت .
- ٨ — وسعد بن عباد .
- ٩ — والمنذر بن عمرو بن خنيس .

وثلاثة من الأوس وهم :

- ١٠ — أسيد بن حضير .
- ١١ — وسعد بن خيثمة بن الحارث .
- ١٢ — ورفاعة بن المنذر^(١) .

قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون
رفاعة . واستشهد على ذلك بقصيدة كعب بن مالك في النقباء فإنه ذكر فيهم « أبا
الهيثم ، ولم يذكر رفاعة . » وهو كذلك في رواية يونس عن ابن إسحاق .
واختاره السهيلي وابن الأثير^(٢) .

صرخات الشيطان لإخبار أهل مكة بالبيعة :

تمت بيعة العقبة بما فيها من أحداث في جوف الليل في شعب العقبة والقوم
على ثقة من أنه لا يطلع عليهم أحد إلا الله ، لكنهم ما كادوا يتمونها حتى سمعوا

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٤٦٢ . « سبق الحكم عليه » .

(٢) البداية والنهاية ٣ / ١٦١ .

صوتاً يصيح بقريش من رأى العقبة قائلاً لهم: يا أهل الجباب (١) — والجباب المنازل — هل لكم في مُدَمِّم (٢) والصبابة (٣) معه ، قد أجمعوا على حربكم ، قال على يعنى ابن إسحاق — ما يقول عدو الله ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أذب (٤) العقبة ، هذا ابن أذيب ، اسمع أى عدو الله والله لأفرغن لك . ثم قال رسول الله ﷺ : ارفضوا (٥) إلى رحالكم . فقال العباس بن عباد بن نضلة ، والذي بعثك بالحق لئن شئت لتملين على أهل منى غداً بأسيفنا فقال رسول الله ﷺ : لم أومر بذلك ، فرجع القوم إلى رحالهم (٦) .

موقف قريش من العقبة :

بلغ الخبر لقريش ، ففزعوا لذلك فزعاً شديداً ، وفي الصباح غدت جلة من قريش حتى جاءوا منازل الخزرج ، فقالوا لهم :

يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، والله إنه ما من العرب أحد أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم ، فانبعثت من هنالك من مشركى يثرب يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء ، وما علموه ، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموه .

وأما المسلمون فجعل بعضهم ينظر إلى بعض (٧) .

(١) الجَبَاب : هى جمع جيبب بالضم وهو المستوى من الأرض ليس بخزن ، وهى ها هنا أسماء منازل بنى ، سميت به قيل ، لأن كروش الأضاحى تلقى فيها أيام الحج ، والجَبَبَجَبَة الكرش يُجَعَل فيها اللحم يُتَزَوَّد فى الأسفار — النهاية ١ / ١٤١ .

(٢) المذمم : بدال معجمة المذموم جداً ، وأرادت قريش عكس اسم النبى ﷺ فكانوا يقولون عوض محمد : مذمم بوزنه وعكس معناه ، وكذبوا بل محمد من كثرة خصاله الحمودة وكذلك كان النبى ﷺ وهو اسم صادق على مسماه .

(٣) الصبابة : بضم الصاد المهملة هو جمع صابىء وهو الخارج من دين إلى دين غيره من قولهم صباناب البعير إذا طلع وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها ، وكانت العرب تسمى النبى ﷺ الصابىء لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام — النهاية ٢ / ٢٤٨ .

(٤) أذب العقبة : هو شيطان اسمه أذب العقبة النهاية ١ / ٢٨ .

(٥) ارفضوا إلى رحالكم : أى تفرقوا — النهاية ٢ / ٩٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٦٢ قال ابن حجر فى الفتح صححه ابن حبان ج ١٥ ص ٧٢ فتح البارى وقال الهيثمى فى المجمع ج ٦ ص ٤٥ رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق . وقد صرح بالسماع .

(٧) المرجع السابق .

وقففة مع أحداث هذه البيعة :

أولاً : إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتفشت في كل كلمة قيلت وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملى العهود كلا ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغامم الموهومة .

مغامم ؟ أين موضع المغامم في هذه البيعة ؟ لقد قام الأمر على التجرد المحض والبذل الخالص .

هذه الفئة المؤمنة من الأنصار مثل لانتشار الإسلام ، عن طريق الفكر الحر والافتناع الخالص . فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . وملبين داعى التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبي ، كانت لمحة عابرة . غبرت عليها الأيام . وكان الظن بها أن نزول .

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة ، إنه القرآن !! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلأا لماماً ، فإن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية .

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن . سال على السنة الحفاظ ، وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة . والقرآن النازل بمكة . صور جزاء الآخرة رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك . تقطف من أثمار الجنة ، انظر لقول الحق « تبارك وتعالى » في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةَ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَائِمَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (١) .

فهذه الآيات نزلت في مكة تصور الثواب في الآخرة للناس حتى كأنهم يرونها من الأعمال الصالحة حتى يستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم .

(١) سورة الحاقة آيات ١٩ : ٢٤ .

وكذلك حكى القرآن أخبار الأولين . وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم وكيف طغى الكفار . وأسكروهم الإسهال فتعنتوا وتجبروا حتى حل بهم العدل الإلهي . فذهب الظالمون بدداً . وتركوا وراءهم دنيا مدبرة . ودورا خربة . انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ . قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ . قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ أَنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَّنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ . وَيَأْقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِئِينَ . كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿١﴾ .

فقد كشفت الآيات عن المصير المؤلم الذي انتهى إليه أمر الكفار المعاندين والهلاك الذي نزل بهم بما فيه من عبرة وعظة تهدد كل من يقفون محاربين لدعوة الله ومعادين لرسوله . مما كان له أكبر الأثر في إسراع الأنصار إلى الاستجابة طمعاً في رضا الله . وخوفاً من عقابه فقد رأوا نهاية الظالمين وكيف أحاط بهم عذاب الله .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم

ثم إن الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة — يحنو عليه — ويتعصب له . ويغضب من ظالمه . ويقاتل دونه — وذلك ما استقدم الأنصار من

(١) سورة هود آيات : ٦١ : ٦٨ .

يثرب تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله .

عن أبي مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن الله عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله . فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ « فقال يا نبي الله : ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ! . انعتهم لنا — يعنى صفهم لنا — فسر وجه النبي ﷺ لسؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل . لم تصل بينهم أرحام متقاربة . تحابوا في الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيبها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونهم بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتى شغلهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص .

حسنت ظنونك بالأيام إذ حسنت ولم تخف بسوء ما يأتي به القدر
وسألتك الليالي فاغتثرت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أجل ، ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية وأن ينتهوا بالجاهلية إلى الفناء (٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ٣٤٣ والحاكم في المستدرک ٤ / ١٧٠ ط المطبعة الحديثة قال المنذرى ٤ « ٤٨ » : رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، والحاكم قال : صحيح الإسناد وهو عند الحاكم عن ابن عمر وقال : هو صحيح الإسناد .
(٢) فقه السيرة للغزالي من ص ١٦١ إلى ص ١٦٣ بتصرف .

ثانياً : إن هذه البيعة تدل دلالة واضحة على صدق محمد ﷺ وإخلاصه ، ولو قارنا بينها وبين من يضعون المعاهدات السياسية لوجدنا أن المعاهدات السياسية ترتكن إلى حقوق ذاتية تكون أجراً مادياً مكافئاً للتعاون والتناصر فتفسح مجال الإغراء بما تبسط من وعود وتزلف من أحلام ، وأن كلا الفريقين ليتربقبا الخير العاجل لنفسه سائراً إليه على بساط من التمويه والتضليل ! أما محمد فلا يعد بشيء دنيوى ولا يتحمل حقوقاً خاصة لفريق خاص ! وهنا يشع جوهره الصادق كاشفاً عن منبع اليقين فى ذات نفسه ، ولو كان — حاشا لله — إنساناً وصولياً ، لانتهر الفرصة السانحة مع أهل المدينة بعد أن جافاه القريب والبعيد ولامتد ببساط الآمال مع حلفائه إلى حد يجعلهم وحدهم أصحاب حق أكيد فى السيطرة والرياسة تلزمه المعاهدة وتقوم عليه المبايعة ! ولكنه قبل كل شيء رسول الإنسانية الصادق ، وصاحب الخلق العظيم ، وقد نهض برسالة تقوم على المساواة العادلة ! ومن مبادئها الرفيعة ألا يخص بالجاه النافذ فريقاً دون فريق ، لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (١).

ثالثاً : جاءت بيعة العقبة الأولى بعد اللقاء الأول بين النبى ﷺ والخزرج وبهم انتقل الإسلام إلى يثرب التى أعدها الله « سبحانه وتعالى » لتكون المدينة الفاضلة مدينة الرسول ﷺ ، وقام هذا الوفد بتبليغ رسالة الله « سبحانه وتعالى » فى هذه المدينة دون خوف أو خشية من أحد سوى الله « سبحانه وتعالى » وكفى به حسيباً . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٢) أى إن الذين يبلغون رسالة الله إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ويخافونه تعالى فى كل ما يأتون ويذرون ، ولا سيما فى أمر تبليغ الرسالة ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى لأن الله « سبحانه وتعالى » كاف لهم بالنصر والإعانة (٣).

وكان هؤلاء الأنصار يؤمنون إيماناً صادقاً بهذه المعاني حتى استطاعوا أن

(١) معارك الإسلام فى العصر النبوى . للدكتور محمد رجب البيومى ص ٩ . ط أولى بمطبعة السعادة

بالقاهرة ط ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٤٩٢ بتصرف .

بمهدوا مع معلمهم الأول مصعب بن عمير لبيعة العقبة الثانية بعد أن فشا الإسلام بينهم ، وكانت هذه البيعة الثانية تمهيداً لانتقال الرسول والمسلمين إلى المدينة المنورة بالهجرة . ويظهر أن بيعة العقبة هذه كانت في آخر موسم حضره النبي ﷺ بمكة المكرمة ، وأما العقبة الأولى فكانت في الموسم الذي قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالإيواء والنصرة .

ويظهر أن خبر اتصال النبي ﷺ كان يتسرب إلى القرشيين ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم . إذا رأوا أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة إلى التوحيد من بين ظهرانيهم إلى العرب ، وأنهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم .

وقد رأينا فيما مضى كيف كان المشركون يتعقبون الرسول ﷺ في مواسم الحج وغيرها لكي يحولوا بينه وبين تبليغه لدعوة ربه .

لذلك عندما جاء مصعب بن عمير من المدينة « يثرب » هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الأوس والخزرج ، قد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنيتهن ، ولم يدوقوا بعد بشاشة الإسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبي بن سلول الذي أكله بغض الإسلام والمسلمين حتى صار رأس النفاق في المدينة المنورة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويثبها ، ويثيرها حيثما وجد إلى ذلك سبيلاً .

ولقد أخذ النبي ﷺ حذره من ناحيتين :

أولاهما : من ناحية قريش الذين حسبوا أن أمراً يدبر من ورائهم ، ولقد كانت عيونهم تبت من حوله .

ثانيتهما : من ناحية أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله ﷺ فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش وفريق المشركين الذين صحبوا وفد الإيمان .

ولهذا لم يلتق بهم في أول حضورهم لأخذ البيعة عليهم ، بل ضرب لهم

موعداً في أيام منى^(١) عند العقبة في جوف الليل في أواسط أيام التشريق وطلب إليهم أن يتكتموا الأمر .. حتى لا تحبط الخطة !! ولقد وفي الأنصار لذلك أشد وفاء ، فكتموا الأمر حتى على المشركين من أهلهم الذين جاءوا معهم^(٢) .

رابعاً : في مقالة العباس عم الرسول ﷺ الموجهة لمن بايعوا النبي من أهل يثرب والتي تحمل بعض التحذيرات لأولئك نفر من أن يسلموا النبي ﷺ في أجل أمرهم . هذه المقالة مما تجرى به العادة حين يروم القريب أن يأخذ الحذر لقريبه من قوم هم حديثو عهد بمخالطتهم . فأما قوله لشهود البيعة من أهل يثرب عن الرسول ﷺ « وهو في عز من قومه ومنعة من بلده » فلعل ذلك مما أملت عليه الحمية العربية أو عصبية القرابة وإلا فهذا القول من العباس معاكس للوضع الذي كان عليه الرسول ﷺ ومن تابعه بين قومهم إلا أن يكون العباس بن عبد المطلب قد أراد بالمنعة منعة العنصر والنسب لا منعته أو مؤازرته فيما كان يدعو إليه^(٣) .

وأما قوله « وقد أئى إلا الانحياز إليكم والالحوق بكم » أى قد أئى محمد الناس كلهم غيركم ربما يفيد أن الناس غير الأنصار وافقوه على مناصرته فأباهم ، ولا يساعد على ذلك ما تقدم من إعراض القبائل عنه ولكن يحتمل أن يكون المراد بالناس الذين أباهم محمد ﷺ أهله وعشيرته ، والله أعلم^(٤) .

خامساً : في قول رسول الله ﷺ للوفد وتمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . له مغزى ومعنى .

وهو أن للنساء لدى العرب حرمان يذلون من أجل صيانتها والذود عنها دماءهم ، لأدنى مساس بها^(٥) .

(١) خاتم النبیین للشیخ محمد أبوزهرة ١ / ٤٩٨ / ٤٩٩ . بتصرف .

(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٤٨٩ .

(٣) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن / ١٢٥ ، ١٢٦ ط دار المطبوعات

الدولية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

(٤) إنسان العيون المعروف بالسيرة الحلبية لعلی بن برهان الدین الحلبي ٢ / ١٨ .

(٥) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للدكتور محمد عبد الله السمان ص ١٩٦ .

سادساً : في قول البراء بن معرور لرسول الله ﷺ والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابراً عن كابر . نقول : إن هذا القول يحمل الإخلاص لله والوفاء للحق والفناء في الدعوة ما لا يمكن وصفه بالكلمات ، فقد أبدى هذا الصحابي الجليل استعداداً كريماً للتضحية والذود عن رسول الله ، ووضع كفاءته القتالية هو وقومه في خدمة الدعوة والداعية . وكانت هذه الكلمات أيضاً صريحة مضيئة ليس فيها التواء المعاهدات السياسية ، ولا مناورات الأحلاف المشبوهة ، ومن ثم بقيت تلك الكلمات نصوصاً حية معبرة لأسمى المعاهدات التاريخية تقرأ فيها الأجيال الحديثة معنى صدق الكلمة وشرفها والوفاء لها^(١) لكي يلتزموا بذلك في حياتهم تجاه دينهم ودعوتهم فيستطيعوا بذلك تحقيق هدفهم الأسمى ألا وهو تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة ؛ وبذلك يكونون قد قاموا برسالتهم كاملة في هذه الحياة .

سابعاً : في قول أبي الهيثم بن التيهان لرسول الله ﷺ يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

نقول في قول أبي الهيثم هذا صدق في الحديث وحرية في الرأي وجرأة منه « رضوان الله عليه » في مواجهة رسول الله ﷺ ، فهو يقول لرسول الله ﷺ : وبعد أن ضمننت وفاءنا لك بما تعاهدنا عليه نريد أن نضمن نحن أيضاً وفاءك لنا أم أنك سوف تنتصر بنا ثم بعد ذلك تتركنا لليهود .

إنه كلام في منتهى الصدق والصراحة ؛ لأن هذا الصحابي الجليل أراد أن يحتاط لنفسه ولقومه وأراد أن يشترط كذلك لنفسه ولقومه كما اشترط رسول الله ﷺ لربه ولنفسه .

وفي تبسم الرسول وقوله لهم بل الدم الدم ، الهدم الهدم إلخ فهذا أيسر ما يطمئن به أولئك المبايعون على مصيرهم ، وأيسر ما يسدى إليهم من معروف على

(١) أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ بتصرف .

الجميل الذى أسدوه إليه حين حالفوه على السمع والطاعة وأن يمنعوه من كل المتربصين به ، كما كان هذا القول الكريم منه ﷺ رداً على ما قالوه من أن بينهم وبين اليهود جبلاً هم قاطعوها . وعلى ما أبدوه من حذر وتخوف فى قولهم « فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » (١) .

ثامناً : قد يتعلق فى بعض الأذهان شبهة خلاصتها أن أهل يثرب قد وقر فى أذهانهم أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على حرب قريش والنيل منهم ، وأن ذلك كان أبرز بنود هذه البيعة لما جاء فى ثانيا تحاورهم مع رسول الله ﷺ : من مثل قولهم على لسان العباس بن عباد « أتعلمون علام تباعون هذا الرجل ؟ إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس » .

وقد تتضخم هذه الشبهة حتى تخيل لبعض الأذهان أن الرسول ﷺ قد اعتزم قتال قريش ومن على شاكلتهم منذ اللحظة الأولى لالتماسه النصرة بين أهل يثرب وأن أهل يثرب قد فهموا ذلك منه .

ومن ثم صارح بعضهم بعضاً بما قد يستقبلونه من أمرهم مع ذلك النبى الذى دخلوا فى دينه ، وقد تنمو هذه الشبهة فى ذهن من وفدت على ذهنه مع ما اتصل بها من شوائب وتصورات خاطئة حتى تفضى بمتوهمها إلى ما تردد على ألسنة خصوم الإسلام من أن الإسلام لم يعرف طريقه إلى أقطار الأرض وتبعاً لذلك لم يعرف طريقه إلى كثير من القلوب إلا عن طريق الاستنصار بالسيف وإعلان النفير العام للحرب .

يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن فى كتابه فصول من السيرة النبوية « رداً على هذه الشبهة من منبتها :

إن هذا القول الصادر من أنصار يثرب يرد فى منشئه إلى توقعات القوم وهيئاتهم التى كانوا عليها مع جيرانهم من اليهود .

فغلب على ظنهم أنهم لا بد خائضون حرباً مع الرسول ﷺ فى مواجهة قومه ولهم العذر فى ذلك .

(١) فصول من السيرة النبوية للدكتور عبد المنعم السيد حسن ج ١ ص ١٢٨ .

فتلك كانت طبيعة الأحلاف الملتزمة يومئذ خصوصاً إذا أخذنا في اعتبارنا توعد اليهود لهم بمبعث النبي ﷺ ، واعتزامهم الانضمام إليه ليقتلوا الأوس والخزرج معه كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

يضاف إلى ذلك أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام الذي يقضى بطبيعة رسالته بإحلال الوفاق محل الشقاق ، فلم يكن ذلك قد تغلغل بعد في نفوسهم .

كما أن من شأن المعاهدات أن يؤكد فيها المتعاهدون نصر بعضهم بعضاً على كل ما يجد لهم من أحداث مرتقبة أو غير مرتقبة .

فأما الرسول ﷺ فلم يكن يدور بخلده يومئذ فيما نحسب أن يجندهم لقتال لم يحن حينه بدليل أنه قال لهم : « لم نؤمر بذلك » يعنى القتال حين قالوا له لو شئت لتميلن على أهل منى غدا بأسيا فانا .

وغاية ما كان ﷺ ينشده من وراء ذلك الحلف الذى تم بينه وبين جماعة من أهل يثرب أنه كان يبغي جمع أكبر عدد ممكن أو متاح على الحق الذى بعث به .

ومما يؤيد ما قلناه أنه ﷺ عرض نفسه ودعوته على أهل ثقيف بالطائف وغيرهما عسى أن يجد من بينهم من ينضوى تحت لواء دينه ، ولم يكن يخالج خاطره وقلبه أن يقاتل أهل مكة بمن قد يدخلون في دينه من هذه القبائل (١) .

تاسعاً : أما عن النقباء الاثنى عشر فنقول

كل نظام جديد يراد له النجاح لا بد له من تخطيط ، وتنظيم ومتابعة وبدون ذلك لا يمكن أن ينجح ، فقد تكون المبادئ صالحة ، ولكن ما قيمتها إذا لم تلتزم ؟ .

لا بد إذن من عمل تنظيمى دقيق — يقوم على تخطيط واع — يسهر على تطبيقه جماعة تكون مسئولة عن التنفيذ والالتزام !! وإذا كان هذا هو قمة ما توصل إليه العصر الحديث فإن الرسول ﷺ قد مارس هذا التخطيط بكل أبعاده . التى تكفل له التطبيق الصحيح مند بيعة العقبة الأولى . فقد برز فيها عنصر التنظيم

(١) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن ص ١٢٦ : ١٢٨ .

الرائع متمثلاً في التزام الجماعة ، وتحديد دورها ثم إقامة النقباء في البيعة الثانية . ولعل ما ساد البيعة من فهم حر ، ونقاش مشمر ، قد أرسى قواعد التطبيق على أسس سليمة لا غموض فيها ولا لبس !! .

إننا نجد أنفسنا في هذه البيعة أمام عمل تنظمي سابق لعصره ، فالرسول لا يكتفى بالمبايعة ووضوح المبادئ وإنما يقسم من حضر البيعة إلى أسر صغيرة ، ويجعل على كل مجموعة من هذه المجموعات الصغيرة نقيباً يتولى الإشراف على التنفيذ ، ومراقبة الالتزام ، وصحة التطبيق ودقة المتابعة ويكون مسئولاً مسئولية تامة عن جماعته (١) .

و الملاحظ أن الرسول ﷺ هو الذي طلب من القوم أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً ، كان له — وحسب — تحديد عدد النقباء ، لكنه ترك للقوم أن يختاروهم بأنفسهم وينتخبوهم من بينهم ، وذلك لأنهم أدري برجالهم ، ولو أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو الذي عين أولئك النقباء الاثني عشر ، لما وسع القوم إلا السمع والطاعة والنزول على رغبته ، لكن بعد نظره ، لم يقم بهذه المهمة وتركها لهم ، فهو أولاً حديث عهد برجالهم ، وثانياً ليضع قاعدة سليمة من قواعد التنظيم السياسي ، قاعدة تعتبر من أرق قواعد التنظيم السياسي ، كالقيادات الشعبية لا تفرض على الشعب فرضاً ، وإنما يختارها الشعب بنفسه عن رضا وإرادة حرة ... وكان هذا العمل بداية للتمرس على التنظيم السياسي ، وتمهيداً لتنظيم أشمل .. للدولة الإسلامية .. في يثرب (٢) .. وقد روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال للنقباء بعد اختيارهم : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي .

كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

إنها مهمة تنظيمية من الطراز الأول . مهمة حماية ورعاية وإشراف ، تضع كل جماعة مع كفيل أو نقيب يكون مسئولاً عنها أمام نقيب النقباء ، وإن شئت

(١) أضواء على الهجرة . لتوفيق محمد سبع ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ . بتصرف .

(٢) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق . للدكتور محمد عبد الله السبان ص ١٩٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ٥٢ .

فقل أمام النقيب العام وهو الرسول الكريم الذى يأخذ دور المسئول العام عن المسلمين ، أليس يأسرك هذا التنظيم ويأخذ بلبك ؟ كذلك برزت الجماعة الأولى للإسلام !! (١) .

وقديما مارس سيدنا موسى « عليه الصلاة والسلام » تلك المهمة فى بنى إسرائيل ، حيث اتخذ اثنتى عشر نقيباً أيضاً ليكونوا كفلاء على قومهم بالوفاء لله تعالى بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به ونهاهم عنه (٢) قال تعالى مبيناً ذلك : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ (٣) .

عاشرا : بهذه البيعة المباركة تغير سير الدعوة الإسلامية وتطورت بعدها الحوادث تطوراً سريعاً بين المسلمين وقريش .

فالمسلمون انفتحت أمامهم أبواب من الآمال واسعة ، ، وأحسوا بعدها بما يحس به المكروب الذى وجد الفرج بعد الضيق ، والأمل بعد اليأس . والأمن بعد الخوف ، فأخذ يتنفس بملء رئتيه تنفس الراحة والطمأنينة . فقد قضوا فى مكة ثلاثة عشر عاماً وهم قليل مستضعفون فى الأرض ، يذوقون ألوان العذاب والاضطهاد ، ويمتحنون فى إيمانهم أشد الامتحان ، فقتل منهم من قتل ، وفتن منهم من فتن ، وصبر منهم من صبر ، وفر بدينه من فر ، حتى أصبحوا واليأس يكاد يغلبهم على أمرهم لولا أن عصم الله قلوبهم بالإيمان ، وأيدهم بروح منه . فلما تمت هذه البيعة بين رسول الله والأنصار ملأ الأمل قلوبهم ، وأيقنوا أن نصر الله قريب ، فجعلوا يتسابقون فى الهجرة إلى يثرب ، فارين بدينهم إلى الله ، مضحين بكل ما يحرص عليه الناس من عرض الحياة الدنيا .

وأما قريش فقد أخذت أخذاً بهذه البيعة ، وفوجئت بما لم يكن لها فى حسابان ، فقد ظنت قريش أنها قد سيطرت على الموقف من جميع نواحيه ، وأنها استطاعت أن تجبس الدعوة بين جبال مكة ، وأن تؤثر على قلوب العرب فتحول بينهم وبينها إلى الأبد . كما ظنت أنها بما كان لها من المهابة بين العرب ، قد أمنت أن يعتدى على حرمتها أحد ، أو يقف منها أحد موقف التحدى والعداوة بمنصرة هذه

(١) أضواء على الهجرة ص ٣٠٧ .

(٢) الألوسى ج ٦ ص ٨٥ ، ٨٦ بتصرف .

(٣) سورة المائدة آية ١٢ .

الدعوة ، وعلى أساس هذا الظن أمنوا واطمأنوا ، وأيقنوا أن العرب جميعاً لن يؤمنوا بهذه الدعوة ، ولن يؤيدوا صاحبها بالمنعة والمؤازرة ، فلما علموا بأن الأوس والخزرج من أهل المدينة ، قد تابعوا محمداً ، وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه .. صدموا بهذا النبأ صدمة عنيفة ، وزلزلوا زلزالاً شديداً وطاشت أحلامهم ، واضطرب تفكيرهم ، وانقلبوا يلاحقون الأنصار في كل طريق ، ويطلبونهم في كل وجه ، يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البيعة الخطيرة (١) التي أوجدت لدعوة الرسول مأوى في يثرب ، فظهر غضبهم في تتبع القوم وفي الأذى الذي أنزلوه بسعد بن عباد وهو الذي أدركوه من أهل البيعة فقط ، أما غيره فقد اجتازوا الطريق ورحلوا ، قبل أن يصل مشركو مكة إليهم ، ولو أدركوهم فوق السبعين لا يعلم إلا الله تعالى كيف تكون العاقبة . ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الإسلام ولو قليلة وقوة الشرك ، وإن كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف أوشك على نهايته . والله ولي الصابرين (٢)

حادى عشر : ولقد كانت هذه البيعة حداً فاصلاً بين عهدين من عهود الدعوة .. كان أولها عهد ابتلاء واختبار وهو العهد المكى الذى عاش المسلمون فيه قلة مستضعفين بين عدو قاهر جبار ، يسومهم سوء العذاب ، ويذيقهم من صنوف الأذى ما لا يمكن أن يطاق ، ولا أن يحتمله بشر من الناس ، إلا أن يكون له مدد قوى من الإيمان الصادق واليقين الثابت . وكأما كان ذلك امتحاناً من الله لهم ، أراد به تمحيصهم ، وإعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة .

* * *

(١) صور من حياة الرسول لأمين دويدار ص ٢٢٦ ، ٢٣٠ بتصرف .

(٢) خاتم النبیین للشيخ محمد أبو زهرة ج ١ ص ٥٠٤ .

الفصل الثانى

تنفيذ الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ورجع الأنصار إلى المدينة ، قاموا بنشر الدعوة الإسلامية فيها على أوسع نطاق حتى انتشر الإسلام بين أهل المدينة انتشاراً لم يكن يتوقعه أحد ، وبذلك أصبح للمسلمين إخوان مؤمنون صادقون فى دار أمن وإيمان ، وإسلام وسلام ، وهى المدينة .

وقد آلم المشركين وقض مضاجعهم انتشار الإسلام بالمدينة هذا الانتشار السريع فأوغلوا فى إيذاء المسلمين ونالوا منهم غاية النيل ، وضيقوا عليهم السبل والمسالك^(١) وبلغوا فى ذلك حداً لا يمكن معه البقاء .

وما قيمة البقاء فى بلد يفتن فيه المرء ويضرب ويهان بالغداة والعشى ، ولا يتمكن فيه من عبادة ربه وإقامة شعائر دينه ؟ .

وإنه ليغدو ويروح بين حياة وثنية وقوم غلاظ قساة لا يجدى معهم إنذار ولا وعيد^(٢) ، لأن الله « سبحانه وتعالى » قد أحدث فى نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم ، وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ولهم بذلك عذاب عظيم ، لا يساويه أى عذاب . قال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَّذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣) .

(١) السير النبوية فى ضوء القرآن والسنة للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة ج ١ ص ٤٧٦ .

(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٣١٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٦ ، ٧ .

لهذا كان من الحكمة أن يفر المسلمون بدينهم إلى ربهم ، إلى حيث الأفق الصافي ، والأرض الطيبة ، والبيئة الخصبة النقية التي تجاوبت مع الإسلام منذ سمعته . وتكونت من أهلها طلائع كريمة ، تبذل أرواحها في سماحة ويسر ، من أجل مستقبل هذه الدعوة ، حتى أصبحت جديرة بأن تكون مركزاً لانتشارها .

الرسول يأذن لأصحابه بالهجرة :

لما كان أمر المسلمين في مكة على الوجه الذى وصفنا أذن الله « سبحانه وتعالى » لنبيه ﷺ أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة^(١) . في قرآنه قال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾^(٢) .

هذه الآية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، لأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحى عباده ، أى إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة ، لإظهار التوحيد بها^(٣) .

(ب) وبإيحائه إليه في المنام :

فقد رأى ﷺ فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب ظنه إلى أنها اليمامة أو هجر^(٤) ثم استبان له بعد ذلك أنها المدينة ؛ فقد روى البخارى بسنده أن النبي ﷺ قال :

« رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى^(٥) ، إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب »^(٥) .

عند ذلك أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة فوافق ذلك هوى في نفوسهم ، فخرجوا إليها أرسالاً وفرادى منهم من خرج مستعلناً كالفاروق عمر بن

(١) سورة العنكبوت آية ٥٦ .

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٦ ص ٥٠٧٣ .

(٣) اليمامة بلد بنجد بالجزيرة ، وهجر بلد بالبحرين وهى من بلاد عبد القيس ، وقد سبقوا غيرهم من

القرى إلى الإسلام فتح البارى ١٥ / ٧٩ .

(٤) وهلى : وهل الشيء بالفتح يهل بالكسر وهلاً بالسكون إذا ذهب وهماً إليه . النهاية ٤ / ٢٣٤ .

(٥) البخارى كتاب المبعث النبوى باب هجرة النبي وصحابته للمدينة .

الخطاب « رضى الله عنه » ، ومن صحبه وأبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، ومنهم من خرج مستخفياً وهم الضعفاء ، والموالى كصهيب الرومى ، ورجع الكثيرون ممن هاجر للحبشة إلى مكة ، ثم هاجروا منها إلى المدينة .

أول مهاجر إلى المدينة :

وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ سيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد^(١) ، وذلك قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قد عاد من الحبشة إلى مكة ، فأذاه أهلها ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، وإذن النبى لأصحابه بالمهجرة إلى المدينة فتوجه إليها مهاجراً ومعه زوجته أم سلمة وابنتها سلمة وخرج يقود بهما بعيره ؛ فلما رآته رجال من بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم — هم عشيرة زوجته وابنة عمه أم سلمة — قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك قد غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده ، وانتزعوها منه فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد — رهط أبى سلمة — فقالوا : والله لا نترك ابنتنا عندها إن نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا « سلمة » فيما بينهم حتى خلعت يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم ، وفرقوا بينها وبين زوجها وولدها ، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً ، ولم يلو على أهل ، ولا ولد ، ولا مال حتى وصل إلى قباء فأقام بها حتى وصلت إليه زوجته بعد عام .

أم سلمة :

أما أم سلمة فكانت تخرج كل غداة ، فتجلس على الأبطح ، فما تزال تبكى ، حتى تمسى : واستمرت على ذلك سنة أو قرياً منها حتى مر بها رجل من بنى عمها ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بها . فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، واسمه عبد الله وهو أخو رسول الله ﷺ من الرضاع ، أرضعتها ثوية جارية أبى لهب ، وابن عمته برة بنت عبد المطلب وهو من السابقين الأولين ، ومن خيار المسلمين ، استشهد بعد أحد فى أوائل السنة الرابعة للهجرة انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ج ٣ ص ٩٥ .

المسكينة ، فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! فقالوا لها : الحقى بزواجك إن شئت . وحينئذ رد بنو عبد الأسد إليها ابنها سلمة . وعند ذلك خرجت مهاجرة وسنتركها تحكى لنا هجرتها فتقول : « ارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعتة فى حجرى — ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله ، فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان^(٢) ابن طلحة بن أبى طلحة ، أخابنى عبد الدار ، فقال لى إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ فقلت لا والله إلا الله وابنى هذا قال والله ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط . أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى ، فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى شجرة ، وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتى ينزل بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عوف بن عوف بقاء ، قال : زوجك فى هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلاً — فادخلها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت السيدة أم سلمة تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة^(٣) .

وإن لنا هنا وقفة عند قصة عثمان هذا الذى كان يومئذ كافراً : لأنه لم يسلم إلا أوائل عام الفتح ، وهى تشهد لنفاسة معدن العرب ، وفضائلهم فى الجاهلية ولا سيما خلق المروءة والنجدة ، وحماية الضعيف ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربى الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها فى هذه الصحراء الموحشة وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش !! .

(١) موضع على فرسخين من مكة .

(٢) أسلم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بعد الحديبية وهاجر هو وخالد بن الوليد وقتل أبوه وإخوته : الحارث وکلاب ومسافع وعمه عثمان ابن أبى طلحة يوم أحد ، ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبه ولد بنى شيبه مفتاح الكعبة أقرها عليهم فى الإسلام كما كانت فى الجاهلية ، ونزل فى ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ انظر الإصابة فى تميز الصحابة ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٨٠ ، ٨١ ، البداية والنهاية ٣ / ١٧٠ ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣١٣ ،

فأين من هذه الأخلاق ، أخلاق الحضارة من القرن العشرين من سطو على الحريات ، واغتصاب للأعراض ، بل وعلى قارعة الطريق وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية ومن تفنن في وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض والسطو على الأموال . إن هذه القصة ، ولها مثل ونظائر — لتدل دلالة لا شك فيها على أن للعرب رصيذاً هائلاً وكبيراً من الفضائل كان أكبر من مثالبهم ورذائلهم ، فمن ثم اختار الله خاتم الأنبياء والرسل من بينهم ، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة وتبليغها للناس كافة^(١) .

هجرة عامر بن ربيعة وزوجه :

ثم قدم المدينة بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة^(٢) حليف بنى عدى بن كعب ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة العدوية^(٣) ، قال أبو عمر : هي أول ظعينة قدمت المدينة ، وقال موسى بن عقبة وغيره أولهن أم سلمة . وجمع بأن ليلى أول ظعينة مع زوجها وأم سلمة وحدها^(٤) .

المشركون يفتنون بعض المهاجرين :

ولما قدم سيدنا عمر وسيدنا عياش^(٥) المدينة ، خرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة ، فكلماه وقالوا : إن أملك قد نذرت ألا يمسن رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له سيدنا

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . للدكتور محمد أبو شهبه ج ١ ص ٤٨٠ .

(٢) هو أحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة بزوجه أيضاً وشهد بدرأ . وما بعدها ، وروى عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما ، توفي سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين وقيل غير ذلك . شرح المواهب ١ / ٣٧٠ .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ١٧٠ .

(٤) شرح المواهب ١ / ٣٧٠ .

(٥) عياش بفتح المهملة وشد التحتية وشين معجمة — ابن أبي ربيعة واسمه عمرو ، ويلقب ذا الرمحين ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي من السابقين الأولين ، وهاجر المهجرتين ومات بالشام سنة خمس عشرة ، وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك — شرح المواهب ١ / ٣٧١ .

عمر : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلّا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد أذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فقال له : أبر قسم أمي ، ولي هنالك مال فأخذه . فقال له عمر : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما . ولكنه أبى عليه إلّا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلّا ذلك ، قال له سيدنا عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب ، فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا ابن أخي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . فأناخ عياش ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استنوا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتن . « وكان دخولهما به مكة نهراً موثقاً ، ثم قالوا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم . كما فعلنا بسفينا هذا » (١) .

هجرة رسول الله ﷺ

وبعد أن هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة أقام « عليه الصلاة والسلام » بمكة ينتظر الإذن من الله « تبارك وتعالى » له بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة إلّا من حبس أو فتن ، وإلّا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق — رضوان الله عليهما — ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له الرسول : « على رسلك فإنني أرجو أن يؤذن لي » (٢) فيطمع أبو بكر « رضوان الله عليه » أن يكون مصاحباً لرسول الله ﷺ في هجرته .

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ « عليه الصلاة والسلام » قد صار له شيعه وأصحاب من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، فيقوى بهم ويجمع على حربهم . من أجل ذلك حاولوا إيجاد طريقة يقضون بها عليه ﷺ قبل أن يفلت من أيديهم .

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٨٥ ، البداية والنهاية ٣ / ١٧٢ ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣١٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي « باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة » .

اجتماع قريش بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول :

واجتمع طواغيت قريش في دار الندوة^(١) — وهي دار قصى بن كلاب — فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد^(٢) سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي . قالوا : أجل ادخل فدخل معهم . فقال : انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره .

فقال قائل منهم :

احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبلة من الشعراء زهير والنابعة إنما هو كأحدهم .

فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم .

قالوا : صدق الشيخ فانظروا في غير هذا .

(١) قال الزرقاني : قال ابن الكلبي : وهي أول دار بنيت بمكة . وحكى الأزرق أنها سميت بذلك لاجتماع الندى فيها يتشاورون — والندى جماعة ينتدون أى يتحدثون — فلما حج معاوية اشتراها من الزبير العبدري بمائة ألف درهم ثم صارت كلها بالمسجد الحرام وهي في جانية الشمال . وقال الماوردي : صارت بعد قصى لولده عبد الدار فاشتراها معاوية من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وجعلها دار الإمارة . وقال السهيلي : صارت بعد بنى عبد الدار بن حكيم بن حزام فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم زمن معاوية فلامه وقال أبعث مكربة آياتك وشرفهم ؟ فقال حكيم : ذهبت والله المكارم إلا التقي ، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بقرن خمر ، وقد بعثها بمائة ألف ، وأشهدكم أن غنما في سبيل الله فأبينا المغبون ؟ ذكر ذلك الدارقطني في رجال الموطأ . انتهى . « من شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٢ » .

(٢) قال السهيلي : إنما قال لهم إبليس إنه من أهل نجد لأنهم قالوا : لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع النبي ﷺ ، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدى . وقد تمثل قبل ذلك في صورة شيخ نجدى حين حكموا رسول الله ﷺ في أمر الركن من يرفعه ، فصاح الشيخ النجدي : يا معشر قريش أقدر رضيتم أن يلبه هذا الغلام دون أشرافكم وذوى أسنانكم ، فإن صبح هذا الخبر فلمعنى آخر تمثل نجدياً ؛ وذلك أن نجداً يطلع منها قرن الشيطان كما قال رسول الله ﷺ حين قيل له : وفي نجدنا يا رسول الله ؟ قال : هنالك الزلازل والفتن ومنها يطلع قرن الشيطان « فلم يبارك عليها كما بارك على اليمن والشام وغيرها » سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٢٩ » .

قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم .

فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا الرأي لكم برأى ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله . فانظروا رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره .

فقالوا وما هو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد ؛ فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها . فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدي هذا والله رأى . القول ما قال الفتى لا أرى غيره . ثم تفرقوا على ذلك وهم مجمعون له (١) .

وقد ورد الحديث عن هذه المؤامرة الدنيئة بشيء من الإجمال في مسند الإمام أحمد بن حنبل حيث روى بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (٢) الآية قال :

تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه فأطلع الله « عز وجل » نبيه على ذلك .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٩ : ٩١ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٢ وما بعدها ، سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٢٤ : ٣٢٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ ، والحديث إسناده حسن ، قاله صاحب البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ وكذلك قال ابن حجر في الفتح : إن إسناده حسن ج ١٥ ص ٩٠ .

تخطيط الرسول للهجرة

وهكذا دبر المشركون خطة للقضاء على رسول الله ﷺ قبل أن يفلت من أيديهم .. ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم ، ويداً فوق أيديهم .. فقد أوحى الله إلى رسوله بما دبروا له من كيد ، وأذن له في الهجرة إلى المدينة .

روى الترمذي بسنده عن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت عليه ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (١) ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول ﷺ الذي لاقى في جنب الله ما لاقى . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرض عدته ، ولم يدع في حسبانته مكاناً للحظوظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح ثم يتوكل — بعد ذلك — على الله ؛ لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله .

فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه على هزيمة بلى بها . وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه ! .

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثار .

كالسفينة التي يشق عباب الماء بها ، ربان ماهر ، فإذا التيار يساعد والريح تهب إلى وجهتها . فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر .

وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار (٢) .

(١) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٣٠٤ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح كتاب تفسير القرآن باب سورة بنى إسرائيل ، والحاكم ج ٣ ص ٣ وقال ابن حجر في الفتح ١٥ / ٧٨ صححه الترمذي والحاكم .
(٢) فقه السيرة للغزالي ص ١٧١ .

فقد وضع رسول الله ﷺ خطة محكمة للخروج من مكة إلى المدينة سالماً دون أن يصيبه أى أذى من مشركى مكة .

وأول شيء فعله رسول الله ﷺ هو الإذن لسائر المؤمنين بالهجرة إلى المدينة واستبقى معه علياً وأبا بكر .

ثم بعد ذلك لما أمره الله « سبحانه وتعالى » بالهجرة اتبع الكتمان التام فى تنفيذ خطتها ، ولم يطلع أحداً عليها إلا من لهم صلة ماسة به حتى أنه أيضاً لم يتوسع فى إطلاع من له صلة ماسة بأحداثها إلا بقدر العمل المنوط بهم .

رفيقه فى هذه الهجرة :

واختار رسول الله ﷺ أبا بكر ليكون رفيقه فى هذه الهجرة الميمونة ، وذلك بعد أن أمره جبريل أن يستصحبه معه ؛ فقد روى الحاكم عن علي أن النبى ﷺ قال لجبريل من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر (١) ، وكان اختياراً صائباً من رسول الله ﷺ لأن أبا بكر الصديق يليق لهذه المهمة وهى تليق به أيضاً ، فهو صاحب الخلق الكريم ، قبل وبعد دخوله فى الإسلام ، وهو أول رجل اعتنق الإسلام بمجرد أن دعاه الرسول ﷺ إليه ، وبسببه اعتنق كثير من رجالات قريش الإسلام ، وهو الملقب بالصديق ، كما أنه كان أعظم الناس إخلاصاً وحباً للرسول الكريم . ومن أجل ذلك وغيره اختاره الرسول ﷺ ليكون مصاحباً له فى هجرته ، ولذلك بمجرد أن أخبره الله « سبحانه وتعالى » بالهجرة ذهب مباشرة لأبى بكر فى بيته ؛ ليعلمه بأمر الهجرة لكى يعد العدة لها .

يقول البخارى فى صحيحه عن عائشة « رضى الله عنها » قالت : بينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة (٢) قال قائل (٣) لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ

(١) المستدرک للحاکم ج ٣ ص ٥ كتاب الهجرة باب « هجرة أبو بكر إلى المدينة » ط المطبعة الحديثة .

(٢) نحر الظهيرة : أى أول الزوال وهو أشد ما يكون من حرارة النهار — النهاية ٤ / ١٣١ بتصرف .

(٣) الظاهر أن القائل أسماء بنت أبى بكر ؛ ففى حديثها عن الطبرانى كان النبى ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشياً ، فلما كان يوم من ذلك جئنا فى الظهيرة فقلت : يا أبت هذا رسول الله ﷺ . فتح البارى ١٥ / ٨٨ .

فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال فأبى قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر : الصحابة (١) بأبي أنت يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : « نعم » (٢) .

مهمة على :

واختار محمد ﷺ سيدنا علياً « رضى الله عنه » لكي ينال على فراشه ثم أخبره بما كان من عزمه على الهجرة ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان الرسول « عليه الصلاة والسلام » ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ (٣) .

واستجاب على « رضى الله عنه » لأمر رسول الله . وفي ذلك تفان من على « كرم الله وجهه » في حبه للرسول ﷺ وإيثاره حياة الرسول على حياة نفسه .

إعداد الرحلة :

كان أبو بكر « رضى الله عنه » تجهز قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك (٤) فأبى أرجو أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر (٥) وهو الخطب أربعة أشهر (٦) وذلك ليعدهما

(١) الصحابة بالنصب أى أريد المصاحبة : ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . الفتح ١٥ / ٨٨ .

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ١٧٨ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٩٣ .

(٤) على رسلك : أى أثبت ولا تعجل ، يقال لمن يتأنى ويعمل الشيء على هيئته النهاية ٢ / ٨١ .

(٥) السمر : يقال أيضاً الشجرة أم غيلان ، وقيل : كل ما له ظل تخين ، وقيل السمر ورق الطلع والخطب بفتح المعجمة والموحدة ما يخطب بالعصا فيسقط من ورق الشجر . قاله ابن فارس — فتح البارى ١٥ / ٨٨ .

(٦) قال الحافظ في قوله أربعة أشهر بيان المدة التي كانت بين ابتداء هجرة الصحابة بعد العقبة الأولى والثانية وبين هجرته ﷺ ، وكان بين العقبة الثانية وهجرته ﷺ شهران وبعض شهر على التحريض ابن حجر في الفتح ١٥ / ٨٨ .

للهجرة ويجهزهما لذلك ،ومن أجل ذلك عندما قال رسول الله ﷺ لأبي بكر قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحث (١) الجهاز (٢) .

اختيار من يدهما على الطريق :

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الدليل (٣) وهو من بنى عبد بن عدى هادياً خريئاً ، والخريت (٤) الماهر بالهداية قد غمس (٥) حِلْفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعنا إليه راحتيهما وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث (٦) . وقد يقال هنا : كيف حدث هذا ؟ ألم يفكر الرسول — صلوات الله عليه — من الجائز والممكن أن يغدر به ، ويشي به إلى طالبيه من قريش ولا سيما أن قريشاً قد رصدت مائة بعير لمن يأتيهم بمحمد حياً أو ميتاً ؟ .

مثل هذا الخاطر لا بد أنه مر بذهنه « عليه السلام » ، لكن ماذا كان يفعل لو لم يوجد مسلم يستطيع أن يكون دليلاً إلى يثرب .
إن محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — أراد أن يقرر مبدأ واقعياً سامياً —

(١) أحث الجهاز أى أسرع فيمن يحتاج إليه في السفر — فتح الباري ١٥ / ٨٩ .

(٢) البخارى ج ٥ ص ٧٥ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة .

(٣) واسم هذا الرجل عبد الله بن أريقط ، ويقال أريقط بالدال بدل الطاء المهملتين وهو بكاف بصيغة التصغير الليثمي ثم الدثلى . وقد كان في ذلك الوقت على ديانة قومه ولم يذكره في الصحابة أحد إلا الذهبي في التجريد ، وقد جزم عبد الغنى المقدسى في السيرة له بأنه لم يعرف له إسلاماً وتبعه النووي في تهذيب الأسماء — الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤ / ٣٣ .

(٤) الخريت : قال الأصمعي سمي خريئاً لأنه يهذى بمثل خرت الإبرة أى ثقبها وقال غيره : قيل له ذلك لأنه يتندى لأخترات المغارة وهى طرقها الخفية — الحافظ فى الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٥) غمس حلفاً : بكسر المهملة وسكون اللام أى كان حليفاً في آل العاص أى أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به . كانت عادتهم أن يحضروا في جفنه طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليم عقدهم عليه باشتراكهم في شئ واحد — النهاية ٣ / ١٧١ .

(٦) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧٨ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول والصحابة إلى المدينة .

فمصالح الناس في حياتهم متشابهة .

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

كما يقول الشاعر العربي ، فيجب ألا يقف الاختلاف في الدين عائقاً دون تحقيق مصلحة ولا بد أن معنى آخر قد جال بخاطر الرسول — صلوات الله عليه — فعبد الله بن أريقط وإن كان مشركاً لا يدين بالإسلام — إلا أنه عربي لا يجرده شركه من عروبه .

والعربي معروف بالوفاء ولا سيما إذا ارتبط بمهنته ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرسول ﷺ منحه ثقته فإن ذلك يقوى فيه نزعة الوفاء .. وكان رسول الله مصيباً كل الإصابة في تقديره (١) .
إعداد الطعام للزم لهذه الرحلة :

وبعد أن علم سيدنا أبو بكر وأهل بيته بأمر هجرة رسول الله ﷺ قام أهل بيته « رضوان الله عليهم » بتجهيز ما يحتاجه الرسول ﷺ وصحبه أبو بكر من طعام . تقول عائشة : « رضى الله عنها » في رواية البخاري :
« وصنعنا لهما سفرة (٢) في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق » (٣) .

قال ابن سعد في طبقاته « قالت عائشة وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فأوكأت (٤) بقطعة منه الجراب وشدت فم

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) سفرة في جراب أى زاد في جراب لأنه أصل السفر في اللغة الذى يوضع للمسافر ثم استعمل في وعاء الزاد ، ومثله المزايدة للماء وكذلك الراوية فاستعملت السفر في هذا الخبر على أصل اللغة ، وأفاد الواقدي أنه كان في السفرة شاة مطبوخة . فتح الباري ١٥ / ٩٠ .

(٣) النطاق ما يشد به الوسط ، وقيل هو إزار فيه تكة ، وقيل هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى الأسفل ، قاله أبو عبيد الهروي ، قال : وسميت ذات النطاقين لأنها كانت تجعل لها نطاقاً على نطاق ، وقيل كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتجعل في الآخر الزاد . أ . هـ . والمحفوظ أنها شقت نطاقها فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر فمن ثم قيل لها ذات النطاق وذات النطاقين ، فالتثنية والإفراد بهذين الاعتبارين . فتح الباري ١٥ / ٩٠ .

(٤) أوكت بقطعة من الجراب . أوكوا الأسقية أى شدوا رءوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شيء يقال : أوكيت السقاء أوكيه إيكاء فهو موكى . النهاية ٤ / ٢٢٩ .

القربة بالباقي فسميت ذات النطاقين» (١).

اختيار مكان الاختباء بعد الخروج :

واختار رسول الله ﷺ مكاناً للاختباء فيه أثناء البحث عنه ، وكان لابد من مكان أمين لا تشك قرينش في اختفاء الرسول وصاحبه أى بكر فيه ، وبعده نظره ﷺ اختار غاراً يسمى بغار ثور (٢) .

ففى حديث الهجرة عند البخارى أن الرسول ﷺ وأبا بكر « رضى الله عنه » قد واعدة دليلهما عند غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما صبح ثلاث (٣) .

وهذا الغار له رهبة الموت من داخله ، مقتحمة قد يفاجئه فى عماية الظلام وحش رهيب أو يردعه ثعبان مسعور ، ولكن النبى ﷺ لم يكن يتهيب هذه الأخطار ؛ لأن قلبه الشجاع قد امتلأ باليقين والثبات وبلغ من السمو درجة يراغم بها الأخطار (٤) .

التخابر على أهل مكة وإمداد الرسول وصحبه بما فى مكة من معلومات :

وكان لا بد لرسول الله ﷺ وصحبه أن يعينوا لهم رجلاً يقوم بدور المخابرات التى تقضى نهارها بمكة لكى تتسمع لما يقوله الناس فيها وما يردده الرأى العام هناك . ثم ينطلق إلى الرسول وصحبه فى المساء ليبلغهما المعلومات التى يحصل عليها . واختارا لهذه المهمة الخطيرة هذا الشاب الثقة عبد الله بن أبى بكر

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٤ ، فتح البارى ١٥ / ٩٠ .

(٢) بغار ثور : قال فى الأنوار الغار ثقب فى أعلى ثور فى يمين مكة على مسيرة ساعة وقيل : إنه من مكة على ثلاثة أميال ، وفى معجم ما استعجم : إنه منها على ميلين وارتفاعه نحو ميل وفى أعلاه الغار الذى دخله النبى ﷺ وأبو بكر وهو المذكور فى القرآن . وفى هذا الجبل من كل نبات الحجاز وشجره وفيه شجر البان . وفى الاميس ثور جبل بمكة فيه الغار المذكور فى التنزيل ويقال له ثور أطحل واسم الجبل أطحل نزل ثور بن عبد شاة فنسب له . انتهى . شرح المواهب ١ / ٣٨٠ ، إنسان العيون ٢ / ٣٥ ، أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٦٥ .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧٧ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وصحابته .

(٤) دراسات تاريخية للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٦٥ .

« رضى الله عنهما » يقول البخارى بسنده عن عائشة « رضى الله عنها » كان « يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف^(١) لقن^(٢) فيدلج^(٣) من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت^(٤) فلا يسمع أمراً يكتادان^(٥) به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام »^(٦).

وهكذا فقد ظل عبد الله بن أبى بكر طوال الفترة التى مكثها رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق « رضى الله عنه » فى الغار يقضى نهاره فى قريش يسمع ما يأترون به وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

اختيار من يمدهما بالزاد والتموين فى الغار :

وكان من المهم جداً أن يختارا من يمدهما بالطعام أثناء مدة اختبائهما ، فاختارا عامر بن فهيرة^(٧) مولى أبى بكر لهذه المهمة الجليلة يقول البخارى نقلاً عن السيدة عائشة وكان « يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة^(٨) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء — فيبيتان فى رسل^(٩) وهو لبن

(١) ثَقَّفَ بفتح المثلثة وكسر القاف ويجوز إسكانها وفتحها وبعدها فاء الحاذق . تقول ثقفت الشيء إذا أقمت عوجه الفتح ج ١٥ ص ٩١ .

(٢) لقن . فتح اللام وكسر القاف سريع الفهم جيد الوعى « المرجع السابق » .

(٣) فَيَدْلُجُ بفتح الياء وتشديد الدال بعدها جيم أى يخرج بفلس أى بسحر إلى مكة « السابق » .

(٤) كبائت أى مثل البائت يظنه من لا يعرف حقيقة أمره لشدة رجوعه بفلس . الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٥) يكتادان به . وفى رواية الكشميهنى « يكادان به » بغير مثناه أى يطلب لهما المكروه وهو من الكبد . الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٦) البخارى ج ٥ ، ص ٧٥ ، ٧٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول وصحابته للمدينة .

(٧) عامر بن فهيرة بضم الفاء مصغرة مولى أبى بكر من السابقين الأولين . ذكر ابن عقبة عن ابن

شهاب أن أبا بكر اشتراه من الطفيل بن سخيرة فأسلم فأعتقه ، وهو مخالف لما رواه الطبرانى عن عروة أنه كان

ممن عذب فى الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه .

واستشهد بغير معونة — شرح المواهب ١ / ٣٩٣ .

(٨) مَنُحَةٌ . بكسر الميم وسكون النون بعدها مهملة غنا فيها لبن وتطلق على كل شاة ، وفى رواية موسى

بن عقبة عن ابن شهاب أن الغنم كانت لأبى بكر فكان يروح عليها الغنم كل ليلة فيحلبان ثم تسرح بكرة

بصبح فى رعيان الناس فلا يقطن له — فتح البارى ١٥ / ٩٢ .

(٩) فى رسل بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة . اللبن الطرى . فتح البارى ج ١٥ ص ٩٣ .

مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيْفَهُمَا^(١) حتى ينق بها عامر^(٢) بن فهيرة بفلس ، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث^(٣) . وهكذا فقد خطط رسول الله ﷺ تخطيطاً محكماً لهجرته النبوية الشريفة .

خروج الرسول للهجرة ووصوله إلى الغار :

نام على « رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه » على فراش النبى ﷺ ليلة الهجرة ، واجتمع أولئك نفر من قريش على باب رسول الله ﷺ يرصدونه حتى ينام ، فيثبون عليه .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطباً لأصحابه — المطوقين لبית رسول الله ﷺ — فى سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها^(٤) .

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشاً . ففى هجمة من الليل وغفلة من الحرس ، انسل الرسول ﷺ من بيته غير مبال بكيدهم ، ولا عايناء بجمعهم ، لأن الله وعده العصمة ، ومنه النجاة ، ثم أتى إلى دار رقيقه — وأمن الناس عليه فى صحبته وماله — أى بكر الصديق « رضى الله عنه »^(٥) الذى كان فى انتظار الرسول ﷺ ؛ لأنهما كانا قد اتفقا على الهجرة

(١) ورضيفيهما بفتح الراء وكسر المعجمة بوزن رغيث أى اللين المرضوف أى التى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته وهو بالرفع ويجوز الجر . الفتح ٩٣ / ١٥ .

(٢) ينق أى يصيح والنعيق صوت الراعى إذا زجر الغنم .

(٣) البخارى ج ٥ ص ٧٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول وصحابته للمدينة .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩١ .

(٥) يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة : وذهب الرسول هذا إلى بيت الصديق ، خلاف الذهاب الأول فى نحر الظهيرة ، فالأول كان لإخبار الصديق بالإذن بالهجرة ، والثانى كان ليلاً بعدما أفلت من المشركين للخروج إلى الغار ، وقد تحير بعض كتاب السيرة وشرحها فى هذا ، فخرج الرسول من بيته كان ليلاً ، ووصوله إلى بيت الصديق كان فى الظهيرة كما ثبت فى الصحيح وغيره ، فأين كان النبى فى هذه الساعات الطوال ؟ وهذا الذى ذهب إليه ينبغى أن يصار إليه ، وقد جوز بعضهم أن النبى مكث فى بيت =

عندما أخبر الرسول ﷺ أبا بكر — ثم خرجا من عند أبى بكر « رضى الله عنه » إلى غار ثور — إلى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع .

ما قاله الرسول عند خروجه :

وعند خروج الرسول ﷺ للهجرة وقف بالجزورة فى سوق مكة وقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » (١) . ثم انطلق رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور ليقبلا فيه فترة البحث عنهم وبعد أن دخلاه أمر الله « تبارك وتعالى » عنكبوتاً فنسج خيوطه على باب الغار لحماية رسول الله ﷺ وصاحبه من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما . روى الإمام أحمد بسنده : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل — جبل ثور — اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت على العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه » (٢) .

وهذه الآية من جنود الله « سبحانه وتعالى » التى يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ؛ لأن جنود الله « سبحانه وتعالى » أعم من أن تكون مادية أو معنوية ، وإذا كانت مادية فإن خطرهما لا يتمثل فى ضخامتها فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لجب . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٣) أى وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فجنود الله غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية (٤) .

= الصديق حتى كانت الليلة المقبلة فخرجاً ليلاً ، وهو بعيد ، والبعض جوز أنه خرج إلى الغار ، ثم عاد إلى بيت أبى بكر فى الظهيرة ثم عاد إلى الغار معاً وهو أشد بعداً من الأول : والحق ما هداى الله إليه وهو الذى يتفق ومنطق العقل وتسلسل الحوادث . انظر السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة . للدكتور محمد أبو شهبه القسم الأول ص ٤٩٧ .

- (١) الحديث أخرجه الترمذى كتاب المناقب باب فضل مكة ٥ / ٧٢٢ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح ، سنن ابن ماجه ٢ / ١٠٣٧٠ كتاب المناقب باب فضل مكة ط عيسى الحلبى .
- (٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ٣٤٨ قال صاحب البداية والنهاية إسناده حسن وهو من أجود ما روى فى قصة نسج العنكبوت على فم الغار ٣ / ١٨١ ، وقال صاحب الفتح إسناده حسن ١٥ / ٩٠ .
- (٣) سورة المدثر جزء من الآية رقم ٣١ .
- (٤) الفخر الرازى ٣٠ / ٢٠٨ .

البحث عن رسول الله وصحبه في كل مكان :

تركنا القوم بباب رسول الله ﷺ بعد خروجه من بينهم دون أن يشعروا به حتى لحق بالغار وكان على — رضى الله عنه — نائماً على فراش النبي تلك الليلة وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ ؛ فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ^(١) وتموج مكة بالخبر ، لقد نجا محمد من الموت ، وخرج إلى يثرب .

عند ذلك قامت قيامة قريش ، وانطلقوا في أثر المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب ، وراحوا ينقبون في جبال مكة وكهوفها ، حتى وصلوا — في دأبهم — قريباً من غار ثور بل وصلوا إلى الغار عند ذلك قال أبو بكر لرسول الله ﷺ بعد أن رآهم أمام الغار « يا نبي الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا ، قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما » ^(٢) وفي رواية أخرى أن أبا بكر « رضى الله عنه » قال : « كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه فقال يا أبا بكر : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ^(٣) .

ويظهر أن المطاردين داخلهم اليأس من العثور عليهما في هذا الفج ، فتراكضوا عائدين ، روى الإمام أحمد .

« أن المشركين اقتفوا الأثر فلما بلغوا الجبل خُلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال » ^(٤) فعندما رأت قريش هذه الآية استبعدت وجود محمد وصحبه داخل الغار . وبهذا وغيره حفظ الله « سبحانه وتعالى » رسوله ﷺ وصاحبه في الغار . وصرف بذلك المشركين عن النبي وصحبه .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ حديث إسناده حسن البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ وكذلك قال ابن حجر في الفتح إن إسناده حسن ج ٢٥ ص ٩٠ .
(٢) صحيح البخارى باب الهجرة كتاب بدء الخلق .
(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب تفسير سورة التوبة .
(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ نفس حديث الإمام أحمد السابق .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

وهذه الآية الكريمة نزلت عتاباً من الله للمسلمين الذين تكاسلوا عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك (٢).

وفيها يقول سبحانه وتعالى : يا من تكاسلتم عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إلا تنصروه أنتم أو غيركم حين يطلب منكم الجهاد معه فسينصره سبحانه وتعالى بغيركم ، كما نصره في وقت أشد وأقسى من أى وقت (٣) وذلك حين ضاقت قريش به ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطبيق عليها صبراً فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ، فأطلعه الله على مؤامرتها ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصديق ، لا جيش ولا قوة ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه : « إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » والقوم على إثرهما يتعقبون والصديق — رضى الله عنه — يجزع — لا على نفسه ولكن على صاحبه أن يطلعا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، ويقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدىء من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها في جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجرد ؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس .

وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار : وظلت كلمة الله في مكانها العالى منتصرة قوية نافذة ؛ لأنه سبحانه وتعالى « عزيز » لَا يَدُلُّ أُولَآئِكَ ، « حكيم »

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٤ ص ٢٩٨٢ .

(٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية . الحزب العشرون ص ١٧٠٤ .

يقدر النصر في حينه لمن يستحقه^(١) .

استكمال المسيرة المباركة إلى المدينة :

وفي اليوم الثالث من خروج النبي ﷺ وصحبه من مكة ، وبعد أن سكن الناس عن طلبهما أتاهما عبد الله بن أريقط ببعيريهما وبعير له كما اتفقا معه قبل ذلك لاستكمال تلك المسيرة المباركة الطيبة إلى المدينة المنورة ، هذه البلدة التي أصبحت المقر الجديدة للدعوة الإسلامية .

الطريق الذى سلكوه في هجرتهم :

فلما خرج بهما عبد الله بن أريقط ، سلك بهما أسفل مكة ، غرباً إلى طريق الساحل ثم اتجه بعد هذا شمالاً متجنباً مناطق الاستقرار في هذا النطاق ، مستفيداً في نفس الوقت من موارد المياه الموجودة ، وإن مر في طريقه ببعض الرعاة أو المضارب الصغيرة ، وتابع سيره شمالاً ماراً بالطريق أسفل عُسفان^(٢) ، ومر بعد ذلك بأبج^(٣) ، ثم أجاز قديداً^(٤) ،

(١) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ .

(٢) عسفان : بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الفاء بعدها ألف فنون — من قرى رابغ في إمارة مكة ، وسميت بهذا الاسم لتعسف السير فيها ، تبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلاً ، وهى حد تهامة . وهذه البلدة ما زالت قائمة حتى الآن أهـ « معجم البلدان ج ٤ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، المعجم الجغرافى فى البلاد العربية والإسلامية لمحمد آل جاسر ج ٢ ص ٨١٥ ط أولى ١٣٩٧ ، ١٩٧٧ فى دار اليمامة ، طريق الهجرة للدكتور عبد العزيز كامل ص ٢٠ من محاضرة ألقاها بقاعة الإمام محمد عبده ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .

(٣) أُنَجّ بفتح أوله وثانيه بلد من أعراض المدينة تبعد عن مكة مسيرة ثلاثة أيام ، وهى بين مكة والمدينة ولم يرد لها على الخرائط الحديثة ذكر ، وهى واد يأخذ من حرة بنى سليم وينتهى إلى البحر . معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، النهاية ج ١ ص ٤١ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ، حققه محمد بن بلهد النجدى ص ١٧٠ ط دار السعادة القاهرة ١٩٥٣ .

(٤) قديداً بضم القاف وفتح الدال الأولى بعدها مثناة تحتية ساكنة فذال وهى تصغير القد ، أو من القد بالكسر وهو جلد السخلة أو تصغير لقدود وهى الفرق واد ذى قرى ساكنه من زبيد من حرب . وهى موضع قرب مكة .

وهى الآن قرية صغيرة تقع على وادى ستارة الذى ينبع من حرة رهط ويتجه إلى البحر نحو الجنوب الغربى ، ويذكر البكرى أنها « قرية جامعة مذكورة فى رسم الفرع وفى رسم العقيق وهى كثيرة المياه والبساتين . معجم البلدان ج ٤ ص ٣١٣ ، المعجم الجغرافى ج ٢ ص ٩٦٢ ، معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٠٥٤ نشر المعهد الخليفى للأبحاث المغربية . حققه مصطفى السقا — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩ .

ثم سلك الخزار (١) ، ثم لقفاً (٢) ثم أجاز بهما مدجلة لقف ، ثم استبطن بهما مدجلة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ثم تبطن بهما مرجح من ذى الغضوين (٣) ، ثم تبطن ذى كشر (٤) ، ثم أخذ بهما على الجداجد (٥) ثم على الأجرد (٦) ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدجلة تَعْنُ (٧) ، ثم على العبايد (٨) .

(١) الخزار : بفتح الخاء وتشديد الزاء الأول موضع بالحجاز قرب الجحفة ، قرب رابع الحالية ، وذكر البكرى أنه واد بالحجاز يصب على الجحفة ، وتحمل هذا الاسم عيون وغدران أخرى ليست بين مكة والمدينة ، ولم يرد هذا الوادى على الخرائط الحديثة وإن ذكر الجغرافيون القدماء احتمال وقوعها قرب الجحفة . معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠ ، البكرى : معجم ما استعجم ٢ / ٤٩٢ . وقد اندثرت هذه القرية . وكانت ميقات الإحرام لأهل الشام ومصر حين يقبلون للحج أو العمرة ، وأصبحت رابع الآن ميقاتاً .

(٢) لقفاً : ضبطه الخازمي بفتح أوله ، وسكون ثانية ، وقال عرام : لقف ماء آبار كثيرة عذب ليس عليها مزارع ولا تُلخ فيها لفظ موضعها وخشوتها ، وهو بأعلى قوران واد من ناحية السوارقية على فريسيخ واقع بين مكة والمدينة وفى لقف ولقت وقع الخلاف فى حديث الهجرة وكلاهما صحيح هذا موضع وذاك آخر . معجم البلدان ج ٥ ص ٢١ ، لسان العرب مادة لقت .

(٣) ذو الغضوين . بفتح الغين والضاد ، بلفظ تننية الغضا موضع بين مكة والمدينة جاء ذكره فى حديث الهجرة قال ابن إسحاق : ثم تبطن بهما ، يعنى الدليل ، مَرَجَحَ من ذى القُضْوَيْن ، بالغين والضاد المعجمتين ويقال ذى العصوين بالعين والضاد المهملتين معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٤) كَشَرٌ بالفتح ثم سكون ، وهو بَدُو الأسنان عند التبسم : جبل قريب من جُرش ، وهو موضع بين مكة والمدينة — السابق ج ٤ ص ٤٦٢ .

(٥) الجداجد : بالفتح ، جمع جُدْجُد ، وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع جُدْجُدْ ، وهى البئر القديمة ، وأظنها على هذا آباراً قديمة فى طريق ليس بعلم ، وفى حديث : أتينا على بئر جدجد ، قال أبو عبيدة . والصواب بئر جُدَّة أى قديمة ، حكى الهروى عن اليزيدى ويقال : بئر جُدْجُد ، قال : وهو كما يقال فى الكم كمكم وفى الرِّف رَفَرَف السابق ج ٢ ص ١١٢ .

(٦) الأجرد : بفتح الألف وإسكان الجيم فراء مفتوحة فدال — من قرى شَجَوَى ، فى منطقة المدينة . المعجم الجغرافى ج ١ ص ٦٣ .

(٧) تَعْنُ : بكسر أوله وهائه ، وتسكين العين ، وآخره نون : اسم عين ماء سمى به موضع على ثلاثة أميال من السُّقْيَا بين مكة والمدينة ، وقد رُوى فيه تَعْنُ ، بفتح أوله ، وكسر هائه ، وبضم أوله ، قال السهيلي فى شرح حديث الهجرة . تَعْنُ بكسر التاء ، والهاء والتاء أصلين على قياس النحو ، ووزنها فَعْلِلْ إلا أن يقوم دليل من اشتقاق على زيادة التاء ، وتصح رواية من روى تعن بضم التاء ، فإن صحت فالتاء زائدة كسرت أو ضمت ، المعجم ج ٢ ص ٣٥ .

(٨) العبايد بعد الألف باء أخرى ، ودال مهمة ، وقد روى فى اسم هذا الموضع العبايب ، بعد الألف باء أخرى ثم ياء آخر الحروف ثم باء أخرى ، وروى فيه أيضاً العُبَيَّاتُ ، بالعين المهمة والتاء المثناة وباء آخر الحروف وبعد الألف نون ، كل ذلك جاء مختلفاً فيه فى حديث الهجرة . فمن رواه عبايد جعله جمع عباد ، ومن روى عبايب كان كأنه جمع عُبَاب من عبيت الماء عباً فكأنه — والله أعلم — مياه تَعْبُ عِبَاباً وتُعْبُ =

ثم أجاز بهما الفاجعة (١) .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العرج ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبه ، حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس أن تعتدل (٢) .

انتظار المسلمين بقاء مقدم الرسول :

ولما سمع المسلمون بمخرج الرسول ﷺ من مكة إليهم ، كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، إلى أن جاءهم رسول الله ﷺ .

عن عائشة « رضى الله عنها » قالت :

« لما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، كانوا يفدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أؤوا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم (٣) من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين (٤) يزول بهم السراب (٥) ؛ فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم (٦) الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ، ممن لم ير رسول الله ﷺ يحىي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس

= عُبّا . المعجم ج ٤ ص ٧٣ .

(١) فاجعة . من قرى العرضية الشمالية ، بمنطقة القنفذة ، فى إمارة مكة المكرمة . المعجم الجغرافى ج ٢

ص ٩١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) أطم : بضم أوله وثانيه بناء مرتفع وهو كالخصن النهاية . ١ / ٣٥ .

(٤) مبيضين : أى عليهم ثياب بيض — الفتح ١٥ / ٩٨ .

(٥) يزول بهم السراب أى يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له ؛ أو المراد ظهرت حركتهم

للعين . « السابق » .

(٦) هذا جدكم : بفتح الجيم وشد الدال : أى حظكم الذى تتوقعونه « السابق » .

رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك (١) .

منزل رسول الله ﷺ :

ونزل رسول الله ﷺ بقباء « في بنى عمرو بن عوف » (٢) بن مالك بن الأوس بن حارثة (٣) ، وكان نزوله على كلثوم بن الهرم (٤) أخى بنى عمرو بن عوف (٥) .

الرسول يؤسس مسجد قباء :

إن للمسجد في الإسلام دوراً كبيراً فهو مدرسة للعلم يتخرج فيها دعاة الإسلام الذين يتحملون دعوته ، لينشروها في أرجاء المعمورة ، حيث يدعون من لم يعتنق الإسلام للدخول فيه ، كما يبصرون المسلمين بأحكامه ، وفيه يرى المسلمون التربية الإسلامية الصحيحة ، ومنه توجه الجيوش لتأديب المعتدين ، وفيه أيضاً تعقد مجالس الشورى ، وتبحث فيه مشاكل المسلمين ، فهو إذاً له دور كبير ، من أجل ذلك ، كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ بعد وصوله إلى قباء ، أن أسس أول مسجد فيها ، خلال تلك الفترة الوجيزة التي أقامها بها ، فكان أول مسجد أسس في العالم بعد ظهور الإسلام ، وقد عمل فيه رسول الله ﷺ بيده ، وشارك أصحابه في حمل الحجارة والصخور ، حتى كان يبدو عليه الجهد . وقد حاول أصحابه « رضوان الله عليهم » أن يريحوه من العمل معهم ، فكان يأتي إلا أن يكون واحداً منهم .

(١) صحيح البخارى م ٢ ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة .

(٢) « السابق » .

(٣) وكانت منازلهم بقباء وهى على فرسخ من المسجد النبوى بالمدينة « فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ .

(٤) قيل كان كلثوم بن الهرم يوم نزول الرسول عليه — مشركاً — وجزم به محمد بن الحسن بن زبالة

في أخبار المدينة « السابق » .

(٥) ابن هشام — ج ٢ ص ٩٩ ، البداية والنهاية ٣ / ١٩٧ ، فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ ، زاد المعاد

٢ / ٥٤ — رواه الطبرانى ورجاله ثقات مجمع الزوائد ج ٦ ص ٦٢ ، ٦٣ .

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن الشimos بفتح الشين المعجمة — بنت النعمان « رضى الله عنها » قالت : « نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد : مسجد قباء ، فرأيت أنه يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره (١) الحجر ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سترته فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : يا رسول الله بأبى أنت وأمى أعطينى أكفك ، فيقول : « لا تأخذ مثله » حتى أسسه (٢) ، وهكذا تأسس مسجد قباء الذى وصفه الله « سبحانه وتعالى » بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، حيث قال تعالى : ﴿ لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (٣) .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : وفيها حث من الله « تبارك وتعالى » لرسول الله ﷺ على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله ، ثم يقول : والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يأتى قباء راكباً وماشيأً (٤) . وفى الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة . فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد فى حديث بسنده أن النبى ﷺ أتى أهل قباء فى مسجدهم فقال : « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان

(١) هصر فلان الشيء .. يهصره هصرأ من باب ضرب وهصر الغصن عطفه وأماله « لسان العرب . مادة هصر وفى النهاية ٤ / ٢٤٩ . أصل الهصر أن تأخذ برأس العود فتثنيه إليك وتعطفه ، وفى حديث بناء مسجد قباء . فهصر الحجر إلى بطنه أضافه إليه وأماله ، وقيل : لعل المراد أن الحجر لضخامته كان يغالبه ويجذبه إليه من ثقله .

(٢) رواه الطبراني فى الأوسط والكبير ورجالهم ثقات « مجمع الزوائد ج ٤ ص ١١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

(٤) اللفظ للمالك كتاب قصر الصلاة فى السفر باب العمل فى جامع الصلاة ، وأخرجه البخارى فى كتاب الصلاة فى مسجد مكة والمدينة . باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً ، مسلم فى كتاب الحج باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته .

لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه وقال ابن جرير بسنده عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية والحديث لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى (١) .

وقال القاضي : لا يمنع دخولهما . جميعاً تحت هذا الذكر لأن قوله : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ هو كقول القائل ، لرجل صالح أحق أن تجالس . فلا يكون ذلك مقصوراً على واحد (٢) .

كذلك جمع الشريف السمهورى بين الأخبار وسيقه إلى ذلك السهيلي وقال : كل من المسجدين مراد لأن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه (٣) .

المدة التى مكثها الرسول بقباء :

اختلف العلماء فى المدة التى قضاها رسول الله ﷺ بقباء ، وقد وفى بتحريه هذا الخلاف وبسط القول فيه الحافظ ابن حجر « رحمه الله » إذ يقول فى الفتح فى شرح حديث الهجرة الطويل عن عائشة « قوله (٤) » وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول . وهذا هو المعتمد وشذ من قال يوم الجمعة ، فى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب « « قدمها لهلل ربيع الأول » أى أول يوم منه وفى رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق « قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول » ونحوه عند أبى معشر لكن قال « ليلة الاثنين » ومثله عن ابن البرقي وثبت كذلك فى أواخر

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٩ .

(٢) الفخر الرازى ج ١٦ ص ١٩٧ .

(٣) الألوسمى ج ١١ ص ٢٠ .

(٤) يعنى قول البخارى بسنده عن عروة عن عائشة فى هذا الحديث .

صحيح مسلم . وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق « قدمها لأنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول » وعند ابن سعد في شرف المصطفى من طريق أبى بكر ابن حزم « قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول » وهذا يجمع بينه وبين الذى قبله بالحمل على الاختلاف في رواية الهلال . وعنده من حديث عمر « ثم نزل على بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول » كذا فيه ولعله كان فيه خلطاً ليوافق رواية جرير بن حازم . وعند الربيع في خبر المدينة عن ابن شهاب في نصف ربيع الأول ، وقيل كان قدومه في سابعه ، وجزم ابن حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقيت من صفر وهذا يوافق قول هشام بن الكلبي : لأنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول فإن كان محفوظاً فلعل قدومه بقاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وإذا ضم إلى قول أنس أنه أقام بقاء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة كان لاثنتين وعشرين منه ، لكن الكلبي جزم بأنه دخلها لاثنتى عشرة خلت منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقاء أربع ليال فقط وبه جزم ابن حبان فإنه قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعنى وخرج يوم الجمعة فكأنه لم يعتد بيوم الخروج وكذا قال موسى بن عقبة إنه أقام فيهم ثلاث ليال فكأنه لم يعتد بيوم الخروج ولا الدخول .

وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنتين وعشرين يوماً ، حكاة الزبير بن بكار . وفي مرسل عروة بن الزبير ما يقرب منه كما يذكر عقب هذا والأكثر أنه قدم نهراً ، ووقع في رواية مسلم ليلاً ، ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل فدخل نهراً ... إلى أن قال « قوله فلبث رسول الله ﷺ في بنى عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة » في حديث أنس الآتى في الباب الذى يليه أنه قام فيهم أربع عشرة ليلة وقد ذكرت قبله ما يخالفه ، والله أعلم .

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثاً « قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين وعشرين ليلة ، وقال ابن إسحاق « أقام فيهم خمساً » وبنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك .

قلت : ليس أنس من بنى عمرو بن عوف فإنهم من الأوس وأنس من الخزرج ، وقد جزم بما ذكرته فهو أولى بالقبول من غيره (١) .

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ فما بعدها .

دخول الرسول ﷺ المدينة المنورة :

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدة التي مكثها ببقاء وأراد أن يدخل المدينة المنورة أرسل إلى الأنصار ، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ « وهم متقلدون سلاحهم (١) » فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين ؛ فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحققا دونهما بالسلاح (٢) .

استقبال أهل المدينة لرسول الله ﷺ :

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة شاع فيها مجيئه . فأخذ أهل المدينة يقولون : « جاء نبي الله ، جاء نبي الله ﷺ (٣) » .

فكان بحق يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله ، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد ، ولقد كان حقاً يوم عيد ، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة المنورة ، ومنها إلى سائر بقاع الأرض .

ولقد أحس أهل المدينة المنورة بالفضل الذي حباهم الله به ، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً ، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله وصحابته المهاجرين ، ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته ، كما أنها ستكون المكان الذي يأرز إليه الإسلام في آخر الزمان . من أجل ذلك خرج أهلها يهللون ويصيحون في فرح وابتهاج ، يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله .

روى الإمام مسلم بسنده قال : « عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون يا رسول الله ، يا محمد يا رسول الله (٤) » .

(١) ما بين العلامتين صحيح البخارى ج ٥ ص ٨٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي وأصحابه .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق . باب في حديث الهجرة ، ويقال له حديث الرجل بالحاء .

وبعد هذا الاستقبال الرائع الذى لم يُر مثله استقبال فى تاريخ البشرية ، سار رسول الله ﷺ حتى نزل جانب دار أبى أيوب . روى البخارى بسنده عن عائشة « رضوان الله عليها » فى حديث الهجرة الطويل وفيه « فأقبل يسير^(١) حتى نزل جانب دار أبى أيوب فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها ؛ فجاءوهى معه ، فسمع من نبي الله ﷺ ثم رجع إلى أهله فقال نبي الله ﷺ أى بيوت أهلنا أقرب ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه دارى وهذا بابى ، قال فانطلق فهىء لنا مقبلاً^(٢) » ، ثم نزل رسول الله ﷺ على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومسأكنه .

وبهذا تكون قد تمت هجرته ﷺ وهجرة أصحابه « رضوان الله عليهم » . ولكن الهجرة لم تنته . الهجرة بأهدافها وغاياتها بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة .

وبدأت معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات ، فتغلب عليها رسول الله ﷺ للوصول إلى المستقبل العزيز للأمة والدولة .

عبر مستخلصة :

أولاً : لو نظرنا إلى الأنصار حينما كانوا يدعون إلى الإسلام فى المدينة بعد مبايعتهم للرسول ﷺ . وجدناهم يدعون إلى الله بإخلاص وصدق مدركين لأهدافهم وغاياتهم ، حاسيين لكل خطوة يخطونها فى سبيل الدعوة حساباً ، يتعاملون مع كل من يدعوهم على قدر عقولهم ، وهم فى كل ذلك ملتزمون بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٣) فقد كانوا يدعون إلى سبيل الله وحده ، ملتزمين بالحكمة فى دعوتهم ، فينظرون فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، وينوعون فى الطرق التى يستخدمونها . وذلك على حسب مقتضياتها ، فلم تستبد بهم الحماسة

(١) أى رسول الله ﷺ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٣) سورة النحل آية ١٢٥ .

والاندفاع والغيرة فيتجاوزون الحكمة في هذا كله وفي سواه . وملتزمين كذلك بالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف ، لأنهم تعلموا من الإسلام أن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة . كما كانوا يجادلون بالحسنى أيضاً ، فلم يتحاملوا على مخالفتهم بل كانوا يحاولون إقناعهم للوصول إلى الحق .

وبذلك استطاعوا أن ينشروا الإسلام في المدينة ، وكانوا ممن ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

ثانياً : رأينا من أسباب هجرة المصطفى ﷺ شدة إيذاء المشركين له ولأصحابه ؛ فكان لزاماً عليه ﷺ أن يهاجر من هذه الأرض المحارب فيها هو وأصحابه إلى أرض أخرى يستطيع أن يدعو فيها إلى الله ويحجر بإقامة الشعائر الدينية في حرية تامة ، دون أية قيود أو اعتداء من أحد . وهذا يدلنا على أن الهجرة واجبة من دار الحرب إلى دار الإسلام . روى القرطبي عن ابن العربي بنصه « الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، كانت فرضاً في أيام النبي ﷺ » ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان ، فإن بقي في دار الحرب يمضي ، ويختلف في حاله (٢) .

وكما أنه يجب على المسلم أن يهاجر من دار الحرب ، كذلك يجب عليه أيضاً أن يهاجر من أى مكان لا يستطيع أن يقيم فيه الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من الأحكام الإسلامية الظاهرة ، والذي يدلنا على هذا الحكم قول الله « تبارك وتعالى » ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَظْهِرُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ (٣) .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي « سورة النساء » ج ٣ ص ١٩١٩ ، ١٩٢٠ .

(٣) سورة النساء ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

ثالثاً : حين يئس المبتلون من وقف دعوة الحق والإصلاح ، وحين يفلت المؤمنون من أيديهم ويصبحون في منجى من عدوانهم ، يلجئون آخر الأمر إلى قتل الداعية المصلح ، ظناً منهم إن قتلوه تخلصوا منه وقضوا على دعوته ، وهذا هو تفكير الأشرار أعداء الإصلاح في كل عصر^(١) . ألم يرد فرعون قتل موسى « عليه السلام » ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾^(٢) . ولم يقتل بنو إسرائيل أنبياءهم قال تعالى متحدثاً عن جرائمهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهَا قُتِلَ مِنْهُمْ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا كَفَرُوا ﴾^(٤) .

ثم ألم يقتل أصحاب سورة يس الرجل المؤمن الذي دعاهم إلى اتباع المرسلين وعبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة غيره من المخلوقات قال تعالى :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَزِلُّكُمْ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٥) .

ولهذا همت قريش بقتل النبي « عليه الصلاة والسلام » فقد دبرت مؤامرة للتخلص منه ظناً منها أنها بذلك تكون قد قضت على الدعوة ، ولكن

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعي ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) سورة غافر ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة البقرة جزء من الآية رقم ٦١ .

(٤) سورة النساء جزء من الآية ١٥٥ .

(٥) سورة يس الآيات من ٢٠ : ٣٠ .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١) فالله « سبحانه وتعالى » كان دائماً لهم بالمرصاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٢) فما كانوا يحاولون فعله ضد الرسول والدعوة الإسلامية ، كان الله « سبحانه وتعالى » كاشفاً له ومفسداً لكل خططهم فيه ، لأنها دعوة الله فهو الذى أرسل الرسول لهداية الخلق فلا بد أن يحميه ويدافع عنه حتى يستطيع الرسول أن يبلغ دعوته للناس .

رابعاً : بعد أن رسمت قريش خطة القضاء على الرسول ﷺ وذلك في الاجتماع الذى عقد بدار الندوة ، أوحى الله « سبحانه وتعالى » إلى رسوله بما دبروا له من كيد وأذن له في الهجرة إلى المدينة ، ولم يكن أمر الهجرة أو التفكير فيها وليد الساعة ، وإنما كان هذا الأمر معروفاً للنبي ﷺ منذ بدء الدعوة ، وذلك عندما قال له ورقة « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك » فقال له النبي ﷺ أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى ، ولكن أدركت يومك لأنصرك نصرًا مؤزراً^(٣) ، ومن هنا وطن النبي نفسه على الهجرة باعتبارها أمراً لا بد منه عندما يأذن الله له به .

كما أن الله « سبحانه وتعالى » أطلع نبيه الكريم قبل هجرته وهجرة أصحابه على الأرض التى سوف يهاجرون إليها وذلك في المنام . ففي صحيح البخارى بسنده عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ قال : « رأيت في المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى إلى أنها اليمامة ، أو هَجَرَ^(٤) ، فإذا هى المدينة يثرب^(٥) .

خامساً : في تخطيط الرسول ﷺ للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط أمر ضرورى لمزاولة أى نشاط بشرى مهما يكن نوعه ، يستوى في ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعة وأن يستهدف شيئاً من شئون السلم أو في شئون الحرب ، وإذا كان التخطيط — اصطلاحاً — من مستحدثات العصر فإنه

(١) الأنفال آية رقم : ٣٠ .

(٢) سورة الفجر رقم ١٤ .

(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحي إلى الرسول .

(٤) هجر بفتح الميم والجر : بلد معروف من البحرين وهى من مساكن عبد القيس ، وقد سبقوا غيرهم

من القرى إلى الإسلام — فتح البارى ج ١٥ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٥) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧١ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي وأصحابه للمدينة .

— معنى يضرب بجذوره في أعماق القدم ، فقد اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض ، فقد شاء الله « سبحانه وتعالى » أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشرى حتى تستمر الحياة عبر مراحل تطورها المتعاقبة ، وكل امرئ خلقه الله في هذه الحياة يباشر التخطيط تلقائياً في جميع خطواته وفي مختلف تصرفاته ، دون أن يدري المدلول العلمى لما يقوم به . فالصانع والزارع والعامل كل منهم يخطط ليومه وغده ، إذ يحدد مطالبه والتزاماته ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعيناً في ذلك بحصيلة تجاربه السابقة ومقدراً للظروف الطارئة المحتملة ، وهكذا فالتخطيط لا بد وأن يكون الإنسان مستخدماً له في سائر شئون حياته لكي يستطيع أن يصل إلى أهدافه المرجوة . من أجل ذلك أعنى كون التخطيط من الفطرة التى فطر الله الناس عليها استخدم رسول الله ﷺ التخطيط في كل مراحل دعوته إيماناً منه بأن التخطيط أساس في إنجاح أى عمل من الأعمال ، ولا بد منه للبلوغ إلى المقصود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها الدين ، ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به ، بل وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لا غنى عنها .

والحث على التخطيط أمر صريح نص عليه قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١) وبهذا الأمر يدخل التخطيط في نطاق التكليف الموجه إلى الكافة (٢) .

ومن أوضح صور التخطيط في القرآن الكريم موقف يوسف « عليه السلام » من رؤية الملك حيث لم يكتف بتأويلها ، وإنما وضع الخطة لمواجهة الأحداث التى تكشف عنها .

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٣) فقد

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠ .

(٢) انظر كتاب على طريق الهجرة للأستاذ حسن فتح الباب ص ١٠٣ : ١٠٦ بتصرف سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ، السنة الثالثة . العدد الثامن والعشرون .

(٣) سورة يوسف آيات رقم ٤٧ : ٤٩ .

وضع خطة تخزين الغلال بتركها في السنابل حفاظاً عليها من التلف لمواجهة السنوات العجاف وهذا يؤكد موقف الإسلام من التخطيط ، وأنه أمر ينبغي الالتزام به .

وهذا لا ينافي التوكل على الله والإيمان بالقدر .

سادساً : من حكمة الرسول ﷺ البالغة أنه اتبع في تنفيذ خطته التكم الشديد ، وذلك لأن عدوه محيط به من كل جانب ، يرصد له جميع حركاته ، ولا تغفل عنه عينه ، ولا نسبة بينهما إذا أخذنا بقانون الأسباب التي هي سنة الله في كونه ، والتي أمرنا في غير موضع من الكتاب والسنة أن نأخذ بها ولا نغفلها ما أمكن ، نقول لا نسبة بينهما إذا أخذنا بهذا القانون في العدد والقوة ؛ فالرسول ليس معه إلا أبو بكر وعلى وبعض ضعفاء المسلمين ، فالقوة غير متكافئة بين الجانبين ، فكان لا بد من اتباع السرية التامة في وضع تنفيذ الخطة التي سوف يهاجر بها المصطفى ﷺ ، والتزاماً بهذا المنهج أخفى النبي ﷺ عزمه على الهجرة عن أصحابه جميعاً ما عدا أبا بكر وعلى بن أبي طالب ، بل حتى هذين لم يحطهما النبي ﷺ علماً بالأمر إلا قبل التنفيذ مباشرة . وفي هذا الأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ تعليم للمسلمين في كل عصر من العصور أن يستعملوا السرية التامة في كل الأمور المتعلقة بمصيرهم ؛ لكي يسلموا من أعدائهم الذين يقفون لهم دائماً بالمرصداً ، ويربصون بهم الدوائر .

سابعاً : في اختيار الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق لمرافقته في رحلته الكبرى دليل على ما لأبي بكر « رضى الله عنه » من المنزلة الرفيعة في الإسلام لتاريخه الطويل الحافل بنصرته للإسلام منذ أول يوم دعاه الرسول ﷺ إليه ؛ فقد كان أول رجل صدق به دون أى تردد ، ثم بعد إسلامه أخذ يدعو إلى الإسلام واعتنقه بسبب دعوته له رجال لهم مكانتهم العظيمة وشهرتهم الواسعة في القوم وقدمهم الصداقة في مؤازرة الإسلام ، منهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم . كما كان أول مصدق أيضاً لرسول الله ﷺ حين أبلغ بمعجزة الإسراء والمعراج فسمى يومها بالصديق . من أجل ذلك وغيره كان رضوان الله عليه على المنزلة ، كما يحدث البخارى عن عبد الله بن عمر « قال كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم

عمر ثم عثمان « رضى الله عنهم » (١) .

ولرفعة مكانته في الإسلام كذلك قال رسول الله ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً (٢) ولكن أخى وصاحبى » (٣) . ولقد كان « رضى الله عنه » أقرب أصحاب الرسول ﷺ إليه ، وكان على مستوى هذه الميزة التي أكرمها الله بها ، فقد كان مثال الصادق ، والمضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل دعوة الإسلام ورسول الإسلام وقد رأينا كيف منع رسول الله ﷺ من دخول الغار إلا بعد أن يدخله هو ليستبرئه من أى أذى يمكن أن يكون فيه . وهكذا لم ييخل على الإسلام بنفسه ولا بماله أيضاً ؛ فقد أنفق الكثير والكثير على الدعوة الإسلامية . يقول ﷺ في ذلك « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ألا وإن صاحبكم خليل الله » (٤) .

ثامناً : إن الجندى الصادق المخلص لدعوة الإصلاح ، يفدى قائده بحياته ، ففى سلامة قائده سلامة للدعوة ، وفى هلاكه خذلانها ووهنها ، فما فعله على « رضى الله عنه » ليلة الهجرة من بيته على فراش الرسول ﷺ تضحية بحياته فى سبيل الإبقاء على حياة رسول الله ﷺ ، إذ كان من المحتمل أن تهوى سيوف فتيان قريش على رأس على « رضى الله عنه » انتقاماً منه ؛ لأنه سهل لرسول الله ﷺ النجاة ، ولكن علياً « رضى الله عنه » لم يبال بذلك ، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة (٥) .

تاسعاً : فى إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له

(١) البخارى ج ٥ ص ٥ كتاب بدء الخلق باب مناقب المهاجرين وفضلهم . فضل أبى بكر .

(٢) الخلة الصداقة والمودة . ويقال الخلة أرفع رتبة من الصداقة وهو الذى يشعر به حديث الباب . فتح

البارى ج ١٤ ص ١٥٣ .

(٣) البخارى ج ٥ ص ٥٠ كتاب بدء الخلق مناقب المهاجرين هجرة أبى بكر .

(٤) سنن الترمذى ج ٥ ص ٦٠٩ كتاب المناقب باب مناقب أبى بكر الصديق . قال أبو عيسى : هذا

الحديث ، وهو كما قال ؛ فإنه حسن بشواهد ، وقد ذكره الحافظ فى الفتح وسكت عليه . جامع الأصول

ج ٨ / ٥٨٥ .

(٥) السيرة النبوية دروس وعبر ، للدكتور مصطفى السباعى ص ٨١ .

وتصميمهم على قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب الذى كانوا واقعين فيه ،
ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر أو مجنون أو كذاب لم
يكونوا يجردون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون
حوائلهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده ... وهذا يدل على أن كفرانهم لم
يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه ، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على
الحق الذى جاء به ، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم (١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ
لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَأْيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢) ، وفى أمر الرسول
لسيدنا على « رضى الله عنه » بتأدية هذه الأمانات لأصحابها فى مكة — رغم هذه
الظروف الشديدة التى كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتجه
التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط ، أقول رغم ذلك فإن الرسول ﷺ ما
كان لينسى أو لينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها ، حتى ولو كان فى أحلك
الظروف التى تنسى الإنسان نفسه فضلاً عن غيره .

عاشراً : عندما عرض أبو بكر على رسول الله ﷺ راحلتيه لكى يختار
الرسول ﷺ واحدة منهما ليخرج مهاجراً عليهما ، لم يقبل الرسول ﷺ أخذ
الراحلة إلا بثمنها رغم أن أبا بكر « رضى الله عنه » أنفق على الرسول وعلى
الدعوة من ماله ما هو أكثر من هذا حسبا سمعت من الحديث الآنف ، وحسبا
نطق حديث البخارى عن هشام بن عمار قال : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا زيد بن
واقد عن يسر بن عبيد الله عن عائذ الله أبى إدريس عن أبى الدرداء « رضى الله
عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله بعثنى إليكم ، فقلتم كذبت وقال أبو
بكر : صدقت ، وواسانى بنفسه وماله » (٣) وقال أيضاً : « إن من آمن الناس على
فى صحبته وماله أبا بكر » (٤) وغير ذلك كثير .

وقد التمس علماؤنا « رضوان الله عليهم » وجهاً لحكمة ذلك فقالوا : إن

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٤٦ بتصرف .

(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٣٣ .

(٣) البخارى كتاب بدء الخلق باب مناقب المهاجرين وفضلهم .

(٤) « السابق » .

رسول الله ﷺ إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه ﷺ في استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى ، وأن تكون على أتم الأحوال « (١) » .

حادى عشر : ومن بنود خطته ﷺ أنه استعان بواحد من ذوى الخبرة بمخاطر الطريق ومعاطبه ، على الرغم من أنه كان على دين قومه ، وهو عبد الله بن أريقط .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ، أن ذلك الصنيع من رسول الله ﷺ معدود من الاستثناءات للقواعد ، فقد أثر عنه ﷺ في مواقف أخرى من تاريخ دعوته رفض الاستعانة بالمشركين (٢) كما أن الله « سبحانه وتعالى » حذرنا في القرآن الكريم من الركون إلى المشركين بل حذرنا أيضاً من الركون إلى أهل الكتاب قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تُعْقِلُونَ﴾ (٣) .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة :

« يقول الله « تبارك وتعالى » في هذه الآية الكريمة ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أى يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى : ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أى من غيركم من أهل الأديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى والنسائى وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحيى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبى عتيق عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « وما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ٨٩ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٩ ، سبل الهدى والرشاد . في

سيرة خير العباد . للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٢) «فصول من السيرة النبوية للأستاذ الدكتور عبد المنعم سيد حسن ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » وقد رواه الأوزاعي ومعاوية بن سلام عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه ، فيحتمل أنه عند الزهري عن أبي سلمة عنهما ، وأخرجه النسائي عن الزهري أيضاً ، وعلقه البخاري في صحيحه فقال : وقال عبيد الله بن أبي جعفر عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً فذكره ، فيحتمل أنه عند أبي سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى ابن يونس عن أبي حيان التيمي عن أبي الزباع عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب « رضي الله عنه » إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعماهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ جَبَلًا وَدُّوْا مَا عِثُّمٌ ﴾ وقال الحافظ : أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنساً فإذا حدثهم بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن يعني البصري فيفسره لهم قال : فحدث ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنساً حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا في خواتيمكم عربياً » محمد ﷺ ، وأما قوله « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن . تصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ هكذا رواه الحافظ أبو يعلى « رحمه الله » ، وقد رواه النسائي عن مجاهد بن موسى عن هشيم ، ورواه الإمام أحمد عن هشيم بإسناده ، مثله من ذكر تفسير الحسن البصري ، وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لا تنقشوا في خواتيمكم عربياً » أى بخط عربى لئلا يشابه نقش خاتم النبي ﷺ فإنه كان نقشه محمد رسول الله ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه وأما الاستضاءة

بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ولهذا روى أبو داود « لا تتراءى نارهما » وفي الحديث الآخر « من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله » فحمل الحديث على ما قاله الحسن « رحمه الله » والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أى قد لاح على صفحات وجوههم . وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . وإذا فكيف جاز منه ﷺ في هذه الحال أن يختار هذا المشرك ليدله وصاحبه على الطريق ؟ .

يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن رداً على هذا التساؤل في كتابه فصول من السيرة النبوية وإذا ساغ لى أن أجتهد رأيي في هذه المسألة بادرت إلى القول بأن رسول الله ﷺ حينما اختار عبد الله بن أريقط ليدله وصاحبه على الطريق صدر في هذا الاختيار عن إحدى اثنتين :

إما عن الوحي عن طريق الإلهام أو بواسطة جبريل . وإما عن ضمانات توثق بها رسول الله ﷺ من طوية ابن أريقط وتحرز بها من مغبة إشراكه . ثم يقول : ومهما يكن من أمر اختيار الرسول الثاقب الرأي لهذا المشرك فإن في استمرار ابن أريقط على كتمان سر هجرة الرسول وصاحبه حتى بلغا مأمنهما لتأييداً من الله أى تأييد (٢) . ومع ذلك فإن مثل هذا الأمر أعنى الاستعانة بعدو الدين يجب أن يكون مقصوراً على حد الضرورة الملجئة إلباء بحيث لا يجد المرء مندوحة عن هذه الضرورة بحال من الأحوال ، وبحيث يلزم مع ذلك أقصى غايات الحذر والتوثق لنفسه ولخطته كما فعل رسول الله ﷺ .

ثاني عشر : في موقف عبد الله بن أبي بكر الذي قام به في نشاط ذاهباً آيياً بين الغار ومكة ، يتحسس أخبار المشركين في مكة ، وما يرتبونه ضد رسول الله

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٢) فصول من السيرة النبوية للأستاذ الدكتور / عبد المنعم السيد حسن ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

ﷺ ثم ينقلها لرسول الله ﷺ وأبيه ، وكذلك في قيام عامر بن فهيرة : ذلك الراعى البسيط بعملية الإمداد والتموين للرسول ﷺ وصاحبه أثناء مكوثهما في الغار ، ثم قيامه بتبديد آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر بأغنامه كي لا يتفرسها القوم . أقول في كل ذلك دليل على أثر الشباب في نجاح الدعوات ، فهم عماد كل دعوة إصلاحية ، وباندفاعهم للتضحية والفداء ، تتقدم الدعوات سريعاً نحو النصر والغلبة ، ولعل أوضح مثال على ذلك نراه في شباب المسلمين الأولين . فكثير من الصحابة كانوا شباباً حملوا أعباء الدعوة الإسلامية على كواهلهم ، وتحملوا في سبيلها أصنافاً شتى من العذاب ، وضحووا في سبيلها بكل غال ، وهانت الحياة عندهم من أجلها ، فاستطاعوا بذلك أن يبلغوا الدعوة إلى الناس خارج الجزيرة حتى وصلت إلى كل بقاع العالم ، وهكذا فللشباب المسلم طاقته الجبارة إذا استخدمت في محلها استطاع المسلمون أن يقفوا أمام جميع التحديات التي تواجههم في عالم اليوم وذلولها ، بل قضوا عليها أيضاً .

ثالث عشر : لماذا خرج الرسول ﷺ مستخفياً بجنح الليل مع ثقته في كفالة الله له وأنه مانعه من أن يمسه سوء ، وحائل بين المؤتمرين به وبين ما يشتهون من مكرهم به وجاعل كلمة الذين كفروا السفلى ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن في كتابه فصول من السيرة النبوية : « إن الله » تبارك وتعالى « أجرى على رسوله ﷺ الواقع المعتاد المؤلف صدوره عند عامة البشر فيما أوحاه إليه ، ليحبط كيد الكافرين ، لما تأكد في كثير من آى الذكر الحكيم ، من النص على مماثلته ﷺ لمن أرسل إليهم في السمات العامة للبشرية ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (١) .

ومما يؤلف من البشر فعله أن يستخفى الخصم من خصمه فيما يعد من الخطط للنجاة منه أو الكيد له ، تمكيناً للحسرة من نفس العدو ، حين يفجؤه إفلات عدوه منه ، بعد أن يكون قد أعد العدة للظفر به ، ووقر في ذهنه أن خصمه لن يمتنع عليه ، كما أن في هجرته ﷺ وجهاً من وجوه الحرب والمضادة لمن أخرجوه ، فهي على أيسر التقديرات حرب باردة على نحو ما يقال في العصر الحديث ، والحرب بكل أشكالها عبر أحقاب التاريخ قائمة على الخدعة ، ومغافلة

(١) سورة الكهف جزء من الآية رقم ١١٠ .

العدو ، ومخالسته ومداورته .

على أن الواقع يشهد بأن خروجه ﷺ على الهبة التي خرج عليها كان أمراً في حلق قومه وأنكى مما لو استعلن ﷺ بمغادرة مكة ؛ فقد استشاطوا غضباً وفترت قلوبهم غيظاً حيناً أفاقوا من سباتهم الذي ضربه الله على آذانهم ليجدوا من تربصوا به قد أفلت من أيديهم على روية ومهل . وناهيك بمتسلل يحسو التراب على رءوسهم واحداً واحداً لا يخطيء منهم أحداً . إنه في واقع أمره لا يعد مع صنيعه هذا تسلاً إلا على ضرب من التجوز .

فإذا قارنا هذا بالحالة المقابلة التي نتصوره ﷺ عليها فيما لو خرج من بينهم جهاراً تحت سمعهم وبصرهم لكانت غاية ما يتوقع من القوم إحدى اثنتين .
إما أن يحولوا بينه وبين وجهته ، وإما أن يدعوه ماضياً لوجهه .

فإن كانت الأولى فلن تضيف جديداً إلى موقفهم من الرسول والرسالة والأتباع بل إنها ستزيدهم في أكبر الظن إمعاناً في البطش بالرسول والمسلمين ، وربما نبتهم إلى تخطيط مضاد للحلف الجديد الذي أبرمه رسول الله ﷺ مع الأنصار من أهل المدينة وحملتهم على الجدد في إفساد ما تم بين الرسول وأتباعه الحديثين وإن كانت الثانية — عد ذلك تجملاً منهم أن فسحوا الطريق له ﷺ في مخرجه دون أن يعوقوه عن متجهه ، وكان ذلك في الوقت نفسه أحد الأمور التي بيتوها له ﷺ بدار الندوة ، إذ كان بينها أن يخرجوه من ديارهم على سبيل النفي أو الطرد .

فإذا خرج مستعلنًا بخروجه حقق لهم وجهاً مما كانوا يبتغون ، وأراحهم من كرب الغيظ الذي فتك بحشاشة نفوسهم ؛ وتمكن من سويدهاء أفئدتهم حين خرج عليهم ﷺ وهم في سباتهم غارقون .

على أن فيما باشره ﷺ من خروجه على ما وصف : درساً باقياً على الزمن لمن أراد التربص بعده ، فلم تكن هذه الأحداث لتقع دون أن تجد العبرة منها طريقها إلى قلوب العالمين .

يضاف إلى ما قدمناه أن فيما تم له ﷺ من مغافلة قومه حلقه من حلقات التأييد الموصول الذي ثبت الله به فؤاد رسوله ومن تابعوه ، ففى خروجه ﷺ

والقوم متربصون به ساهرون يترقبون مطلع الفجر ليجهزوا عليه وعلى دعوته فيما سولت لهم نفوسهم ، أقول : ففى خروجه هذا والقوم على هذه الهيئة واحدة من خوارق العادات التى أمد الله رسوله بها تصديقاً له فى دعوى الرسالة (١) .

ولكن قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة سيدنا عمر « رضى الله عنه » وهجرة النبى ﷺ ، ويتساءل : لماذا هاجر عمر بن الخطاب علانية متحدياً المشركين ؟ على حين هاجر رسول الله ﷺ مستخفياً محتاطاً لنفسه ؟ أليكون سيدنا عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » أشد جرأة من النبى « عليه الصلاة والسلام » ؟ وللجواب عن ذلك يقول الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى فقه السيرة : « إن سيدنا عمر بن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى .

أما رسول الله ﷺ فهو مشرع ، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا ، ولذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره . فلو أنه فعل كما فعل عمر ، لحسب الناس أن هذا هو الواجب !.. وأنه لا يجوز أخذ الحيلة والحذر ، والتخفى عند الخوف . مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها ، وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسيب الله تعالى وإرادته .

لأجل ذلك ، استعمل الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل ، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل التى يعتد بها إلا واستعملها ، فترك على بن أبى طالب ينام فى فراشه ، واستعان بأحد المشركين — بعد أن أمنه — ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تخطر على بال الأعداء ، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً ، إلى آخر ما عبأه من الاحتياطات المادية التى قد يفكر فيها العقل ، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله « عز وجل » لا ينافى استعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله « عز وجل » أن تكون أسباباً .

(١) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

وليس قيامه بذلك بسبب خوف في نفسه ، أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين قبل وصوله المدينة . والدليل على ذلك أنه « عليه الصلاة والسلام » بعد ما استنفذ الأسباب المادية كلها ، وتحلق المشركون بالغار الذي يختبئ فيه رسول الله ﷺ وصاحبه بحيث لو نظر أحدهم عند قدمه لأبصر الرسول ﷺ استبد الخوف بقلب أبي بكر « رضى الله عنه » على حين كان يطمئنه « عليه الصلاة والسلام » قائلاً : يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولقد كان من مقتضى اعتماده على كل تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع في تلك الحال .

لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات إذن وظيفة تشريعية قام بها ، فلما انتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطاً بالله « عز وجل » معتمداً على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلا على الله « عز وجل » ، ولكن لا ينافي ذلك احترام الأسباب التي جعلها الله في هذا الكون أسباباً .

ومن أبرز الأدلة على هذا الذي نقوله أيضاً ، حالته عندما لحق به سراقه يريد قتله وأصبح على مقربة منه . لقد كان من مقتضى كل تلك الاحتياطات الهائلة التي قام بها ، أن يشعر بشيء من الخوف من هذا الذي يَجِدُ في اللحاق به بل كان مستغرقاً في قراءته ومناجاته مع ربه ؛ لأنه يعلم أن الله الذي أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين في كتابه المبين^(١) .

وكما يقال في الاستخفاء في الخروج فقل مثله في الاختفاء في غار ثور ثلاثة أيام حتى ينقطع الطلب .

رابع عشر : في نسج العنكبوت على فم الغار الذي اختبأ فيه الرسول وصاحبه أبو بكر ، أثر بالغ في رد الطلب عن الرسول ﷺ وصاحبه ، فرغم أنهم كانوا على بعد خطوات من الرسول وصاحبه ولو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما كما قال سيدنا أبو بكر إلا أن عناية الله وحفظه صرفتهم ، وأعمت أبصارهم ، وفي هذا مثل من أمثلة العناية الإلهية برسله ودعائه وأحبابه ، فما كان فضل الله تعالى

(١) فقه السيرة للبوطي ص ١٤٥ ، ١٤٦

ورحمته بعباده ليسمح بوقوع الرسول في يد المشركين ، فيقضى بذلك على رسول الله ﷺ وعلى دعوته ، وهو الذى أرسله رحمة للعالمين ، كما أن في هذه المعجزة أيضاً دليلاً على أن الله « سبحانه وتعالى » يقف بجوار دعائه المخلصين في وقت الشدة وينقذهم من المآزق الحرجة ، ويعمى عنهم في كثير من الأحيان أبصار المتربصين لهم بالشر والغدر ، وليس في نجاة الرسول وصحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في « غار ثور » إلا تصديق لقول الحق « تبارك وتعالى » ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) ولقوله أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) .

خامس عشر : في خوف أبى بكر وهو في الغار من أن يراها المشركون مثل لما ينبغي أن يكون عليه جندى الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته . فما كان أبو بكر ساعثاً بالذى يخشى على نفسه من الموت ، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين . وفي جواب الرسول ﷺ لأبى بكر تطمين له على قلعه « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره ، والاتكال عليه عند الشدائد وهو دليل واضح على صدق الرسول ﷺ في دعوى النبوة ، فهو في أشد المآزق حرجاً ، ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان إلى أن الله الذى بعثه هدىً ورحمة للناس لن يتخلى عنه في تلك الساعات ، فهل ترى مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة ، منتحل صفة الرسالة ؟ وفي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحاً بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمتحلين لاسمه ، أولئك تفيض قلوبهم دائماً وأبداً بالرضا عن الله ، والثقة بنصره ، وهؤلاء يتهاونون عند المخاوف وينهارون عند الشدائد ثم لا تجد لهم من الله ولياً ولا نصيراً (٣) .

(١) سورة غافر ٥١ .

(٢) سورة الحج ٣٨ .

(٣) السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعي ص ٨٦ ، ٨٧ .

الفصل الثالث

صفات المهاجرين كما تحدث عنها القرآن الكريم

لما كانت الهجرة من الأحداث العالمية الكبرى التى أراد الله لها أن تكون متحولاً لعالم جديد . عالم يقدر المثل العليا ويضحى في سبيلها .

وشاء الله أن تكون هذه الصفوة المختارة من أصحاب النبي ﷺ خير أمة أخرجت للناس ، كما اقتضت حكمة المولى « سبحانه وتعالى » أن يحصهم ويختبرهم ليميز الخبيث من الطيب . كما اقتضت حكمة المولى « سبحانه وتعالى » أن يجعل طريق الإيمان محفوفاً بالصعوبات لبناء هؤلاء العظماء من أصحاب النبي ﷺ ، ولقد علم أولئك الأبطال أنهم سيستهدفون لإيذاء كثير فقد سمعوا قول ربهم : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) وسمعوا : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

ثم سمعوا قول نبيهم لابن الأرت : « لقد كان من قبلكم يمشط يمشط الحديد ما دون عظامه من لحم ، أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله — زاد بيان — والذئب على غنمه » (٣) .

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢) سورة الأنعام ٣٤ .

(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ

كما أن النبي ﷺ عرف منذ اليوم الأول لرسالته أنه سيواجه كثيراً من العقبات والصعوبات ، وأنه سيهاجر من مكة ؛ فلقد سمع من ورقة بن نوفل : « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال : أومر جى هم ؟ قال : نعم . لم يأت نبي بمثل ما جئت به إلا أودى » (١) .

ولو أن دعوات الأنبياء اقترنت بمنفعة شخصية لمن يؤمن بدعوتهم لتكالب على الاستجابة لهم الغناء الكثير الذى لا خير فيه ، ولترفع كبار النفوس عن الزحام والمصارعة على انتزاع تلك المنافع ..

إن بعض المؤلفين فى أيامنا هذه يحاولون أن يجعلوا الإسلام صورة من الثورات التى تحدث نتيجة لصراع بين طوائف المجتمع . فيتخذون من إسلام بلال وغيره من المستضعفين صورة لطائفة تشرئب لنيل الحرية .

والله يعلم أن هؤلاء لم يفكروا حين بادروا إلى الإسلام بشئ من ذلك . وإلا فقد كان سادتهم مستعدين لإعطائهم ما يريدون لو علموا أن ذلك سيجعلهم يرتدون عن إسلامهم . ولما كنا نحن المسلمين اليوم ننظر فى مستقبلنا فلا نرى إلا الظلام واليأس ، فإذا رجعنا النظر إلى ماضى الإسلام والمسلمين المشرق بسبب تمسكهم بكتاب ربهم وبسنة نبيهم اعتقدنا اعتقاداً جازماً أنه لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . ومن هنا كان من ألزم الواجبات علينا الآن أن نكشف عن مظاهر العظمة الإنسانية فى هذا الجيل الفذ . إذ ما أخرجنا إلى ذلك اليوم حيث لا أمل إلا فى الاقتداء بهؤلاء .

لذا فسوف نحاول إبراز مظاهر العظمة فيهم من خلال التعرف على بعض صفاتهم وأخلاقهم مستعينين بالله .

فنجد أن أول ما يلفت نظرنا من تلك الصفات هى صفة :

الإخلاص : التى هى أول صفة تقترن بالإيمان الحق .

ولكن ما مفهوم هذه الصفة الكريمة : يقول صاحب كتاب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين والإخلاص بكسر الهمزة مصدر أخلص ، قال الراغب فى

(١) السابق كتاب بدء الخلق باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

مفرداته : الإخلاص التعرى عما دون الله تعالى أ . هـ ، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : الإخلاص أفراد الحق « سبحانه وتعالى » في الطاعات بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق واكتساب محمدة عند الناس ؛ أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى . قال ويصح أو يصلح أن يقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين « وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة » أى الظاهرة (و) الأعمال ' والأقوال والأحوال « الخفية » ؛ والنية واجبة أول كل فعل شرعى لتوقف صحته عليها « (١) .

ولأهمية صفة الإخلاص أمرنا الله « تبارك وتعالى » في قرآنه الكريم بالالتزام بها في عبادتنا له . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٢) .

كما أخبرنا النبي ﷺ أن الإخلاص شرط لقبول الأعمال . قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٣) ومع كون هذه الصفة من صفات القلوب التي لا ترى فقد تجلت واضحة في سلوك أولئك المهاجرين الذين تركوا وطنهم وأهلهم وأموالهم وخرجوا إلى غربة لا يعلم إلا الله مداها وطريق حافل بالأخطار والصعوبات ، وقد كان يمكنهم أن يعيشوا أفضل حياة دنيوية لو استجابوا لما دغاهم إليه قومهم ، لكن إخلاصهم في معتقداتهم وسمو نفوسهم وأرواحهم وسيطرة إيمانهم الكامل عليهم — كل ذلك جعلهم يهجرون كل المتع الزائلة والمظاهر الخادعة والرغبات الشيطانية ، ويتوجهون بنفوس صافية وأرواح طاهرة مخلصه إلى ربهم وما يأمرهم به ، ثم إلى نبيهم وما يدعوهم إليه مبتغين في كل ذلك الفضل والرضوان من الله « سبحانه وتعالى » وحده . قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ

(١) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . للشيخ محمد بن علان الصديق الشافعي الأشعري

المكي ج ١ ص ٣٤ .

(٢) سورة البينة الآية رقم ٥ .

(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحي ، كتاب الإيمان باب ما جاء إن الأعمال بالنية ، كتاب بدء الخلق

باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه للمدينة .

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿١﴾ .

وثانى هذه الصفات نصر الإسلام ودعوته :

ومن منطلق حقيقة الإخلاص تنشأ المواقف الرائعة لأولئك المهاجرين الذين أرادوا منها نصره الإسلام ودعوته ؛ فقد وصفهم القرآن الكريم بذلك . قال تعالى : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٢) « ولعل من أعظم نماذج المهاجرين الذى تتجلى فيه نصره الله ورسوله هذا النموذج الرائع المتمثل فى أبى بكر الصديق حتى استحق بجدارة أن يقول فيه رسول الله ﷺ :

« ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة ، وما نفعى مال أحد قط ما نفعى مال أبى بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن صاحبكم خليل الله » (٣) .

ولعل القارىء الكريم على ذكر من دوره البارز فى إنجاح هجرته ﷺ وخروجه من مكة إلى المدينة سالماً معافى ، حيث جند ابنه عبد الله لتتبع الأخبار فى قريش — وقت اختباء الرسول وصاحبه فى الغار — وإخبار الرسول والصديق بها كما جند راعى غنمه ، عامر بن فهيرة للقيام بعملية الإمداد والتأمين لهما فى الغار ، وإزالة آثار أقدام عبد الله أيضاً لكى لا تدل القوم على مكان اختباء الرسول والصديق .

ثم لم يزل الصديق « رضى الله عنه » على هذا النحو الفذ العبقري المتفانى فى نصر الله ورسوله إلى آخر يوم فى دهره .

وما إتيانه بماله كله يوم أن خرج مهاجراً مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة كما أخبرتنا بذلك أسماء بنت أبى بكر حيث قالت « لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه احتمال أبو بكر معه ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب

(١ ، ٢) سورة الحشر آية رقم ٨ .

(٣) سنن الترمذى كتاب المناقب باب مناقب أبى بكر ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من

هذا الوجه .

بصره . فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه قالت : قلت : كلا يا أبت قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فجعلتها في كوة في البيت كان أبي يجعل فيها ماله ثم جعلت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت ضع يا أبت يدك على هذا المال ! قالت : فوضع يده عليه ، فقال لا بأس إن كان ترك لكم هذا لقد أحسن وفي هذا لكم بلاغ . قالت : ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك « (١) . أقول ما ذلك بمجهول ولا منكور . وكذلك إتيانه بكل ما عنده من المال ووضعه بين يدي النبي ﷺ عند تجهيز جيش العسرة لغزوة تبوك ليس بمجهول أو مما يمكن أن يكون لمثله نظير ، وما جوابه على النبي ﷺ وقد سأله « ما أبقيت لأهلك » يقول رضى الله عنه « أبقيت لهم الله ورسوله حتى قال عمر — ومنزلة الفاروق في الإسلام مذكورة مشهورة — لا أسبقه إلى شيء أبداً » (٢) أقول ما ذلك كله بمجهول ولا منكور كذلك .

كذلك نرى من التماذج البارزة الروعة المتألقة العبقريّة في هذا المجال عمر الفاروق « رضى الله عنه » ذلك الذى أعز الله الإسلام به وصدق فيه دعوة نبيه « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب ، فبنى عليه الإسلام وهدم به الأوثان » (٣) .

كذلك جهره بالإسلام بمجرد أن اعتنقه بل كان أول من جهر به يقول ابن عباس « رضى الله عنه » ، أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب « (٤) كما أنه لم يدع مجلساً من المجالس التى جلسها في كفر إلا وأعلن فيه الإسلام . فعن ابن عمر أنه أتى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام . فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة فجعل يعلن الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فثار المشركون فجعلوا

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق . وقد صرح بالسماع مجمع الزوائد ج ٦ ص ٥٩ .

(٢) رواه الترمذى في كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه باختصار . وقال : أيد الإسلام . ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجاهد بن سعيد ، وهو موثق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٦٣ .

(٤) رواه الطبراني وإسناده حسن السابق .

يضرّبونه ويضربهم فلما تكاثروا عليه خلصه رجل ، فقلت لعمر من الرجل الذى خلصك من المشركين قال ذاك العاص بن وائل السهمي ^(١) . وكذلك لما طلب من رسول الله ﷺ يوم بدر ألا تأخذه في المشركين لومة لائم حين استشار الرسول أصحابه في أمر أسرى المشركين .

روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب في حديث غزوة بدر الطويل قول عمر في هذا الحديث « فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يابى الله هم بنوا العم والعشيرة ؛ أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه وتمكنى من فلان « نسيباً لعمر » فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يكيان . قلت يا رسول الله أخبرنى : من أى شئ تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة « شجرة قريبة من نبي الله ﷺ » وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ ^(٢)

ومن النماذج البارزة الروعة أيضاً سيدنا على بن أبى طالب « رضى الله عنه » الذى ضحى بنفسه ونام في فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ؛ لكى يمكنه « عليه الصلاة والسلام » من الخروج من مكة إلى المدينة سالماً دون أن يلحقه أى أذى من المشركين .

والذى كان من أوائل المبارزين في قتال المشركين يوم بدر .

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات « السابق ص ٦٥ » .

(٢) رواه الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم .

وكذلك من هذه النماذج الفذة التي فاقت الوصف سيدنا عثمان « رضى الله عنه » الذى ضحى كثيراً من أجل نصرة الإسلام ورسوله ، وما موقفه يوم الحديبية حينما استجاب لطلب رسول الله ﷺ منه حين أمره الرسول أن يذهب لمكة إلا بصورة من صور التضحية بالنفس ، رغم أنه كان من الجائز أن يقتل رضوان الله عليه (١) .

وأيضاً إتيانه بالمال الكثير فى تجهيز جيش العسرة فى تبوك .

روى الترمذى عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار . قال الحسن بن رافع وكان فى موضع آخر من كتاب فى كنهه حين تجهز جيش العسرة : فينثرها فى حجره ويقول : ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم . مرتين « (٢) وعن ثَمَامَةَ بْنِ حَزْنٍ الْقَشِيرِي قَالَ : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ، فقال : اتئوتى بصاحبكم اللذين ألباكم على . قال : فجاء بهما فكأنهما جملان أو كأنهما حماران . قال : فأشرف عليهم عثمان فقال : أنشدكم بالله والإسلام : هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ؟ فقال من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى : فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها حتى أشرب من ماء البحر . قالوا : اللهم نعم . قال : أنشدكم بالله والإسلام : هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين . قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعملون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا : اللهم نعم . ثم قال : أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحضيض ، قال : فركضه برجله وقال : اسكن ثبير فأئما عليك نبى وصديق وشهيدان ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : الله أكبر ، شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد ثلاثاً « (٣) .

(١) انظر الترمذى كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان .

(٢) الترمذى كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من

هذا الوجه .

(٣) المرجع السابق وقال عنده أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد روى من غير وجه عثمان .

وإذا ذكرت نصرة المهاجرين للإسلام فما ينبغي أن نغفل موقف مصعب بن عمير سفير النبي ﷺ إلى المدينة داعياً إلى الإسلام ، وكيف نجح في مهمته حتى دخل الإسلام كل بيوت المدينة لجمال عرضه وقوة حجته وحسن حديثه ولباقة فكان خير من يقوم بهذا .

وثالث هذه الصفات الصدق :

وليست هذه الصفة بمعزل عن الإخلاص بل هي عنوانه وترجمانه وصورته الظاهرة في سلوك أصحابه ؛ فالإخلاص معنى في القلب لا يدركه إلا مقلب القلوب الذي يعلم السر وأخفى ، والصدق يكون في القول وفي العمل وقبل ذلك في الاعتقاد ، وهذا الأخير هو الإخلاص الذي يكشف عنه المواقف وتمحصه الشدائد والحن . ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (١) .

وإذا بحثنا عن موقف أولئك المهاجرين وجدناهم واجهوا أقصى المصاعب وتحملوا كل ألوان الإيذاء صابرين محتسبين ، بل سعداء بما أصابهم في سبيل ربهم . وما ذلك إلا لأنهم قد صدقوا في إيمانهم فأخلصوا لله « سبحانه وتعالى » في أعمالهم ، من أجل ذلك استحقوا أن يسميهم الله بالصادقين . قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) وهناك مواقف كثيرة تكاد لا تحصى يظهر لنا فيها توطن هذه الصفة في نفوسهم .

والصدق في الإسلام من أهم الصفات التي يجب أن يلتزم بها المؤمن « فهو يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » (٣) وما أحوجنا في عصرنا إلى المؤمن الصادق في وقت فشا فيه الكذب ، وانتشر النفاق وافتقدت الثقة فتمزق المسلمون شر ممزق وأصبحوا كغشاء السيل ، وصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم أكثر مما يفعله بهم عدوهم .

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٤٢ .

(٢) سورة الحشر الآية رقم ٨ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الأدب باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ وما ينهى عن الكذب .

رابع هذه الصفات : التضحية :

والحديث عن الصديق المنبثق من الإخلاص في الإيمان يقتضينا التماس آثاره في مواقف التضحية الغالية ، والتي تحدث عنها القرآن الكريم في غير موضع . قال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ (٤) فقد ضحى المهاجرون بكل شيء من أجل إعلاء كلمة الإسلام ونصرة دين الله ، سواء في خروجهم من ديارهم وتركهم لكل ما يملكون خلفهم أو لمحاربتهم أعداء الله في الغزوات التي وقعت بين المسلمين وأعداء الإسلام ، فقد كانوا يضربون المثل في التضحية في سبيل الله . من أجل ذلك فهم من أول المقصودين بقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (٥) .

خامس هذه الصفات : الصبر :

وحقيقة الصبر كما يقول الراغب في المفردات :

« الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه ، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ويضاده الجزع ، وإن كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان من نائبة مضجرة سمي رغب الصدر ويضاده الضجر ، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ويضاده الهذر وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً ونبه عليه بقوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (٦) »

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٠ .

(٣) سورة الحج جزء من الآية رقم ٤٠ .

(٤) سورة الحشر جزء من الآية رقم ٨ .

(٥) سورة التوبة جزء من الآية ١١١ .

(٦) سورة البقرة جزء من الآية رقم ١٧٧ .

﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾^(١) ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾^(٢) .
 وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾^(٣) « أى احبسوا
 أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم »^(٤)

وقد تجلت فضيلة الصبر بكل معانيها السابقة فى سلوك المهاجرين ومواقفهم
 من الهجرة ، حيث احتملوا ما تعجز عنه طاقات البشر إلا من اختصهم الله
 بالتأييد وتقوية العزائم . قال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
 الْأُمُورِ ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوَّتْهُمْ فِي
 الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
 وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٧) .

جزاء المهاجرين

المهاجرون هم أول من آمنوا بهذا الدين الإسلامى ، وكافحوا
 كفاحاً مبرراً من أجله ، وجادوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل تبليغه إلى
 الناس ، وإعلاء كلمته . وضربوا فى ذلك أروع الأمثلة فى الفداء
 والجهاد .

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ ، ويقينهم الخالص لم يكتفوا الجاهلية فى
 مكة من وأد الدعوة ، وهى فى مستهل حياتها ، لقد استمسكوا بما أوحى

(١) سورة الحج جزء من الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب جزء من الآية ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران جزء من الآية ٢٠٠ .

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٥) سورة الشورى الآية ٤٣ .

(٦) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٧) سورة النحل الآية ١١٠ .

إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه وآمنوا به .
فلما أسرفت الجاهلية في عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء
المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم ، ويمموا
صوب المدينة ليس رهبة من الكفر ولا رغبة في الدنيا ، ولكنهم كانوا
بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلاً منه ورضواناً .

لذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل في الدنيا ، وما أعده
لهم يوم القيامة من ثواب عظيم .

وهذه بعض النعم التي أعدها الله « سبحانه وتعالى » للمهاجرين في
الدنيا والآخرة .

١ — سعة رزق الله لهم في الدنيا :

إن المنهج الرباني القرآني عاجل مخاوف النفس المتنوعة ، وهي تواجه
مخاطر الهجرة في مثل الظروف التي كانت قائمة عند هجرة الصحابة
« رضوان الله عليهم » من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، والتي قد تتكرر
بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في بعض الأحيان ، وقد عاجل هذه النفس
في وضوح وفصاحة فلم يكتف عنها شيئاً من المخاوف ، ولم يدار عنها شيئاً
من الأخطار ، بما في ذلك خطر الموت ، ولكنه سكب فيها الطمأنينة
بحقائق أخرى وبضمانة الله « سبحانه وتعالى » . فهو يحدد الهجرة بأنها في
سبيل الله وهذه الهجرة المعتبرة في الإسلام فليست هجرة للثراء أو هجرة
للنجاة من المتاعب أو هجرة للذائد والشهوات ، أو هجرة لأى عرض
من أعراض الحياة ومن يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله — يجد في الأرض
فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة
وللرزق وللحياة ، وسيجد الله في كل مكان يذهب إليه (١) . يسكنه وغيره
من المهاجرين مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء
مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها في الدنيا فيمكن لهم في البلاد ، ويصيرهم أمراء

(١) في ظلال القرآن ج ٢ ص ٧٤٥ .

وحكاماً ، ويجعلهم للمتقين إماماً^(١) . قال تعالى متحدثاً عن ذلك في القرآن الكريم :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾^(٢) .
وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾^(٣) .

٢ — مغفرة ذنوبهم والعفو عن أخطائهم :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) . وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾^(٦) .

هذه هي صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقي لهذا الدين ، وهذه هي الصورة الحقيقية التي يتمثل فيها الإيمان ، وإنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ، ولا بمجرد اعتناقها ، ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها .. إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي إلا إذا تمثل في تجمع حركي . أما وجوده في صورة عقيدة فهو وجود حكيم لا يصح « حقاً » إلا حين يتمثل في تلك الثورة الحركية الواقعية وهؤلاء المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم ورحمة من الله : سبحانه وتعالى »^(٧) .

(١) تفسير المازني ج ١٤ ص ٨٥ بتصرف .

(٢) سورة النساء الآية رقم ١٠٠ .

(٣) سورة النحل الآية رقم ٤١ .

(٤) سورة النحل الآية رقم ١١٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٥ .

(٦) سورة الأنفال الآية رقم ٧٤ .

(٧) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٥٦٠ بتصرف .

٣ — ارتفاع منزلتهم وسمو درجاتهم عند ربهم :

فالذين نالوا فضل الإسلام والهجرة والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لهم أعظم الدرجات عند الله . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) .

يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة :

« إن الموصوفين بهذه الصفات الأربعة في غاية الجلالة والرفعة ؛ لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة : الروح ، والبدن ، والمال . أما الروح فلما زال عنه الكفر وحصل فيه الإيمان ، فقد وصل إلى مراتب السعادات اللائقة بها . وأما البدن والمال فبسبب الهجرة وقعا في النقصان وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا معرضين للهلاك والبطلان . ولا شك أن كلاً من النفس والمال محبوب للإنسان . والإنسان لا يعرض عن محبوبه إلا للفوز بمحسوب أكمل من الأول ، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال ، وإلا لما رجحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله تعالى .

فثبت أن عند حصول الصفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى آخر درجات البشرية وأول مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كل من سواهم من البشر على الإطلاق ؛ لأنه لا يعقل حصول سعادة وفضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصفات (٢) .

٤ — استحقاقهم الجنة والخلود فيها :

فالله سبحانه وتعالى وعد هؤلاء المهاجرين من الطغيان إلى أرض أخرى يستطيعون فيها بث دعوة ربهم ويأخذون منها منطلقاً ينطلقون منه إلى كل أرجاء الدنيا وعندهم برضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم — لا يزول علي عظميه وكاله — لا يقدر قدره إلا الله ، تفضل به عليهم ومنحه لهم بسبب إيمانهم الكامل الباعث على هجرتهم

(١) سورة التوبة الآية رقم ٢٠ .

(٢) الفخر الرازي ج ١٦ ص ١٣ وما بعدها بتصرف .

لوطنهم ومفارقتهم لأهلهم ولمساكنهم ، وعلى إنفاقهم المال الذى هو أحب شئ إلى النفس وعلى بذلهم لأنفسهم التى هى أغز شئ على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم ربهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمانى ، فالأول الرحمة والرضوان وهو نهاية الإحسان ، وهو أعم النعيم وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝ (١) .

والثانى : هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وهذا فوز ما بعده فوز (٢) .

يقول سبحانه وتعالى فى كل ما تقدم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ (٤) .

* * *

(١) سورة التوبة الآية رقم ٧٢ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٠ ص ٧٨ وما بعدها بتصرف .

(٣) سورة التوبة الآية رقم ٢٠ : ٢٢ .

(٤) سورة التوبة الآية رقم ١٠٠ .

الفصل الرابع

أهم النتائج المترتبة على الهجرة

يوم له ما بعده

مستعيناً بالله أحاول أن أتأمل في الهجرة وما كان لها من آثار كبار في تغيير مسار التاريخ كله حتى عصرنا وما بعد عصرنا .

وأقرر ابتداءً أنى لم أتهيب الإقدام على الكتابة في أى مجال قدر تهيبى في هذا الموقف ، إذ أشعر بالعجز الكامل عن الإحاطة بهذه الآثار ، ثم أشعر كذلك بالعجز الكامل عن تصوير القليل الذى أعرفه . فالحقيقة فوق ما أطيق وفوق ما يطيق كل كاتب ، وما أدركه فوق القدرة على التعبير عنه .

وإنى وشعورى بالإشفاق من الإقدام على هذا العمل أجد أن أضواء الإيمان وأريج المواقف وشموخ الرجال وسمو المبادئ والإنسانيات العليا تشدنى إليها ؟ فألثفت نحوها في إكبار ما وراءه أكبار ... وأوازن بين رجال ورجال فأرى الفرق كبيراً بين العمالقة والأقزام ، ووسط الانهار بعظمة الرجال وبطولات الأبطال أشعر بأن طريقنا اليوم للخلاص من الذلة والهوان الذى صرنا إليه حتى تحقق فينا قول نبينا ﷺ وأنتم يومئذ كثير . ولكن يلقي في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال ^(١) وقد تداعت علينا الأمم ، فصرنا طعمة لكل طاعم ونهبة لكل ناهب . أقول ليس أماننا إلا طريق واضح وهو العودة إلى تراثنا الخصب . هذا التراث الذى أخرج للعالم خير أمة أخرجت للناس ، وكانت الهجرة مجالاً لإظهار هذه الإنسانيات المناضلة

(١) رواه أحمد وأحمد والطبرانى في الأوسط بنحوه ، وإسناد أحمد جيد « مجمع الزوائد » ج ٧ ص ٢٨٧ .

التي سعد بها الكون .
ولأفأين فءائفة ابن ألى طالب ؟ — وءضحية الصءىق ؟ — والءقة فى نصر
الله ؟ وإفثار الأنصار ؟ .

وقء هالئى ما تركه هءا الءاءء من آءار لا تزال ءمءء إلى الآن ، وسوف
ءظل إلى آخر الزمن ، فهءا يوم له ما بعءه ءءى ءقوم الساعة .

فكل مظاهر الحضارة الءى ءعفشها الإنسانفة كلها إنما ءءىن بوءوءها لهءا
الءوم الءى كان فارقاً بفن عهدفن ؛ فءحمل اللواء ءسفر وراءه كل كءائب الءق
والءفر فحملون النور لفزفلوا غفاهب الظلماء .

ولقد أءركء أن صعوبة البءء فى أمر له كل هءه المآءر أشق من مءاولء
البءء عن شئف لفس له كءفر من الآءار . فالءفرة فى الاءءفار بفن المواقف
وءرءفب النءافج وإبراز أهمها والءعرف على ءرءفبها أمر ففر ممكن . ءلك لأن عظمة
ما ءلاها وسرعة ءءطور وءفاعل المواقف بعضها مع بعض ، وما فءرءب علفها من
مواقف لفسء أقل منها أثراً لءءفاعل هى الأءرى بءء بفء الإنسان نفسه وقء
عقءء لسانه الءهشة وعقل فكره الانبهار . ولكنى أسءفن بالله فى أن أءلى بءلوى
فى هءا المفءان وهو ءلو صفر إذا قورن بففره من ءلاء ، وأبءأ ءءفئى بالأسس
الءى وءعها النبى ﷺ لبناء أول مءءمع مسلم أءفر عنه ربنا سبحانه وءعالى —
بأنه ﴿ خفر أمة أءرفء للناس ﴾ .

الءعائم الءى أقامها الرسول لبناء المءءمع الإسلامى

لقد كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المءفنة ، ءعنى نشأة أول ءار إسلام إء
ءاك على وءه الأرض ، وقء كان ءلك إفءاناً بظهور ءولة الإسلامفة بإشراف
الرسول ﷺ المنشئف الأول لها .

ولءا فقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ ، أن أقام الأسس المهمة لهءه
الءولة (١) ، ولقد كانت هءه الأسس ممءلة فى هءه الأعمال الءالءة الءالفة :

(١) فقه السفرة للبوطى ، ص ١٥١ .

أولاً : صلة الأمة بالله ، وذلك عن طريق بناء المسجد النبوى الشريف .
ثانياً : صلة الأمة بعضها ببعض وتمثل فى المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة .

ثالثاً : صلة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون بدينها ، وذلك بكتابة وثيقة « دستور » حدد نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم بغيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة .

« الدعامة الأولى »

وهى الاهتمام بالجانب الروحى ، وذلك عن طريق بناء المسجد النبوى الشريف .

وأول عمل قام به رسول الله ﷺ بالمدينة هو بناء المسجد ، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التى طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التى تربط المريد بـ العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدنيا^(١) .

وقد بنى رسول الله ﷺ مسجده فى المدينة بالمكان الذى بركت ناقته فيه .
روى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلته ؛ « فصار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصل فى يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً^(٢) للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زرارة^(٣) . فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته « هذا إن شاء الله المنزل » ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذاه مسجداً فقالا : لا بل نهيه لك يا

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ، ص ١٩١ .

(٢) مِرْبَد بكسر الميم وسكون الراء وفتح الموحدة هو الموضع الذى يحفف فيه التمر ، وقال الأصمعى : المريد كل شئ حبست فيه الإبل أو الغنم ، وبه سمى مريد البصرة ؛ لأنه موضع سوق الإبل ، مِرْبَد من ربد المكان إذا أقام فيه وربده إذ حبسه « النهاية ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) وفى رواية أسعد بن زرارة وهو الوجه ، وكان أسعد من السابقين إلى الإسلام من الأنصار ويكنى أبا أمامة ، فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٠١ .

رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً . وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمال (١) لا جمال خير هذا أبر (٢) ربنا وأصبر

ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين (٣) .

وفي رواية أخرى :

« أن رسول الله ﷺ دخل المدينة على راحلته وأبو بكر ردفه (٤) وملاً بنى (٥) النجار حوله حتى ألقى (٦) بفناء (٧) أبي أيوب (٨) ، فكان يصلي حيث أدركته

(١) هذا الحمال بالمهملة المكسورة وتخفيف الميم أى هذا المحمول من اللبن « السابق » ج ١٥

ص ١١٦ .

(٢) هذا أبر عند الله أى أبقي ذخراً وأكثر ثواباً وأدوم منفعة وأشد طهارة من جمال خبير التى يحمل منها القمر والرييب ونحو ذلك ، ووقع في بعض النسخ في رواية المستعلى « هذا الجمال بفتح الجيم وقوله « أبر ربنا » أبر منصوبة على نزع الخافض وربنا منادى ، الفتح ، ج ١٥ ، ص ١٠٢ ، النهاية ٢ / ٢٦٠ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب هجرة النبي وأصحابه .

(٤) أبو بكر ردفه : كأن النبي ﷺ أودفه خلفه على راحلته تشريفاً له وتنويهاً بقدره ، وإلا فقد كان لأبى بكر ناقة هاجر عليها ، فتح البارى ، ج ٣ ص ٨٩ ، ويحتمل أن يكون على راحلة أخرى . قال الله — تعالى — في سورة الأنفال آية ٩ ﴿ بِالْفِئَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أى يتلو بعضهم بعضاً . ورجح ابن التين الأول وقال : لا يصح الثانى لأنه يلزم منه أن يمشى أبو بكر بين يدي النبي ﷺ ، ثم قال صاحب الفتح تعقيباً على ذلك . قلت : إنما يلزم ذلك لو كان الخبر جاء بالعكس كأن يقول « والنبي ﷺ مرتدف خلف أبى بكر » فأما ولفظه « وهو مردف أبى بكر » فلا . انتهى فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٠٦ .

(٥) ملاً بنى النجار ، أى جماعتهم ، السابق ١٥ / ١٢٥ .

(٦) حتى ألقى . أى نزل . أو المراد ألقى رحله ، السابق .

(٧) بفناء . الفناء بكسر الفاء وبالماء : ما امتد من جوانب الدار ويجمع على أفنية : النهاية ٣ / ٢١٧

بتصرف .

(٨) أبو أيوب ، هو خالد بن زيد بن كليب الأنصارى من بنى مالك بن النجار الفتح ج ١٥

ص ١٢٥ .

الصلاة ويصلى في مرابض الغنم ، ثم إنه أمر^(١) ببناء المسجد فأرسل إلى ملا بني النجار فجاءوا فقال : يا بني النجار ، ثامنوني^(٢) بحائطكم^(٣) هذا فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله^(٤) ، وكانت فيه^(٥) قبور المشركين ، وكان فيه خرب^(٦) ، وكان فيه نخل ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع ، فصفوا النخل^(٧) قبلة المسجد ، وجعلوا عضادتيه^(٨) حجارة ، وجعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون^(٩) ، ورسول الله ﷺ معهم ، يقولون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة^(١٠)

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي ﷺ يجهد كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم .

(١) أمر بالفتح على البناء للفاعل ، وقيل روى بالضم على البناء للمفعول ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .
(٢) ثامنوني بالثلاثه أذكروا لي ثمنه لأذكر لكم الثمن الذي أختاره ، قال ذلك على سبيل المساومة ، فكأنه قال ساوموني في الثمن ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .
(٣) أى بستانكم ، وقد تقدم في الحديث السابق أنه كان مربداً فلعله كان أولاً حائطاً ثم خرب فصار مربداً ، ويؤيده قوله : إنه كان فيه نخل وخرب ، وقيل كان بعضه بستاناً وبعضه مربداً ، وقد جاء أن الرسول ﷺ اشتراه منهما بعشرة دنانير ، وزاد الواقدي أن أبا بكر دفعها لهما عنه ، الفتح ج ١٥ ص ١٢٥ .
(٤) لا نطلب ثمنه إلا إلى الله : أى لا نطلب الثمن لكن الأمر فيه إلى الله أو إلى بمعنى من ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .

(٥) كانت فيه ، أى في المكان الذى بنى فيه المسجد ، السابق .
(٦) خرب : بكسر المعجمة وفتح الراء والموحدة وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه قال الخطاى : أكثر الرواة بالفتح ثم الكسر ، وحدثناه الخيام بالكسر ثم الفتح ثم حكى احتمالات منها الخرب بضم أوله وسكون ثانيه ، قال : هى الخروق المستديرة فى الأرض ، والجرف بكسر الجيم وفتح الراء بعدها فاء ما تحرفه السيول وتأكله من الأرض ، والحذب بالمهمله وبالذال المهمله أيضاً المرتفع من الأرض ، قال : وهذا لائق بقوله فسويت لأنه إنما يسوى المكان المحدوب وكذا الذى جرفته السيول ، وأما الخرب فيبنى ويعمر دون أن يصلح ويسوى ، ثم قال صاحب الفتح : وما المانع من تسوية الخراب بأن يزال ما بقى منه ويسوى أرضه ، ولا ينبغي الالتفات إلى الاحتمالات مع توجيه الرواية الصحيحة ، فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٢٥ .

(٧) صفوا النخل : أى موضع النخل . السابق .
(٨) عضادتيه : بكسر المهمله وتخفيف المعجمة تثنية عضادة ، وهى الخشبة التى على كثف الباب ، ولكل باب عضادتان ، وأعضاء كل شيء ما يشد جوانبه ، السابق .
(٩) يرتجزون : أى يقولون رجزاً وهو ضرب من الشعر على الصحيح . السابق .
(١٠) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب مقدم النبى وأصحابه للمدينة .

صفة مسجد الرسول في العهد الأول :

بنى مسجد رسول الله ﷺ في عهده باللبن ، وفرش بالرمال والحصباء ، وسقف بالجريد ، وجعلت أعمدته بالجدوع ، ولم يزد فيه شيء في عهد أبي بكر ، ثم أضيف إليه إضافات طفيفة في عهد سيدنا عمر ، أما في عهد سيدنا عثمان فقد أضيف إليه إضافات كبيرة ، روى البخارى بسنده أن عبد الله بن عمر حدث نافعاً عن مسجد رسول الله ﷺ فقال له : « كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن (١) ، وسقفه الجريد ، وعمده (٢) خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناءه على بنيانه (٣) في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشباً ، ثم غيره عثمان (٤) فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة (٥) والقصة (٦) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج (٧) ، (٨) .

ولنا هنا وقفة لا ينبغي أن يفوتنا مثلها في مثل هذا الوطن العظيم : وهى : إقبال الرسول ﷺ ، بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى راسخ متماسك ، يتألف من هؤلاء المسلمين الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة ، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد .

ولا غرو ، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامى ، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتمسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه ، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووجيه .

(١) اللبن بفتح اللام وكسر الموحدة على الصحيح — السابق .

(٢) عمدة : بفتح أوله وثانيه ويجوز ضمهما وكذا قوله خشب — الفتح ج ٣ ص ١٠٨ .

(٣) أى زاد عمر في بنيانه بجنس الآلات المذكورة ولم يغير شيئاً من هيئته إلا توسيعه ، الفتح ج ٣

ص ١٠٨ .

(٤) ثم غيره عثمان أى من الوجهين التوسيع ، وتغيير الآلات ، المرجع السابق .

(٥) بالحجارة المنقوشة بدل اللبن ، الفتح ٣ / ١٠٨ .

(٦) القصة : بفتح القاف وتشديد الصاد والمهملة وهى الجصّ بلغة أهل الحجاز وقال الخطاى : تشبه

الحصص . وليست به ، السابق .

(٧) وسقفه بالساج : الساج نوع من الخشب معروف ويؤتى به من الهند ، الفتح ج ٣ ص ١٠٨ .

(٨) صحيح البخارى ، ج ١ ص ١٢١ ، كتاب الصلاة باب ببيان المسجد .

ففى المسجد تتم آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين التى يحرص الإسلام على شيوعها بينهم ، فما لم يتلاق المسلمون دائماً ، على مرات متعددة فى بيت من بيوت الله ، وقد تساقطت من بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار ؛ لا يمكن لروح التآلف والتآخى أن تؤلف بينهم .

كما أن من نظام الإسلام وآدابه ، أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين فى مختلف شئونهم وأحوالهم ، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاء واحداً بين يدى الله « عز وجل » ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية ، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله ، ومهما ينصرف كل مسلم إلى بيته يعبد الله ويركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع فى العبادة ، فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب فى المجتمع على معانى الأثرة والتعالى والأنانية .

وإن من نظام الإسلام وآدابه كذلك ، أن ينصهر أشتات المسلمين فى بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبلى الله الذى هو حكمه وشرعه ، ولكن ما لم تقم فى أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تتحول إلى شتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء (١) .

ومن فوائد المساجد كذلك أنها مركز لانطلاق جحافل الجيوش الإسلامية لغسر الأرض بهداية الله وهذا ما أثبتته التاريخ ، بل إن منها انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم ، وفيها ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت ، وهل كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وخالد ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامى إلا تلامذة المدرسة المحمدية التى كان مقرها المسجد النبوى ؟ وميزة أخرى للمساجد فى الإسلام وهى أنها تنبعث منها كلمة الحق مدوية مجلجلة على ألسنة العلماء فى إنكار منكر أو أمر بمعروف أو دعوة إلى خير ، أو حفاظ من غفلة ، أو دعوة إلى تجمع ، أو احتجاج على ظالم أو تحذير لطاغية ، ولقد شهدنا فى العصور السالفة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركات الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين والإنجليز ، يلجأ إليها زعماء الجهاد

(١) فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ضد الاستعمار وضد الصهيونية ، وإذا كنا نرى تعطيلها اليوم عن قيامها بوظيفتها الكبرى ، فما ذلك إلا ذنب بعض الخطباء من الموظفين أو الجاهلين الغافلين ، ويوم يعتلى منابرهما ويؤم محاريبها دعاة أشداء في الحق ، علماء بالشرعية ، يعود للمسجد في مجتمعنا الإسلامى ، مكان الصدارة في مؤسساتنا الاجتماعية ، ويعود للمسجد ليعمل عمله في تربية الرجال ، وإخراج الأبطال ، وإصلاح الفساد ، ومحاربة المنكر ، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه^(١) .

« المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار »

أما عن صلة الأمة بعضها ببعض فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الذى تذوب فيه عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تبرز في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال^(٢) .

والسبب الذى أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده نشأهم دينهم الذى اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا ، وعلمهم الإيمان والعمل جميعاً فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التى لا تتجاوز أطراف الألسنة . وكانوا على النحو الذى حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣) .

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعى ، ص ٩١ وما بعدها .

(٢) فقه السيرة للغزالى ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ بتصرف .

(٣) سورة النور آية رقم ٥١ .

وبذلك الذى درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة التى شد الله بها أزر دينه ورسوله حتى آتت ثمارها فى كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ ، وامتد أثرها فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصديق « رضى الله عنه » دون أن تطوع للأنصار أنفسهم أن يحدثوا صدعاً فى شمل الأمة مستجيبين فى ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة . لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من الإعجاز السياسى .

الذى اتبعه رسول الله ﷺ فى تأصيل المودة وتمكينها فى مشاعر المهاجرين والأنصار ، الذين سهرروا جميعاً على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء ، بل وكانوا يتسابقون فى تنفيذ بنوده (١) .

ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيراً من حديث الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقد قامت هذه الأخوة على أسس مادية أيضاً ، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه الظواهر المادية . وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة إلى موقعة بدر الكبرى ، حيث نزل فى أعقابها قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطع أثر المؤاخاة الإسلامية فى الميراث ، ورجع كل إنسان فى ذلك إلى نسبه وذوى رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم إخوة .

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ

(١) فصول من السيرة النبوية للدكتور عبد المنعم السيد حسن ، ص ٢٠٠ بتصرف .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٩ .

(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٧٥ .

أَيَّمَاكُمْ ﴿١﴾ أى من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له (١).

ومن اللافت للنظر أن المهاجرين — رضوان الله عليهم — لم يستغلوا حفاوة الأنصار بهم ليعيشوا كلاً عليهم ، بل أخذوا يسعون ويكدون فى سبيل العيش ، فاشتغل بعضهم بالتجارة فى أسواق المدينة ، واشتغل بعضهم بالزراعة فى أرض الأنصار .

ويظهر هذا واضحاً فيما رواه البخارى بسنده عن أنس « رضى الله عنه » قال : « قدم عبد الرحمن بن عوف فأخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صُفْرَةٍ . فقال النبى ﷺ : مَهَيْمُ يا عبد الرحمن . قال : يارسول الله تزوجت امرأة من الأنصار ، قال : فما سُقَّتْ فيها ، فقال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبى ﷺ : أولم بشاة (٢) .

وإعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إعجاب إلا بإعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم ، وبزَّهم فى ميدانهم ، واستطاع — بعد أيام — أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو المهمة من خلائق الإيمان ، وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم .

وكان رسول الله ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة ، وفى هذه الأخوة السمحة جاء قوله ﷺ لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لانتخذته — يعنى أبا بكر خليلاً — ولكن أخوة الإسلام أفضل (٣) .

وقد تبودلت الأخوة بين هؤلاء المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا بالإسلام فى نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض !! .

(١) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة النساء .

(٢) السابق ، كتاب بدء الخلق ، باب مناقب الأنصار .

(٣) السابق ، كتاب بدء الخلق ، باب مناقب المهاجرين .

ما يستفاد من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

إن ما قام به الرسول ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار له أهمية كبرى بالنسبة للدولة الإسلامية الأولى تظهر فيما يلي :

أولاً : إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخى والمحبة المتبادلة ، فكل جماعة لا تُؤَلَّفُ بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

على أن التآخى أيضاً لا بد أن يكون مسبقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها . فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للآخرى ، خرافة ووهم ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية . ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التى جاءهم بها من عند الله تعالى والتى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى ، دون الاعتبار لأى فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح ، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة ؛ فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه (١) .

ثانياً : تطبيق هذه الأخوة فى الواقع العملى لحياة الصحابة « رضوان الله عليهم » إن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ تاريخى لم يكن مجرد شعار فى كلمة أجراها على ألسنتهم ، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين .

ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسئولية تؤدى فيما بينهم على خير وجه ، وحسبنا دليلاً على ذلك ما قام به سعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف ، إذ عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يشرّكه فى بيته وأهله وماله فى قسمة متساوية .

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٥٦ وما بعدها .

ولكن عبد الرحمن بن عوف شكره وطلب منه أن يرشده على سوق المدينة ليشغل فيها ، ولم يكن سعد بن الربيع منفرداً عن غيره من الأنصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة في علاقتهم وتعاونهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد الهجرة وبعد أن آخى النبي ﷺ فيما بينهم . ولذلك أيضاً جعل الله « سبحانه وتعالى » حق الميراث منوطاً بهذا التأخي ، دون حقوق محسوسة في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التأخي والتحاب ليس شعاراً وكلاماً مجردين ، وإنما هي حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية .

أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة ، فيما بعد ، فهي أن نظام الميراث الذي استقر أخيراً ، إنما هو نفسه قائم على أخوة الإسلام بين المتوارثين ، إذ لا توارث بين دينين مختلفين ، إلا أن الفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة ، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان ما أقامه الرسول ﷺ من التأخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضماناً لتحقيق هذه المسئولية . ولقد كان من مقتضى هذه المسئولية أن يكون هذا التأخي أقوى في حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة .

فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها ، وغدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة ، وأصبح المهاجرون ذوي أموال استغنوا عن معونة إخوانهم الأنصار المالية ؛ فأصبح من المناسب نسخ هذا الحكم إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك والتميع في ظل الأخوة الإسلامية العامة وما يترتب عليها من المسئوليات المختلفة ، ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثراً زائداً على قرابة الإسلام وأخوته (١) .

ثالثاً : كما كان لهذه المؤاخاة آثار أخرى منها :

عقد الألفة بين الضعيف والقوى ، وتمكن الصحبة بين المؤمنين ، ولأيتعالى

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص ١٥٧ وما بعدها .

مؤمن على مؤمن ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك مؤاخاة حمزة الشريف النسيب مع زيد بن حارثة المولى الذى كان عبداً له ﷺ حتى من عليه بالعتق ، وتبناه إلى أن حرم الله التبنى حيث قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (١) فكان من حكمة النبي ﷺ أن يجعله أخاً لابن عبد المطلب .

مع ملاحظة هنا أن المؤاخاة هذه المرة ليست بين مهاجر وأنصارى بل بين مهاجرين للحكمة التى وصفنا .

رابعاً : إن النبي ﷺ عندما عقد المؤاخاة كان يشرع للأمة من بعده هذا النظام الذى يجمع المسلمين ولم يكن حكماً لحادثة وواقعة فحسب ، ولا علاجاً مقصوراً بالتالى على ما بين المهاجرين والأنصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة إليه من بعد أشد وأكبر (٢) .

فما أحوجنا نحن المسلمين فى عالمنا المعاصر إلى استيعاب هذا الدرس فى الأخوة الإسلامية التى افتقدناها بتأثير من الأثرة والشح فتمزقنا شر ممزق ، وسيطر علينا من كان بالأمس خاضعاً لنا وصار بأسنا شديداً بيننا فهنا على أعدائنا ؛ وأصبحنا طعمة عاجزة تغرى كل معتد بالعدوان وتشجع كل طامع فى استلابنا ؛ ومن هانت عليه نفسه فهى على غيره أهون .

ولكن الأمل فى الله كبير والطريق إليه واضح المعالم : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (٣) ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ (٤) .

ثالثاً : صلة المسلمين بغيرهم

بعد أن اطمأن محمد ﷺ إلى وحدة المسلمين وذلك بالمؤاخاة بين مهاجريهم وأنصارهم ، قام بعمل آخر يدل على عظم واقتدار ، ذلك ما وصل به محمد ﷺ إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٤ جزء من الآية رقم ٤ .

(٢) خاتم النبیین ، للشيخ أبو زهرة ، المجلد الثانى والثالث ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

(٣) سورة فاطر جزء من الآية رقم ١٠ .

(٤) سورة الحج ٤٠ .

متين من الحرية والتحالف . هذا العمل السياسى العظيم هو عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير حرية الاعتقاد بينه وبينهم .

وهذه المعاهدة تعتبر بحق من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ ، وهذا التطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول فيما نعلم .
وهاك نص المعاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي الأمى بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وحل^(١) معهم ، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رباعتهم^(٢) يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى^(٣) وهم يفدون^(٤) عانيهم^(٥) ، بالمعروف^(٦) »

(١) حل معهم : حُلَّ بالمكان يَحُلُّ حُلُولًا وَمَحَلًّا وَحَلًّا وَحَلَلًا ، يَفْكُ التَضْعِيفُ نادر ، وذلك نزول القوم بِمَحَلَّةٍ ، وهو نقيض الارتحال ، وَحَلُّهُ وَاحْتَلَّ بِهِ وَاحْتَلَّةً : نزل به . الليث : الحَلُّ الحُلُولُ ، والنزول ، اللسان مادة حلل .

(٢) المهاجرين من قريش على ربعتهم : ربعتهم بكسر الراء وسكون الباء وربعاتيهم وربعاتيهم بفتح الباء وكسرها : أى حالة حسنة من استقامتهم وأمرهم الأول ، ولا يكون فى غير حسن الحال ، وقيل رباعتهم شأنهم ، وقال ثعلب : رَبَّعَاتُهُمْ وَرَبَّعَاتُهُمْ منازلهم ، وفى كتاب المهاجرين والأنصار الذى معنا هذا — إنهم أمة واحدة على رباعتهم أى على استقامتهم يريد أنهم على أمرهم الذى كانوا عليه ، وَرَبَاعَةُ الرجل شأنه وحاله التى هو رابع عليها ، أى ثابت مقيم ، الفراء : الناس على سكتاتهم ونزلاتهم وربعاتيهم وربعاتيهم ، يعنى على استقامتهم — السابق مادة رَبَّعَ .

(٣) يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها ، وهو تفاعل من العقل ، والمعاقل الديات جمع مَعْقَلَةٍ والمعاقل : حيث تعقل الإبل ، ومعاقل الإبل حيث تعقل فيها ، السابق مادة عقل .

(٤) يفدون عانيهم : الفداء بالكسر والمد والفتح مع القصر فكاك الأسير . يقال فداه يفديه فداء وفدى وفاداه يفاديه مفادة إذا أعطى فداءه وأنقذه ، وفداه بنفسه وفداه إذا قال له جُعِلْتُ فداك ، والفِدْيَةُ والفداء وقيل المُفَادَةُ أَنْ تُقْتَلَ الأسير بأسير مثله — النهاية ٣ / ١٨٨ .

(٥) عانيهم : العانى الأسير وكل من ذل واستكان وخضع فقد عانى يَعْتُو وهو عانى والمرأة عانية جمعها عوان ، السابق ، ٣ / ١٣٥ وما بعدها .

(٦) المعروف : اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من الْمُحْسَنَاتِ والمُتَبَحَّاتِ وهو من الصفات الغالية كما أنه بمعنى التصفى وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس والمنكر ضد ذلك جميعه « اللسان مادة عرف » .

والقسط^(١) بين المسلمين والمؤمنين ، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ثم ذكر هذا الشرط لكل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار منهم وهم بنو الحارث ابن الخزرج وبنو ساعدة ، وبنو جشم ، وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنو النبيت وبنو الأوس ، إلى أن قال : وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(٢) بينهم أن يعطوا بالمعروف في فداء وعقل^(٣) ولا يُخالف^(٤) مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم^(٥) أو إثم^(٦) وعدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا يُنصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة^(٧) ،

(١) القسط : بالكسر المعدل تقول منه « أقسط » الرجل فهو مُقسط ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مادة قسط ، طبع بالمطابع الأميرية . بمصر .

(٢) لا يتركون مفرحاً بينهم : يقال أفرحه الشيء والدين ، أثقله والمفرح ، المتقل بالدين ، ويقال رجل مفرح : محتاج مغلوب وقيل فقير لا مال له ، وفي الحديث الذي معنا ، ألا يتركوا مفرحاً حتى يعينوه على ما كان من عقل أو فداء ، قال ، والمفرح المفدوح وكذلك قال الأصمعي قال : هو الذي أثقله الدين ، يقول ، يُفَضَّى عنه دينه من بيت المال ولا يترك مديناً ، اللسان مادة فرح .

(٣) العقل : الدية ، وعقل القتيل يعقله عقلاً : وداه ، وعقل عنه : أدَّى جَنَائِته وأصله أن القاتل كان إذا قتل قتيلاً جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول أى شدها في عقلها لئسلمها إليهم ويقبضوها منه فسميت الدية عقلاً بالمصدر ، يقال عقل البعير يعقله عقلاً وجمعها عقول وكان أصل الدية الإبل ، ثم قومت بعد ذلك بالذهب والفضة والبقر والغنم وغيرها ، السابق ، مادة عقل والنهاية ٣ / ١١٧ .

(٤) يخالف : الخلف بالكسر ، العهد يكون بين القوم ، وقد حالفه أى عاهدته وتحالفوا أى تعاهدوا وأصل الحلف كما يقول ابن الأثير : المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، اللسان مادة حلف .

(٥) أو ابتغى دسيعة ظلم : أى طلب دفعاً على سبيل الظلم ، فأضافه إليه وهى إضافة بمعنى من ، ويجوز أن يراد بالدسيعة العطية أى ابتغى منهم أن يدفعوا إليه عطية على درجة ظلمهم ، أى كونهم مظلومين ، أو أضافها إلى ظلمه لأنه سبب دفعهم لها ، النهاية ٢ / ٢٢ ، اللسان مادة دسع .

(٦) الإثم : الذنب ، وقيل هو أن يعمل ما لا يحل له ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ غَيْرَ عَلَىٰ أَثْمًا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أى ما أثم فيه قال الفارسي : سماه بالمصدر كما جعل سيبويه به المظلمة اسم لما أخذ منك ، اللسان مادة أثم .

(٧) وإن ذمة الله واحدة : الذمة الأمان هاهنا ، ولهذا سُمي المعاهد ذمياً لأنه أعطى الأمان على ذمة الجزية التى تُؤخذ منه ، اللسان مادة ذم .

يجبر^(١) عليهم أدناهم^(٢) وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض^(٣) دون الناس^(٤) وأنه من تبعنا من اليهود^(٥)، فإن له النصر^(٦) المعروف والأسوة^(٧) غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحد ولا يسالم مؤمن دون مؤمن^(٨) في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل^(٩) بينهم، وإن كل غازية غرت معنا يعقب

(١) يُجْبِرُ : أى ينصر ويمنع عليهم أدناهم قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُجْبِرُنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى لن يمتنعى من الله أحد ، والجبار والمُجْبِرُ هو الذى يمنعك ويَجْبِرُك وفى الحديث يجبر عليهم أدناهم ، أى إذا أجاز واحد من المسلمين حراً أو عبداً أو امرأة واحداً أو جماعة من الكفار وتخفروهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين لا ينقضى عليه جواره وأمانه ، اللسان مادة جَوَرَ .

(٢) أدناهم : الأدنى السُّفْلُ أبو زيد والدُّنْيُ الخسيس ، بغير هَمْزٍ ومنه قوله تعالى ﴿ أَسْتَئْذِنُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ أى الذى هو أخس ، اللسان مادة دنا « ومعنى يجبر عليهم أدناهم أى إذا أجاز واحد من المسلمين حراً أو عبداً أو أمة واحداً أو جماعة من الكفار وتخفروهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين لا يَنْقُضُ عليه جواره وأمانه » النهاية ١ / ١٨٦ .

(٣) وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض ، المولى بمعنى الحليف وهو من انضم إليك فَعَزَّ بعزتك وامتنع بِمَنْعَتِكَ ، والمولى أيضاً بمعنى الناصر والمحِب قال ﷺ « اللهم وال من والاه » أى أحبب من أحبه وانصر من نصره ، « اللسان مادة ولى » .

(٤) دون الناس : أى غير الناس ، المفردات ص ١٧٦ .

(٥) وأنه من تبعنا من اليهود : بعه من باب طَرَبٍ وسَلِمَ إذا مشى خلفه أمر به فمضى معه وكذا « اتَّبَعَهُ » وهو أَتَقَلَّ وأَتْبَعَهُ على أَفْعَلَ إذا كان قد سبقه فلحقه وأَتْبَعَ غَيْرَهُ يقال أَتْبَعْتُهُ الشَّيْءَ فَتَبِعَهُ ، وقال الأنخفش تَبِعَهُ وَأَتْبَعَهُ بمعنى مثل رَدَفَهُ وأَرْدَفَهُ ، ومنه قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ والتبع يكون واحداً وجميعاً قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ وجمعه أتباع ، وتابعه على كذا متابعة وتباعاً بالكسر والتَّبَاعُ الزَّوَالُ ، مختار الصحاح مادة ت ب ع .

(٦) النصر : إعانة المظلوم ، نُصِرَ على عدوه ينصره نصراً والاسم النصره ، مختار الصحاح واللسان مادة نصر .

(٧) والأسوة : بكسر الهمزة وضمها القدوة والمواساة والمشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق ، وأصلها الهمزة فقلبت واواً تخفيفاً « النهاية ١ / ٣٢ » .

(٨) وإن سلم المؤمنين واحد ولا يسالم مؤمن دون مؤمن ، السَّلْمُ والسَّلْمُ بفتح السين وكسرها بمعنى الصلح ، والمعنى فى الحديث لا يسالم مؤمن دون مؤمن ، أى لا يصالح واحد دون أصحابه ، وإنما يقع الصلح بينهم وبين عدوهم باجتماع ملئهم على ذلك ، اللسان مادة سلم ، النهاية ٢ / ١٧٧ وما بعدها .

(٩) العدل : العَدَالَةُ والمعادلة لفظ يقتضى معنى المساواة ويستعمل باعتبار المضايقة ، والعَدْلُ والعَدْلُ بالكسر والفتح بمعنى المثل وقيل هو بالفتح ما عادله من جنسه وبالكسر ما ليس من جنسه وقيل العكس ، النهاية ٣ / ٧٢ ، المفردات ص ٣٢٥ .

بعضها بعضاً^(١)، وإن المؤمنين يبيء^(٢) بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله^(٣)، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك ما لا لقريش^(٤) ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط^(٥) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود^(٦) به إلى أن يرضى ولى المقتول بالعقل^(٧)، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه^(٨) وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يقبل منه صرف ولا عدل^(٩) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله « عز وجل »، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين^(١٠)، وإن يهود بنى عوف ومواليهم

(١) وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً : أى يكون الغزو بينهم نوباً فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى يعقبها أخرى غيرها « النهاية ٣ / ١١٢ » .

(٢) يبيء بعضهم بعضاً : يبيء من البواء بالفتح والمذ السواء يقال دم فلان بواء لدم فلان إذا كان كفؤاله، والمراد بها في الحديث الذى معنا أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم، النهاية ١ / ٩٧، مختار الصحاح مادة بَوَّأ .

(٣) بما نال دماءهم في سبيل الله : نال بمعنى أصاب وأصله نَيْلٌ يَنْتَلِ مثل فَهَمَ يَفْهَمُ والأمر منه نَلٌ يفتح النون وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون، مختار الصحاح مادة نَيْلٌ .

(٤) وأنه لا يجير مشرك ما لا لقريش : يعنى اليهود الذين كانوا وادعهم يقول فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائهم ولا يعينوهم عليه .

(٥) وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً، أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة، توجب قتله .

(٦) فإنه قود به « القود » بفتحين القصاص وأقاد القاتل بالقتيل قتله به، يقال أقاده السلطان من أخيه واستقاده الحاكم سألته أن يُقيد القاتل بالقتيل « مختار الصحاح مادة قود » .

(٧) إلى أن يرضى ولى المقتول بالعقل : العقل الدِّيَّةُ، وغفل القَتِيل يعقله عقلاً، وداه، وعقل عنه أَدَّى جنايته وذلك إذا لزمته دية فأعطاه عنها، وهذا هو الفرق بين عَقَلَهُ وَعَقَلْتُ عنه وَعَقَلْتُ له، ويقال اعتقل فلان من دم صاحبه، ومن طائليته، إذا أخذ العَقْل، وعَقَلْتُ له دم فلان إذا تركت القَوْدَ للديَّة، اللسان مادة عقل .

(٨) أن ينصر محدثاً : المُحْدِثُ يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر من نصر جانياً، وآواه وأجاره من تحصينه، وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه، وبالفتح هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضا به والصبر عليه فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكرها عليه فقد آواه، النهاية ١ / ٢٠٧، واللسان مادة حدث، أوأ .

(٩) لا يقبل منه صرف ولا عدل : روى عن مكحول أنه قال : الصرف التوبة، والعدل الفدية، قال أبو عبيد قيل الصرف النافلة، والعدل الفريضة، اللسان مادق صرف، وعدل .

(١٠) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين : فهذه النفقة في الحرب خاصة فقد شرط عليهم المعاونة على عدوه، وثرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذى شرطه عليهم من النفقة ولولا هذا لم يكن لهم فى غنائم المسلمين سهم، سبل الهدى والرشاد، ٣ / ٥٥٦ .

وأنفسهم أمة من المؤمنين^(١)، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه^(٢)، وأهل بيته، وإن لليهود بنى النجار وبنى الحارث، وبنى ساعدة وبنى جشم، وبنى الأوس، وبنى ثعلبة وجفنة، وبنى الشطيبة مثل ما لليهود بنى عوف، وإن بطانة^(٣) يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، ولا ينحجر^(٤) على ثأر^(٥) جرح^(٦)، وإنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا^(٧).

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم^(٨) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جرفها^(٩) لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن

(١) وإن يهود بنى عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين، يريد أنهم بالصلح الذى وقع بينهم وبين المؤمنين كجماعة منهم كلمتهم وأيديهم واحدة، النهاية ١ / ٤٣.

(٢) لا يوتغ إلا نفسه : الوتغ، بالتحريك : الهلاك . وَتَغَ يَوْتُغُ وَتَغًا ، فسد وهلك وأثم ، وأَوْتُغُهُ هُوَ . والمَوْتُغَةُ ، المَهْلِكَةُ . اللسان مادة وتغ .

(٣) وإن بطانة يهود : البطانة المراد بها ما دون القبيلة « النهاية » ١ / ٨٤ .

(٤) ولا ينحجر : أى لا يلتزم جرح على ثأر ، وفى النهاية لما تحجر جرح البراء انفجر أى اجتمع والتأم وقرب بعضه من بعض ، النهاية ١ / ٢٠٢ ، اللسان مادة حجر .

(٥) على ثأر : الثأر الطلب بالدم ، وقيل الدم نفسه ، والجمع أثار وآثار على القلب ، حكاية يعقوب ، اللسان مادة ثأر .

(٦) جُرْحُ الفعل : جَرَحَهُ يَجْرَحُهُ جرحاً : أثار فيه بالسلاح ، وجَرَحُهُ : أكثر ذلك فيه وجَرَحَهُ كمنعه كَلَمَهُ والاسم الجُرْحُ بالضم والجمع أجراح وجروح وجراح وقيل : لم يقولوا أجراح إلا ما جاء فى الشعر لضرورته ، القاموس واللسان مادة جرح .

(٧) وإن الله على أبر هذا : أى على الرضا به .

(٨) البردون الإثم : أى إن الوفاء بما جعل على نفسه دون الغدر والنكث ، النهاية ١ / ٧٢ .

(٩) جُرفها : الجرف اسم موضع قريب من المدينة وأصله ما تَجَرَّفُ السبول من الأودية ، اللسان مادة جرف .

أو أن المراد حُرْمُها : الحرمة ما لا يحل لك انبهاك ، وكذلك المَحْرَمَةُ والمَحْرَمَةُ بفتح الراء وضمها ، يقال إن لى مَحْرَمَاتٍ فلا تَهَيَّكُهَا ، واجِدَتْهَا مَحْرَمَةً وَمَحْرَمَةً ، يريد أن له حرمت . والمحارم ما لا يحل استحلاله ، وتجميع حُرْمَةٍ على حُرْمَاتٍ كظُلْمَةٍ وظُلُمَاتٍ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ ﴾ قال الزجاج : هى ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه ، اللسان مادة حَرَم .

أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث^(١) أو اشتجار^(٢) يخاف فساد ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى^(٣) ما في هذه الصحيفة وأبره^(٤) ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم^(٥) يثرب ، وأنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه ، وإن دعينا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حقهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم^(٦) وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى^(٧) ، (٨) .

هذه وثيقة النبي ﷺ التي نظم بها المجتمع الجديد لسكان المدينة المنورة

(١) من حَدَث : أَلْعَدْتُ الأَمْرَ الحَادِثَ المُتَكَرِّرَ الَّذِي لَيْسَ بِمَعْتَادٍ وَلَا مَعْرُوفٍ فِي السَّنَةِ ، اللِّسَانُ مَادَةُ حَدَثٍ

(٢) أو اشتجار : يُقَالُ اشْتَجَرَ الْقَوْمُ : تَخَالَفُوا . وَرَمَاحُ شَوَاجِرَ وَمُشْتَجِرَةٌ وَمُتَشَاجِرَةٌ : مُخْتَلِفَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ ، وَشَجَرٌ بَيْنَهُمُ الأَمْرُ يَشْجُرُ شَجْرًا تَنَازَعُوا فِيهِ وَشَجَرٌ بَيْنَ الْقَوْمِ إِذَا اخْتَلَفَ الأَمْرُ بَيْنَهُمْ ، وَاشْتَجَرَ الْقَوْمُ وَتَشَاجَرُوا ، أَيْ تَنَازَعُوا وَالمُشَاجَرَةُ المُنَازَعَةُ ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ أَيْ فِيمَا وَقَعَ مِنَ الاختِلَافِ فِي الخُصُومَاتِ حَتَّى اشْتَجَرُوا وَتَشَاجَرُوا أَيْ تَشَابَكُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « إِيَّاكُمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِي » أَيْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الاختِلَافِ ، اللِّسَانُ مَادَةُ شَجَرٍ .

(٣) إِنْ اللهُ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ : أَتْقَى يُقَالُ وَقَدْ تَوَقَّيْتُ وَأَتَّقَيْتُ الشَّيْءَ وَتَقَيَّتُهُ أَتَّقِيهِ وَأَتَّقِيهِ تَقَى وَتَقِيَّةٌ وَتَقَاءٌ حَذَرُهُ « الأَخِيرُ عَنِ اللِّحْيَانِ » وَالأَسْمُ التَّقْوَى : التَّاءُ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ ، وَالْوَاوُ بَدَلٌ مِنَ الْيَاءِ ، وَيُقَالُ وَقَاهُ اللهُ وَقِيًّا وَوَقَايَةً وَوَقَايَةُ صَانُهُ وَفِي الْحَدِيثِ : فَوْقَ أَحَدِكُمْ وَجْهُهُ النَّارُ ؟ وَقِيْتُ الشَّيْءَ أَقِيهِ إِذَا صُنَّتْهُ وَسْتَرَّتْهُ عَنِ الأَذَى ، اللِّسَانُ مَادَةُ وَقَى .

(٤) أبره : فِي الْحَدِيثِ بَرَّ اللهُ قَسَمَهُ ، وَأَبْرَهُ بَرًّا بِالكُسْرِ وَإِبْرَارًا صَدَقَهُ النِّهَايَةَ .
(٥) دهم : فِي مَخْتَارِ الصَّحَاحِ « دَهَمَهُمُ » الأَمْرُ غَشِيَهُمْ وَبَابُهُ قَهَمٌ وَكَذَا دَهَمَتْهُمْ الخَيْلُ وَ« دَهَمَهُمُ » بَفَتْحِ المَاءِ لَعَةً « مَخْتَارُ الصَّحَاحِ مَادَةُ دَهَمَ » وَالمَعْنَى فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعْنَاهُ وَإِنْ مِنْ أَرَادَ أَهْلُ يَثْرِبَ بَغَائِلَةً مِنْ أَمْرِ عَظِيمٍ يَذْهَبُهُمْ أَيْ يَقْجُوهُمْ ، اللِّسَانُ مَادَةُ دَهَمَ .

(٦) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم — قَالَ اللَّيْثُ الْجَوَالُ المُحَاوَلَةُ حَاوَلْتُهُ جَوَالًا وَمُحَاوَلَةٌ أَيْ طَالِبْتُهَا بِالحِيلَةِ ، وَالجَوَالُ كُلُّ شَيْءٍ حَالٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، يُقَالُ هَذَا جَوَالٌ بَيْنَهُمَا أَيْ حَائِلٌ بَيْنَهُمَا كَالْحَاجِزِ وَالحِجَازِ ، أَبُو زَيْدٍ : حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّرِّ أَحْوَلُ أَشَدَّ الحَوْلِ وَالمُحَاوَلَةُ : قَالَ اللَّيْثُ : يُقَالُ حَالُ الشَّيْءِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ يَحُولُ حَوْلًا وَتَحْوِيلًا أَيْ حَجَرَ ، وَيُقَالُ حَلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُ حَوْلًا وَحَوُولًا . ابْنُ سِيدَةَ . وَكُلُّ مَا حَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَدْ حَالَ بَيْنَهُمَا حَوْلًا ، وَاسْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ ، الْجَوَالُ ، وَالحَوْلُ كَالْجَوَالِ اللِّسَانُ مَادَةُ حَوْلَ .

(٧) جَارَ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى : خَفِرُوا أَمِنْ مَنْ بَرَّ وَاتَّقَى ، النِّهَايَةُ ١ / ١٨٦ بِتَصْرِفٍ .

(٨) الروض الأنف ٤ / ٢٤٠ : ٢٤٤ ، سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٦ وما بعدها والبداية والنهاية ٣ / ٢٢٤ : ٢٢٦ ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٥٥٥ إلى ٥٥٧ .

لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود .
ويلاحظ ما يأتي :

أولاً : إن كلمة « الدستور » هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة ، وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أى دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة فى الداخل والخارج ، أى فيما يتعلق بعلاقة بعض أفراد الدولة ببعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة بالآخرين .

وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله ﷺ بوحي من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود — حسبنا ذلك دليلاً على أن — المجتمع الإسلامى قام منذ أول إنشائه على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت — منذ أول بزوغ فجرها — على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية . وظاهر أن هذه المقومات أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمع ، إذ هى فى مجموعها إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى ، ولا يمكن أن نجد أرضاً يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقم هذا التنظيم الدستورى الذى أوجده رسول الله ﷺ ، على أنه فى الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها .

ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلّا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستورى شئ ، وهى أحبولة عتيقة ، كان بقصد منها محترفو الغزو الفكرى وأرقاء الاستعمار ، أن يقيدوا بها الإسلام كى لا ينطلق فيعمل عمله فى المجتمعات الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة فى أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة لا تشريعاً وقوانين ، وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة فى الواقع ، فينبغى أن ينقلب فيصبح غير صالح لذلك . ولو بأكاذيب القول .

غير أن هذه الأجبولة تقطعت سريعاً ، لسوء حظ أولئك المحترفين ، وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد والضغائن .

ولكن مهما يكن ، فينبغى أن نقول ، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة إن مولد المجتمع الإسلامى نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة ، وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعى المتناسق من جميع جهاته وأطرافه ، وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك (١) .

ثانياً : إن النبى ﷺ بحكم هذا النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة المنورة صار هو الرئيس والمسئول الأول عن تنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ، ولذلك لم يحل لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب إلا بإذنه ، حتى لا تتورط فى أمر يضطرب أمر المجتمع الذى أريد أن يقوم على أساس التعاون فى جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتواردون ولا يتعاونون على إثم أو عدوان (٢) .

ثالثاً : وحد الرسول ﷺ بهذه الوثيقة بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وجعل منهم أمة واحدة ألف الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة ، كما أوجد التعاون والتضامن بين أفرادهم على أساس أن الأخوة فى الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة (٣) .

رابعاً : عاجلت هذه الوثيقة ما كانت المدينة والمجتمع العربى كله يقن منه ، حروب داهية كانت متواصلة ، وطغيان وتنكر صحته الوثيقة بدعوتها للتواصل والتراحم فكانت بلسماً لجراحات المجتمع المدنى ، كما عاجلت الطبقات ، وطغيان الحاكمين بنصرة المظلوم ورعاية الحقوق ، وحرية الدين ، وألغت ما يعرف بالطبقية والعنصرية بتقرير المساواة فى الحقوق والدييات ، وذلك لإتمام مرحلة التطور الصاعد ليعيش الجميع لأنفسهم ولغيرهم من الناس ، وهذا يحملنا على أن نذكر ما فشلت فيه الدول إلى اليوم فى تاريخها الطويل من الدعوة إلى المساواة والحرية وهى تبذل أقصى ما تستطيع لمحاربة حرية الشعوب المخالفة لهم فى الدين ،

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٦٠ وما بعدها .

(٢) خاتم النبیین ، للشيخ أبو زهرة ، ج ٢ ص ٥٦٦ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ص ١٠٢ .

أو الجنس أو المذاهب الاقتصادية أو السياسية^(١) .

خامساً : تدل هذه الوثيقة على مدى الدقة في المساواة بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للدعاية والعرض ، بل من حيث إنها ركن من الأركان الشرعية المهمة للمجتمع الإسلامى ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة ، وحسبنا من مظهر التطبيق لهذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبي ﷺ في هذا البند بقوله : وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أيأ كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغي أن يجار عليه فيه ، فمن أدخل من المسلمين أحداً في جواره ، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جواره هذا ، والمرأة المسلمة لا تختلف في هذا عن الرجل إطلاقاً ، فلجوارها — أيأ كانت — من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أى إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته ، وذلك بإجماع عامة العلماء ، وأئمة المذاهب^(٢) .

روى الشيخان وغيرهما أن أم هانئ بنت أبى طالب ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فقالت : يا رسول الله زعم ابن أُمى على أنه قاتل رجلاً أجرته : فلان ابن هبيرة .

فقال رسول الله ﷺ : « فقد أجرنا من أجرت يا أم هانئ »^(٣) .

وفى هذا يظهر لنا مدى الرفعة التى نالتها المرأة فى حمى الإسلام وظله ، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية والاجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء ، مما لم يحدث نظيره فى أمة من الأمم .

غير أن المهم أن نعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التى أرستها شريعة الإسلام ، والمظاهر التقليدية لها مما ينادى به عشاق المدنية الحديثة اليوم ، تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة ، ويتوخى منها سعادة الناس كلهم نساء ورجالاً ، أفراداً وجماعات ، وهذه نزوات حيوانية

(١) دراسات تاريخية ، العرب وظهور الإسلام ، للدكتور محمد مصطفى النجار ، ص ٣٠٤ .
(٢) غير أنه يشترط لذلك شروط معينة ذكرها الفقهاء ، كأن لا تكون إجارة تضر بالمسلمين كإجارة جاسوس وأن تكون لعدد محصور ، وأن تكون لمدة محدودة بحيث لا تزيد على أربعة أشهر « معنى المحتاج »

٢٣٨ ٤
(٣) صحيح البخارى كتاب الصلاة باب الصلاة فى الثوب الواحد ، صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب صلاة الضحى ، موطأ الإمام مالك كتاب قصر الصلاة باب صلاة الضحى .

أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن ، دون أى نظر إلى شئ آخر^(١) .

سادساً : أنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة . فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ، وألا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبي ﷺ ألا يحكم بينهم إذا وجد مصلحة ، وبين هذا قوله تعالى في شأنهم : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرُضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٢) وإن هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرية الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبي ﷺ فيما بينهم إلا إذا جاءوا إليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض ولذا لا نستطع أن نقول إنهم كالذميين تماماً في الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقوقهم في المعاملات الخاصة من غير إثم^(٣) .

سابعاً : أن الحلف يوجب أن يكون عدو النبي ﷺ عدواً لليهود ، فلا يجبرون قريشاً ، ولا من يناصر قريشاً ، إذ عليهم ، ألا يوالوا المشركين ، لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعداؤهم ، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة المنورة مسلمين ويهود أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وبذلك يكون أمن الجميع واحداً ، فمن هاجم فريقاً من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم اليهود ، لأن الوثيقة أعطتهم حقوقاً ، وأوجبت عليهم واجبات ، فإذا أخلوا بما يجب عليهم ، فقد أسقطوا ما لهم من حقوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة ، وما دام الولاء واحداً فإنه لا يصح أن يتعاون اليهود وأعداء محمد ﷺ على شئ دون ما نص عليه^(٤) .

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٤٢ .

(٣) خاتم النبیین ج ٢ ص ٥٦٦ .

(٤) خاتم النبیین ، للشيخ أبو زهرة ، ج ٢ ص ٥٦٧ .

ثامناً : ألزمت هذه الوثيقة عناصر الأمة ، المشاركة بالمال عند الحاجة إليه ، لا فرق في ذلك بين مسلم ويهودى « وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » إذ اختلاف الدين لا يحول بين السلام الاجتماعى ، ما دام كل يؤدى ما يلتزم به ، ولا يقف في وجه مسيرة الآخرين « وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين — لليهود دينهم وللمسلمين دينهم — مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوثق إلا نفسه وأهل بيته » دون تفريق في ذلك بين اليهود ومواليهم وبطانتهم « وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم » (١) .

تاسعاً : يقرر هذا التحالف حرمة يثرب ، ووجوب احترامها على من يوقع هذه المعاهدة « وأن يثرب حرام جوفها لهذه الصحيفة » .

ويقرر أيضاً حرمة الجار وحسن معاملته « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم » (٢) .

عاشراً : يقرر هذا الصلح أن الحكم العدل الذى لا ينبغي للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره ، فى سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشئونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه ، وهو ما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله ، ومهما يبحثوا عن الحلول لمشاكلهم فى غير هذا المصدر فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء فى الدنيا وعذاب الله تعالى فى الآخرة (٣) قال الله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٤) ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٥) ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (٦) ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (٧) وغير ذلك كثير من القرآن والسنة النبوية

(١) تأملات فى البيان النبوى للدكتور إبراهيم عوضين ، ص ١٩٧ بتصرف ط مطبعة السعادة .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فقه السيرة للبطي ، ص ١٥٣ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٥) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

(٦) سورة الطلاق آية رقم ٤ .

(٧) سورة الطلاق آية رقم ٥ .

الشريفة .

وهكذا أقرت هذه الوثيقة الحضارية في فجر الإسلام جميع ما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وكان لا بد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببندوها فهل حدث هذا الالتزام ؟ :

لقد وفى رسول الله ﷺ والمسلمون بهذه البنود . أما اليهود هؤلاء الثعابين الذين لا عهد لهم ولا أمان ولا ذمة فسرعان ما نقضوا عهدهم ، وتحللوا من ميثاقهم ، ولا عجب فهم دائماً أهل مكر وغدر ، ونقض للعهود والمواثيق ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم ، ثم استئصال شأفتهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين .

التأريخ بالهجرة

وبعد فلما للهجرة من هذه الأهمية الضخمة ، التى صورنا للقارىء الكريم طرفاً يسيراً منها فيما سجلناه من هذه النتائج التى هى فى الحقيقة بمثابة رعوس موضوعات راعينا فيها غاية الإيجاز والاختصار إلى حد الرمز والإشارة ، ولم نقصد بطبيعة الحال إلى تفصيل كل ما لهذا الحدث الضخم من آثار ونتائج ؛ لأن ذلك فوق كونه من وراء الطاقة مما يحتاج إلى حشد الهمم العديدة والأعمار الطويلة والمجلدات الضخمة ، فكيف لا وجميع علوم الإسلام ونظمه وحضاراته التى ألفت فيها مئات الآلاف بل آلاف الآلاف من المصنفات حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فما وفّت بها وما كان لها أن تفى ، وما ظنك بكتاب لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ؟ .

نقول جميع هذه العلوم والأنظمة والحضارات ما كان لها أن تتم ولا أن تقوم على ما قامت عليه من أسس متينة ، وأركان ركيئة لولا ما قيضه الله للإسلام ومجتمع المسلمين من هذا الحدث الجلل أعنى حدث الهجرة ، نقول : لما لهذا الحدث إذا من فرط الأهمية وجليل الأثر إلى الحد الذى وصفنا بل إلى الحد الذى يجل عن وصف الواصفين ، لم يجد المسلمون أعظم من هذا الحدث ليؤرخ به لأحداث الإسلام كلها .

ومن المعلوم أنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ مبدأ للتاريخ الإسلامى ، رغم الأحداث المختلفة التى لها أجل الأثر فى الإسلام وتاريخ تطوره ، وظل الأمر هكذا فى عهد الصديق وطوراً من خلافة عمر حتى تراءى لهذا الفاروق العبرى الملهم أن يكتب التاريخ « تاريخ الإسلام » أو قل التاريخ الذى يعتمد عليه المسلمون فى تسجيل جميع ما يمر بهم من أحداث عامة وخاصة .

ويذكرون أن سبب عمل سيدنا عمر التاريخ كما يقول صاحب الفتح أشياء منها :

« ما أخرجه أبو نعيم بن الفضل بن دكين فى تاريخه ، من طريقه الحاكم من طريق الشعبى : « أن أبا موسى كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ فجمع عمر الناس فقال بعضهم : أرخ بالمبعث ، وبعضهم أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة فلما تفرقوا قال بعضهم ابدءوا برمضان ، فقال عمر : بل بالحرم فإنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه » .

وقيل أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية حيث كان باليمن ، أخرجه أحمد بن حنبل بإسناد صحيح لكن فيه انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى ، وروى أحمد وأبو عروبة فى الأوائل والبخارى فى الأدب والحاكم من طريق ميمون بن مهران قال : رفع لعمر صك محله شعبان فقال : أى شعبان ؟ الماضى أو الذى نحن فيه أو الآتى ؟ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه ، فذكر نحو الأول ، وروى الحاكم عن سعيد بن المسيب قال : « جمع عمر الناس فسألهم عن أول يوم يكتب التاريخ ، فقال على من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر » .

وروى ابن أبى خيثمة من طريق ابن سيرين قال : « قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئاً يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر : هذا حسن فأرخوا ، فلما جمع على ذلك قال قوم : أرخوا للمولد ، وقال قائل للمبعث وقال قائل من حين خرج مهاجراً ، وقال قائل من حين توفى ، فقال عمر : أرخوا من خروجه من مكة إلى المدينة » (١) .

(١) فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٢٨ .

وطبعي أن ذلك لم يكن من عمر وأهل الحل والعقد من أصحاب النبي ﷺ يومئذ صدفة أو خبط عشواء كما يقولون ، بل كان ذلك من القوم مقصوداً هداهم إليه سديد النظر ، ومستقيم الفكرة ، ومن قبل ذلك ومن بعده توفيق الله الذي رى هذه الأمة على كلاءته ومزيد رعايته ، فحدث الهجرة كما قلنا معلم شاق فذ يتميز بقيم عالية أصبحت ملكاً للعالم كله على اختلاف طبقاته وأجناسه ومواطنه فحده بارز الملاحم ، لأن التطور فيه لم يكن تطوراً للأمة العربية وحدها ، بل كان تطوراً للعالم كله .

وقد ذابت بالهجرة ملاح ما كانت لتذوب إلا بها فانتهى بالهجرة التاريخ القديم كله وبدأ بها تحول كبير في تاريخ العالم (١) .

فمن أجل ذلك كان رأى المسلمين أن يستعملوا التاريخ الهجري بالذات في حياتهم ، ومن عجب أنا نرى كثيراً من المسلمين اليوم ينسون بل يذهلون بالكلية عن هذا التاريخ تاريخ أمتهم ومجدهم وعظمتهم ، ويستعملون بدلاً منه في كتابتهم ورصد كافة ما يهمهم من أحداث فردية واجتماعية ذلك التاريخ الميلادي أو الأفرنجي كما يسمونه ، مع أن ربهم جل جلاله قد أرشدهم في غير ما موضع في كتابه وشرعه الحكيم إلى عروبة تاريخهم ، وأن يربطوا حسابهم بالأهلة والأشهر القمرية على ما كان يحسب أسلافهم من العرب حتى قبل الإسلام بآماد طوال ، ألم ينظروا إلى نحو قوله تعالى من سورة التوبة :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ (٢) .

ومن المعلوم أن الأشهر الحرم لا توجد إلا في التوقيت القمري ، أو لم يربط الله « سبحانه وتعالى » معرفتنا بالسنين والحساب والمواقيت بالأهلة ؟ حيث يقول ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٣) وحيث يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ

(١) دراسات تاريخية ، سابق ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٣٦ .

(٣) سورة يونس الآية رقم ٥ .

مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴿١﴾ أَتُمْ لَمْ يَوْقَتِ اللَّهُ عِبَادَتَيْنِ تَعْبَدُنَا بِهِمَا ، بِالتَّوْقِيتِ الْقَمَرِيَّ هُمَا الْحَجُّ وَالصُّومُ حَيْثُ إِنَّ الْحَجَّ يُوْدِي فِي شَوَالٍ وَذِي الْقَعْدَةِ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ (٢) وَالصُّومُ فَإِنَّهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (٣) .

يا قوم إن استخدامكم للتاريخ الإسلامي الهجري ليس هو استخدام أيام وشهور وسنوات ، وإنما هو إحياء للعوامل التي حركت تاريخ المسلمين فجعلت منهم أمة ، ومجتمعاً ودولة ، وجعلت من دعوة الإسلام دعوة عالمية إنسانية كما هي في موضوعها ومبادئها ، وليست عربية أو قومية ، حسبما كان موطن النداء الأول بها في مكة ، وبين قريش .

على أن إغفالكم لتاريخ الهجرة هو عامل من عوامل الضياع لاستقلال شخصيتكم ، وفي الوقت ذاته هو عامل من عوامل إلحاق المسلمين بغيرهم في التبعية .

ومن عجب أن يكون لليهود تاريخهم العبري ، وللنصارى تاريخهم القبطي والميلادي ثم لا يكون لكم أنتم تاريخ تحافظون عليه وتتفاخرون بأجاده وروايعه بل بدلاً من ذلك تُغْفِلُونَهُ وَتَتَّبِعُونَ غَيْرَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوِّكُمْ دِينَكُمْ فِيمَا يُؤْرَخُ بِهِ ذَلِكَ الْعَدُوُّ مِمَّا يَعْتَقِدُهُ تَارِيخاً لِحَدِّهِ وَدِينَهُ أَعْنَى التَّارِيخِ الْمِيلَادِي . ألا ما أصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جَحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ . قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن ؟ » (٤) ألا تعقلون يا قوم كيف وكم كان يخالف رسول الله ﷺ أهل الكتاب وبينه أصحابه وسائر الأمة من بعدهم إلى ضرورة مخالفتهم في كل ما لا تمتنع المخالفة فيه ؟ .

وإن تعجب فعجب ما نراه اليوم من حاكم لدولة مسلمة يفترض فيه أنه مسلم

(١) سورة البقرة رقم ١٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٩٧ .

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٨٥ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .

حيث اخترع هو وزمُرته الحاكمة لهذه الدولة الشقيقة المسلمة تاريخاً آخر غير التاريخ الهجري والميلادي جميعاً ، خارقاً بهذا الاختراع الذي لا يزيد في الحقيقة على أن يكون مجرد حب للمخالفة والظهور بالعجائب وإن خربت إجماع المسلمين وسفَهت أحلام كافة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من عهد الفاروق الميمون إلى يوم الناس هذا ، أعنى اعتبار هذا الحاكَم لدولته التاريخ بوفاة النبي ﷺ بدلاً مما أجمع عليه الصحابة والمسلمون معهم ومن بعدهم من التاريخ بهجرته ﷺ ، كأنما يرى هذا الحاكَم — الذي يفترض فيه بحكم إسلامه أن يتبع سبيل المؤمنين — أن وفاة النبي ﷺ شيء جليل طيب يجب أن يفرح به المسلمون ويحتفلوا به ويعدوه حدثاً مهماً لسبب نهضتهم ومجد دولتهم بدلاً من أن يكون عامل حزن وأسى ، تُخلَع ذكراه قلوبهم من صدورهم لما يحسون به من الألم المضاعف بفقد رسولهم وقائد نهضتهم ومجدهم ، وانقطاع الوحي بموته ﷺ ، وما استتبعه ذلك ويستتبعه من المشقة المبالغة والفتن المتلاطمة ، ألا إنها لنزعة يهودية أو شيعية لا يرمى أعدى أعداء الإسلام إلى ما هو أحسن منها وقديماً قالوا شَنِشْنَةُ أعرفها من أخزم والله ذرّ الحافظ ابن حجر إذ يقول تعقيباً على ما أخرجه البخارى بسنده عن سهل بن سعد قال : « ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة » .

قوله « مقدمه » أى زمن قدومه ولم يرد شهر قدومه لأن التاريخ إنما وقع من أول السنة ، وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقال : كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة : مولده ومبعثه وهجرته ووفاته ، فرجح عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة ، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه فانحصر في الهجرة .

وبعد فإن لقائل أن يقول : كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول على الصحيح كما قدمنا لك في حديث البخارى ، فلماذا لم يؤرخوا بيوم الهجرة نفسه أو بشهرها على الأقل بل اختاروا في تحديد هذا التاريخ الهجري شهر المحرم ؟ .

وللجواب عن هذا التساؤل يقول صاحب الفتح رحمه الله :

« وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في

المحرم إذ البيعة وقعت في أثناء ذى الحجة وهي مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم» (١) .

ثم ذكر الحافظ — رحمه الله — ما أسلفنا لك عنه في الحديث عن سبب عمل عمر التاريخ واجتماع المسلمين على اختيار الهجرة مبدأ له إلى أن قال :

« ثم قال « يعنى عمر » بأى شهر نبداً : فقال قوم : من رجب ، وقال قائل : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم فإنه شهر حرام وهو أول السنة ومنصرف الناس من الحج ، قال : وكان ذلك سنة سبع عشرة — وقيل سنة ست عشرة — في ربيع الأول ، فاستفدنا من مجموع هذه الآثار أن الذى أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلى « رضى الله عنهم » (٢) .

* * *

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ١٢٨ .

(٢) السابق ج ١٥ ص ١٢٩ .

الفصل الخامس

أحكام الهجرة

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام :

كانت الهجرة في أيام النبي ﷺ من دار الحرب إلى دار الإسلام فرضاً ، وفرضيتها هذه باقية إلى يوم القيامة ، والدليل على ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث كثيرة تدل على بقاء هذه الفرضية أعني فرضية الهجرة من كل دار حرب إلى دار الإسلام .

فمن ذلك ما أخرجه أبو داود بسنده عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله » (١) .

ومن ذلك ما رواه الطبراني بسنده عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى ناس من خثعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم فوداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية ثم قال : « أنا برىء من كل مسلم أقام مع المشركين لا تراءى ناراهما » (٢) .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن معاوية « رضى الله عنه » .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (٣) .

(١) كتاب الجهاد باب الإقامة بأرض الشرك . وإسناده صحيح انظر السراج المنير شرح الجامع الصغير « للعلامة على بن أحمد بن نور الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزي ج ٣ ص ٣٥٠ .
(٢) رجاله ثقات انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥٣ .
(٣) ج ٤ ص ٩٩ ورجال ثقات انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥١ .

وما رواه أيضاً بسنده عن عبد الله بن السعدى أن رسول الله ﷺ قال :
« لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو » (١) .

وغير ذلك من الأحاديث التى تبين أن وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار
الإسلام مستمر إلى يوم القيامة .

بل إن ذلك الحكم أعنى حكم فرضية الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام
وبقاء ذلك إلى يوم القيامة قد جاء فى القرآن الكريم نفسه فى نحو قوله تعالى :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (٢) .

فهأت ذأ ترى كيف أن النص الناطق بهذا الحكم من هذه الآيات الكريمة قد
جاء عاماً ليس له ما يخصه من كتاب ولا سنة ولا غيرهما ، قال جار الله
الزمخشري عند تفسير هذه الآيات الكريمة : وهذا يدل على أن الرجل إذا كان فى
بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب ، وعلم أنه فى غير
بلده أقوم بحق الله ، حقت عليه الهجرة (٣) .

وقال الحافظ السيوطى فى الإكليل « استدلل بالآية على وجوب الهجرة من
دار الكفر ، إلا على من لم يطبقها » (٤) .

وقال الإمام الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَغْدٍ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » (٥) .

وقال الحسن : الهجرة غير منقطعة أبداً ، وأما قوله عليه السلام « لا هجرة
بعد الفتح » فالمراد الهجرة المخصوصة . فإنها انقطعت بالفتح وبقوة الإسلام ، أما

(١) ج ٥ ص ٢٧٠ ورجاله ثقات أنظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥٠ .

(٢) سورة النساء من ٩٧ : ٩٩ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٥٥٧ .

(٤) تفسير القاسمى ج ٥ ص ١٤٩٥ .

(٥) الآية من سورة الأنفال ورقمها ٧٥ .

لو اتفق في بعض الأزمان كون المؤمنين في بلد وفي عددهم قلة ويحصل للكفار بسبب كونهم معهم شوكة وإن هاجر المسلمون من تلك البلدة وانتقلوا إلى بلدة أخرى ضعفت شوكة الكفار ، فهنا تلتزمهم الهجرة على ما قاله الحسن ؛ لأنه قد حصل فيهم مثل العلة في الهجرة من مكة إلى المدينة^(١) .

قال صاحب المغنى « رحمه الله » في بيان الخلاف في هذا الحكم ووجه الحق فيه « وحكم الهجرة باق لا ينقطع إلى يوم القيامة ، في قول عامة أهل العلم ، وقال قوم قد انقطعت الهجرة ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا هجرة بعد الفتح » وقال : « قد انقطعت الهجرة ولكن جهاد ونية » .

وروى ابن صفوان بن أمية لما أسلم قيل له لا دين لمن لا يهاجر فأقى المدينة ، فقال له النبي ﷺ : « ما جاء بك أبا وهب ؟ قال : قيل : إنه لا دين لمن لم يهاجر . قال : « ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة أقرأوا على مساكنكم فقد انقطعت الهجرة ، ولكن جهاد ونية » ثم يستمر صاحب المغنى قائلاً : ولنا : ما روى معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه أبو داود . وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد » رواه سعيد وغيره مع إطلاق الآيات والأخبار الدالة عليها وتحقق المعنى المقتضى لها في كل زمان « وأما الأحاديث الأول فأراد بها لا هجرة بعد الفتح من بلد قد فتح ، وقوله لصفوان : « إن الهجرة قد انقطعت يعني من مكة . لأن الهجرة الخروج من بلد الكفار فإذا فتح لم يبق بلد الكفار فلا تبقى منه هجرة . وهكذا كل بلد يفتح لا يبقى منه هجرة وإنما الهجرة إليه^(٢) .

وقال البغوى :

« قول الرسول ﷺ لا هجرة بعد الفتح » أى من مكة إلى المدينة وقوله : « لا تنقطع » أى من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام .

(١) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٢١٣ .

(٢) المغنى لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ج ٥ ص ٤٦٢ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، مكتبة الجمهورية العربية .

قال : ويحتمل وجه آخر وهو أن قوله « لا هجرة » أى إلى النبي ﷺ حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلا بإذن . فقوله « لا تنقطع » أى هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم .

وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ « انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار » أى ما دام فى الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن على دينه . ومفهومه أنه لو قدر ألا يبقى فى الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها « (١) » .

وقال الحافظ ابن حجر فى « الفتح » :

وقد وقعت الهجرة فى الإسلام على وجهين : الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما فى هجرى الحبشة الأولى والثانية ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثانى : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص ، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر ، لمن قدر عليه باقياً « (٢) » .

« على من تجب الهجرة ؟ »

تجب الهجرة باتفاق على من تحققت فيه صفتان : أولاهما القدرة على الهجرة والأخرى : العجز عن إظهار دينه والقيام بشعائره عبادته فى أرض الكفر ، فهذا تجب عليه الهجرة بدينه إلى الله ورسوله استعلاء لعقيدته ، وتمرداً على الضعف والاستكانة ، وطلباً للعزة والحرية والكرامة فإذا هاجر فقد التزم بالشرع الحنيف .

(١) شرح السنة للإمام البغوى ج ١٠ ص ٣٧١ تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط طبعة وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية .

(٢) ج ١ ص ٤١ .

وإذا لم يهاجر فقد تقاعس عن الإذعان للحق ورضى بالمعيشة في دار لم يستطع فيها إظهار دينه مع قدرته على الهجرة منها .

وفي هذا التقاعس جاء النعي والتنديد في الآيات السابقة من سورة النساء .
ولا تجب الهجرة باتفاق ولا تستحب كذلك على من فقد الصفة الأولى من هاتين الصفتين أعنى صفة القدرة على الهجرة .

وهؤلاء هم المعنيون بالاستثناء في قوله عز وجل : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (١) . فهؤلاء الذين لا يقدرُونَ فعلاً على المقاومة لشيخوختهم التي أدت بهم إلى العجز والضعف ، وكذلك النساء والأطفال الصغار الذين لا يجدون وسيلة تخلصهم مما هم فيه من القهر والذل ، ولا يعرفون طريقاً يستطيعون سلوكه للنجاة مما يلاقون في دار الكفر من ذل وهوان إما للزمانة والمرض ، وإما للفقر والجهل بمسالك الأرض وتقطع الأسباب والحيل ، وتعمية السبل عليهم يرجى أن يعفو الله عنهم ، ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر (٢) ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلّا وسعها .

أما من تحققت فيه أولى الصفتين الآتيتين وتخلفت أخراهما بأن كان قادراً على الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام لكنه يمكنه إظهار دينه بها فإن الهجرة في حقه لا تجب ولكن تستحب .

قال الإمام الشافعي في الأم :

« ولما فرض الله عز وجل » الجهاد على رسوله ﷺ وجاهد المشركين بعد إذ كان أباحه وأثنى رسول الله ﷺ في أهل مكة ، ورأوا كثرة من دخل في دين الله عز وجل اشتدوا على من أسلم منهم ففتنواهم عن دينهم أو من فتنوا منهم ؛ فعذر الله من لم يقدر على الهجرة من المفتونين فقال : « إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » ، وبعث إليهم رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل » جعل لكم مخرجاً وفرض على من قدر على الهجرة الخروج إذا كان ممن يفتن عن دينه ولا يمتنع فقال

(١) النساء آية رقم ٩٨ .

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج ٥ ص ١٩١ بتصرف ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

في رجل منهم توفي تخلف عن الهجرة فلم يهاجر : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ الآية وأبان الله « عز وجل » عذر المستضعفين فقال : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

« قال الشافعي رحمه الله تعالى » ويقال : « عسى » من الله واجبة .

« قال الشافعي » ودلت سنة رسول الله ﷺ على أن فرض الهجرة على من أطاقتها إنما هو على من فتن عن دينه بالبلد الذي يسلم بها ؛ لأن رسول الله ﷺ أذن لقوم بمكة أن يقيموا بها بعد إسلامهم — العباس بن عبد المطلب وغيره — إذ لم يخافوا الفتنة وكان يأمر جيوشه أن يقولوا لمن أسلم : « إن هاجرتم فلکم ما للمهاجرين وإن أقمتم فأنتم كأعراب وليس يغيرهم إلا فيما يحل لهم » (٢) .

وقال صاحب المغني :

« الناس في الهجرة على ثلاثة أضرب :

أحدهما : من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذه تجب عليه الهجرة ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب لأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه ؛ والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

الثاني : من لا هجرة عليه وهو من يعجز عنها إما لمرض أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والولدان وشبههم فهذا لا هجرة عليه ؛ لقوله تعالى :

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولا توصف باستحباب لأنها غير مقدور عليها .

والثالث : من تستحب له ولا تجب عليه ، وهو من يقدر عليها لكنه يتمكن من إظهار دينه وإقامته في دار الكفر فتستحب له ليمكن من جهادهم وتكثير المسلمين ومعاونتهم ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم ورؤية المنكر بينهم ، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه دون الهجرة . وقد كان العباس عم النبي ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه وروينا أن نعيم النحام حين أراد أن يهاجر جاءه قومه بنو عدى فقالوا له : أقم عندنا وأنت على دينك ونحن نمنعك ممن يريد أذاك واكفنا ما كنت تكفينا ، وكان يقوم بيتامي بنى عدى وأراملهم فتخلف عن الهجرة مدة ثم هاجر بعد . فقال له النبي ﷺ « قومك كانوا خيراً لك من قومي لى قومي أخرجوني وأرادوا قتلى وقومك حفظوك ومنعوك . فقال : يارسول الله بل قومك أخرجوك إلى طاعة الله وجهاد عدوه وقومي ثبطوني عن الهجرة وطاعة الله أو نحو هذا القول » (١) .

وقال الحافظ ابن حجر في شرح قول البخارى : « باب لا هجرة بعد الفتح » قوله : « باب لا هجرة بعد الفتح » أى فتح مكة أو المراد ما هو أعم من ذلك إشارة إلى أن حكم غير مكة في ذلك حكمها ؛ فلا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون أما قبل فتح البلد فمن به من المسلمين أحد ثلاثة .

الأول : قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجبه فالهجرة منه واجبة .

الثاني : قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته فمستحبة لتكثير المسلمين بها ومعاونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم .

الثالث : عاجز بعذر من أسر أو مرض أو غيره ؛ فتجوز له الإقامة فإن حمل

(١) ج ٨ ص ١٦٣ .

نفسه وتكلف الخروج منها أجر» (١).

هذا هو حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام وبقيت أقسام أخر للهجرة استوفى الحديث فيها مع سابقها ابن العربي « رحمه الله » في كتابه « أحكام القرآن » حيث قال :

الهجرة تنقسم إلى ستة أقسام :

الأول : الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ مع غيرها من أنواعها بينها في شرح الحديث ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان ، « فمن » أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام ، فإن بقي فقد عصي . ويختلف حاله كما تقدم بيانه .

الثاني : الخروج من أرض البدعة . قال ابن القاسم سمعت مالكا يقول : لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف .

وهذا صحيح ، فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد كنت قلت لشيوخنا الإمام الزاهد أبى بكر الفهرى ارحل عن أرض مصر إلى بلادك .

فيقول : لا أحب أن أدخل بلاداً غلب عليها كثرة الجهل وقلة العقل . فأقول له :

فارتحل إلى مكة أقم في جوار الله وجوار رسوله ؛ فقد علمت أن الخروج عن هذه الأرض فرض لما فيها من البدعة والحرام ، فيقول : وعلى يدي فيها هدى كثير ، وإرشاد للخلق وتوحيد ، وصد عن العقائد السيئة ودعاء إلى الله « عز

(١) فتح الباري ج ١٢ ص ١٦٣ .

وجل « وتعالى لكلام بيني وبينه فيها إلى حد شرحناه في ترتيب « الباب » الرحلة واستوفيناه .

الثالث : الخروج عن أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

الرابع : الفرار من الإذاية في البدن وذلك فضل من الله « عز وجل » أرخص فيه ؛ فإذا خشي المرء على نفسه من موضع فقد أذن الله « سبحانه » له في الخروج عنه ، والفرار بنفسه ليخلصها عن ذلك المحذور .

وأول من حفظناه فيه الخليل إبراهيم « عليه السلام » لما خالف من قومه قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ وقال ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ وموسى قال الله سبحانه فيه ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وذلك يكثر تعداده .

ويلحق به وهو « الخامس » خوف المرض في البلاد الوحمة والخروج منها إلى الأرض النزهة .

وقد أذن النبي ﷺ للرعاء حين استوخموا المدينة أن يتزهوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا ، وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون ، فمنع الله « سبحانه » منه بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ .

السادس : الفرار خوف الإذاية في المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه والأهل مثله أو أكد ، فهذه أمهات قسم الحرب « (١) » .

من مات وهو في طريق هجرته

من خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم مات أثناء الطريق وقبل وصوله إلى الدار التي قصدتها للهجرة فقد وقع أجره على الله « تبارك وتعالى » قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ »

(١) ج ١ ص ٤٨٣ : ٤٨٥ .

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١﴾ .

ولهذه الآية سبب نزول رواه أبو يعلى :

عن ابن عباس « رضى الله عنهما » قال خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً فقال لأهله : احمّلونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى ﷺ فنزل الوحي : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ﴾ حتى بلغ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٢) .

وهذا الحكم جار فى كل الحالات التى تشبه هذه الحالة إلى يوم القيامة . سواء أقلنا بقالة الجمهور من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهى الصحيح .

أم قلنا بقالة غيرهم من أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فإن الخلاف كما هو معروف ليس فى جريان الحكم على الحوادث المشابهة لصورة السبب ، وإنما الخلاف هو فى مجرد الدلالة على جريان الحكم فى هذه الحوادث المشابهة بأى وجه من وجوه الدلالة على جريان الحكم فى هذه الحوادث المشابهة ، بأى وجه من وجوه الدلالة هو ، أهو بنفس اللفظ العام لدخول جميع تلك الحوادث تحت عموم أم هو بالقياس على الحادثة الأولى التى هى صورة السبب ؟ فسواء أقلنا إذا بهذا أم بذلك فإن جريان هذا الحكم على الحوادث المشابهة لصورة السبب هنا مما لا خلاف فيه أصلاً .

وقال أيضاً عز من قائل :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) سورة النساء جزء من الآية رقم ١٠٠ .

(٢) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات « مجمع الزوائد ج ٧ ص ١٠ » .

(٣) سورة الحج ٥٨ ، ٥٩ .

أى والذين خرجوا مهاجرين فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، وطلباً لما عنده ، وتركوا الأوطان ، والأهلين ، والخلان ، وفارقوا بلادهم فى الله ورسوله ، ونصرة لدين الله ، ثم قتلوا فى الجهاد أو ماتوا حتف أنفهم من غير قتال ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، وليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقرر به أعينهم ^(١) فهو يرزق من يشاء بغير حساب ، وليدخلهم الجنة التى أعد لهم فيها ما يحبونه ^(٢) من كل أنواع النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة التى قدموها فى دنياهم .

موالاة من لم يهاجر مع قدرته على الهجرة

لا يجوز للمؤمنين أن يوالوا هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام إلا أنهم ما زالوا فى دار الشرك ولم يهاجروا منها إلى دار الإسلام قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٣) .

أى أن الذين دخلوا فى الدين الإسلامى عقيدة ، ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً .. ولم يهاجروا إلى دار الإسلام التى تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ، ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ، ويحقق فيها وجوده الكامل ، بعدما تحقق له وجوده فى مكة نسبياً ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه له بهذا الوجود المميز .

وجد هؤلاء فى مكة ، أو فى الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ، ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣١ .

(٢) البيضاوى ص ٤٥٨ بتصرف .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٧٢ .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ، ولم يجعل الله لهم ولاية بكل أنواع الولاية — مع هذا المجتمع لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامى ، وهذا الحكم مفهوم ومنطقى مع طبيعة هذا الدين ومع منهجه الحركى الواقعى ؛ فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية . ولكن هناك رابطة العقيدة ، وهذه لا ترتب — وحدها — على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ، اللهم إلا أن يعتدى عليهم في دينهم » .

فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم . فإذا استنصروا المسلمين — في دار الإسلام في مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها . على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك في دينهم وعقيدتهم . ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود . فهذه لها الرعاية أولاً .. حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل في المجتمع الإسلامى . والتعقيب على هذا الحكم بأن كل أعمال الناس تحت بصره — سبحانه — يرى مداخلها ومخارجها ومقدماتها ونتائجها . وبواعثها وآثارها^(١) .

هجرة أخرى عامة تجب على كل أحد في كل أرض

وبعد أن تناولنا الهجرة الجسمانية التى تكون من بلد إلى بلد نتناول : هجرة أخرى تعتبر أصلاً هجرة الأجساد ألا وهى الهجرة بالقلب إلى الله « سبحانه وتعالى » وإلى رسوله ﷺ .

وهذه الهجرة يهاجر فيها المسلم بقلبه من محبة غير الله إلى محبته .

ومن عبودية غيره إلى عبوديته . ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ،

(١) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٥٥٨ ، ١٥٥٩ بتصرف .

وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

والفرار إليه « سبحانه وتعالى » يتضمن إفراده بالطلب والتعبد ولوازمهما ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما في الكون من المكروه والحذور الذي يفر منه العبد ، فإنما أوجبه مشيئة الله وحده ، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه .

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ « وأعوذ بك (٢) منك » وقوله « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » (٣) فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيز : فار مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقته إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيز بالله منه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً

(١) سورة الذاريات الآية رقم ٥٠ .

(٢) روى الإمام مسلم بسنده عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائش فالتصته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول « اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » صحيح مسلم كتاب الصلاة — باب ما يقال في الركوع والسجود .

(٣) عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبئك الذي أرسلت » البخاري كتاب الدعوات باب إذا بات طاهراً .

ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيز منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك أفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ، مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه فى حال فراره من الأول خائف منه حذراً ألا يكون الثاني يفيد منه بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدر وشاء ما يفر منه فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ، وهو معنى الهجرة إلى الله « تعالى » ، ولهذا قال النبى ﷺ المهاجر من هجر ما نهى الله عنه « (١) » ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شئ إلى شئ لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر .

وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بُلى بهؤلاء الثلاثة ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا ينفك فى هجرته إلا بالمهمات (٢) .

* * *

(١) صحيح البخارى كتاب الإيمان . باب : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

(٢) زاد المهاجر إلى ربه للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ٦٩١ -

٧٥١ هـ من ص ١٦ إلى ص ٢٠ بتصرف مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر .

خاتمة البحث

وتتناول

عبراً مستخلصة

الحمد لله أولاً وآخراً وله وحده الحمد والشكر ، وبعد أن انتهيت من كتابة هذه الرسالة المتواضعة لا بد لي من الإشارة لبعض النتائج المستخلصة منها وإن كنت قد اتبعت ذلك بعد كل فقرة من فقرات الرسالة .

* * *

أولاً : إن هجرة المصطفى ﷺ ليست أول الهجرات في حياة الأنبياء بل سبقتها هجرات عديدة لبعض الأنبياء « عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليمات » .

ثانياً : إن كبرياء السادة وملق الأتباع يضع أمام المصلحين عقبات جساماً دون تحطيمها جهاد وجلاد ، ينبغي أن يتبها لهما المصلحون حتى لا تروعههم المفاجأة .

ثالثاً : إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد ، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم .

رابعاً : يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك سواء كان الحجير من أهل الكتاب أو كان مشركاً .

خامساً : قد تحدث حماية للداعية إلى الله « تبارك وتعالى » من أحد أقربائه الذين ليسوا متبعين لدعوته ، وفي ذلك فائدة عظيمة للدعوة حين تكون مستضعفة .

سادساً : ينبغي على الداعية ألا يقتصر في دعوة الناس إلى الخير ضمن مجالسه وفي بيته فحسب ، بل يجب عليه أن يذهب إلى كل أماكن التجمع للناس أو يغلب على ظنه أن الناس يتجمعون فيه ، كما أنه لا ينبغي له أن يئأس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى .

سابعاً : إن الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ منه حقيقة الإسلام نفسه فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها ، مهما كان شأنه أو عمله أو اختصاصه .

ثامناً : إن أى عمل من الأعمال لكى ينجح لا بد له من تخطيط ، وتنظيم ومتابعة ، وبدون ذلك لا يمكن أن ينجح .

تاسعاً : إن الجندى الصادق المخلص لدعوة الإصلاح ، يفدى قائده بحياته ففى سلامة القائد سلامة للدعوة ، وفى هلاكه خذلانها ووهنها .

عاشرأ : إن للشباب فى نجاح الدعوات دورأ كبيرأ ، فهم عماد كل دعوة إصلاحية وباندفاعهم للتضحية والفداء تتقدم الدعوات سريعأ نحو النصر والغلبة .

حادى عشر : لا يجوز للمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها ذليلاً ومضطهدأ فى حريته الدينية والشخصية ، بل يجب عليه فى هذه الحالة أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرأ فى تصرفه وإقامة دينه ؛ وإلا كانت إقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصى .

ثانى عشر : لا تجب الهجرة على المسلمين المقيمين فى دار إسلامية قد فتحها المسلمون سواء كانت دار فسق أو دار معصية لأنها دار إسلام وانتشار المعاصى أو الفسوق بها لا يوجب الهجرة منها على المسلمين .

ثالث عشر : إن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الإسلامى .

رابع عشر : إن أى دولة لا يمكن أن تقوم أو تنهض إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يتوفر ذلك إلا بالتآخي والمحبة المتبادلة بين أعضاء الأمة ، وهذا التآخي وهذه المحبة لابد وأن يسبقها عقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها .

خامس عشر : إن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة لا فرق فى ذلك بين من عاصروا النبى ﷺ ولا من جاء من بعدهم حتى اليوم .

* * *

هذه هى بعض النتائج المستنبطة من هذا البحث ، وهذا جهد المقل ، نسأل
الله أن يتجاوز عما وقع من تقصير أو زلات ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا
وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهارس

— فهرس المراجع —

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — أحكام القرآن .
- لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي — تحقيق / علي محمد البجاوى . طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة « بلا تاريخ » .
- ٣ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .
- لأبي السعود محمد بن محمد العمادى — طبع ونشر دار المصحف بالقاهرة « بلا تاريخ » .
- ٤ — الإسراء والمعراج :
- للشيخ محمد متولى الشعراوى — الطبعة الرابعة بدار الشروق ١٩٧٥ م .
- ٥ — الإصابة في تمييز الصحابة :
- للحافظ ابن حجر العسقلانى — طبع المطبعة الشرقية ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .
- ٦ — أضواء على الهجرة :
- للشيخ توفيق محمد سبع — طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣ هـ . ١٩٧٣ م .
- ٧ — إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية :
- للشيخ على بن برهان الدين الحلبي الشافعى — طبع بمطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر « بلا تاريخ » .

٨ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل :

للقاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البضاوى
الناشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة « بلا تاريخ » .

٩ — البداية والنهاية :

لعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير طبع ونشر دار الفكر العربى « بلا
تاريخ » .

١٠ — تأملات فى البيان النبوى :

للدكتور إبراهيم عوضين — الطبعة الثانية بمطبعة دار السعادة بمصر
١٤٠١ هـ . ١٩٨١ م .

١١ — تاج اللغة وصحاح العربية :

للجوهرى — تحقيق أحمد عبد الغفور العطار . الطبعة الثانية بدار العلم
للملايين بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٢ — تاج العروس :

لأبى الفيض محمد مرتضى بن محمد الزبيدى طبعة دار صادر بيروت
١٣٨٦ هـ . ١٩٦٦ م . الناشر دار بيا للنشر والتوزيع بنغازى .

١٣ — تاريخ الرسول والملوك المسمى بتاريخ الطبرى .

لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى — تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر « بلا تاريخ » .

١٤ — تاريخ الكامل :

لأبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ .

١٥ — تاريخ الإسلام السياسى :

دكتور / حسن إبراهيم حسن . طبعة دار النهضة المصرية ١٩٦٦ م .

١٦ — تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة :

للدكتور محمد الطيب النجار الطبعة الثالثة بدار الاعتصام ١٤٠١ هـ /
١٩٨١ م .

١٧ — تهذيب اللغة :

للأزهري — تحقيق دكتور / عبد السلام هارون وآخرين طبعة الدار
المصرية للتأليف والنشر « بلا تاريخ » .

١٨ — التسهيل لعلوم التنزيل :

للإمام محمد بن أحمد بن جزى الغرناطي المالكي طبعة دار الكتب الحديثة
« بلا تاريخ » .

١٩ — تفسير القرآن العظيم :

للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي — طبعة دار إحياء التراث العربي عيسى
البابى الحلبي بمصر « بلا تاريخ » .

٢٠ — التفسير الوسيط :

لجماعة من علماء مجمع البحوث الإسلامية طبعة أولى « دورى » .

٢١ — تفسير المراغي :

للأستاذ أحمد مصطفى المراغي — الطبعة الخامسة بمطبعة مصطفى الحلبي
بمصر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

٢٢ — تفسير المنار :

للشيخ محمد رشيد رضا — طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب « بلا
تاريخ » .

٢٣ — جامع الأصول في أحاديث الرسول :

لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري — تحقيق عبد القادر
الأرناؤوط — طبع ونشر وتوزيع مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح « بلا تاريخ » .

- ٢٤ — الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبي » :
 لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي — طبعة دار الشعب « بلا
 تاريخ » .
- ٢٥ — جوامع السيرة النبوية :
 لابن حزم الأندلسى مكتبة التراث الإسلامى ، ودار الجيل للطباعة بالقاهرة
 ١٩٨٢ م .
- ٢٦ — حياة محمد ﷺ :
 للدكتور / محمد حسين هيكل . الطبعة الثالثة بمطبعة دار الكتب المصرية
 ١٣٥٤ هـ .
- ٢٧ — خاتم النبيين :
 للشيخ محمد أبو زهرة — طبع ونشر دار الفكر العربى بمصر ١٩٧٩ م .
- ٢٨ — دراسات تاريخية للعرب وظهور الإسلام :
 للدكتور محمد مصطفى النجار . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة « بلا
 تاريخ » .
- ٢٩ — دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين :
 لمحمد بن علان الصديقى — طبع بمطبعة أبى الهول بالقاهرة ١٣٤٧ هـ —
 ١٩٢٨ م . الناشر جمعية النشر والتأليف الأزهرية .
- ٣٠ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى :
 للسيد محمود الألوسى البغدادى — طبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ —
 ١٩٧٨ م .
- ٣١ — الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام :
 لعبد الرحمن الصهيبى تحقيق عبد الرحمن الوكيل — طبعة دار النصر للطباعة
 الناشر دار الكتب الحديثة « بلا تاريخ » .

٣٢ — زاد المعاد :

للمحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — طبع
بمطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر « بلا تاريخ ».

٣٣ — زاد المهاجر إلى ربه :

لابن قيم الجوزية . طبع بمطبعة أنصار السنة المحمدية « بلا تاريخ » .

٣٤ — سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد :

للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ج ٢ تحقيق الدكتور مصطفى
عبدالواحد ١٣٩٤ / ١٩٧٤ م وجزء ٣ تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق
حلمى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م . طبع بمطبعة الأهرام التجارية صار عن لجنة
الإحياء الإسلامى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣٥ — السراج المنير شرح الجامع الصغير :

للشيخ على بن أحمد بن نور الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزى . الطبعة
الأولى بالمطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٠٤ هـ .

٣٦ — سنن الترمذى :

لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة تحقيق / الأستاذ أحمد محمد شاكر
الطبعة الثانية شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٩٧ هـ /
١٩٧٧ م .

٣٧ — سنن الدارمى :

لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى — تحقيق السيد عبد الله هاشم
يمانى المدني . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٣٨ — سنن النسائى :

لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى . طبع بمطبعة مصطفى الحلبي
بالقاهرة ١٩٦٤ م .

٣٩ — سنن ابن ماجه :

للمحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه — تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي — طبعة عيسى الباب الحلبي بمصر ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م .

٤٠ — سنن أبي داود :

لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — طبعة دار إحياء التراث العربي ببلن ان الناشر دار إحياء السنة النبوية « بلا تاريخ » .

٤١ — السيرة النبوية :

لأبي محمد عبد الملك بن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف سعد — الطبعة الثالثة طبع بمطبعة الفجالة الجديدة . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٤٢ — السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة :

للدكتور محمد محمد أبو شهبة — طبع دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

٤٣ — السيرة النبوية دروس وعبر :

للدكتور مصطفى السباعي — طبع ونشر عدنان زرزور سوريا ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٤٤ — سيرة الرسول :

للشيخ محمد عزة دروزة الطبعة الثانية بمطبعة عيسى الحلبي بمصر ١٣٨٤ هـ . ١٩٦٥ م .

٤٥ — شرح السنة :

للإمام البغوي — تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط . طبع وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية « بلا تاريخ » .

٤٦- شرح المواهب اللدنية :

للشيخ محمد بن عبد الباقي الزرقاني على المواهب للقسطلاني طبعة ١٢٩١ هـ .
« لم يذكر اسم المطبعة » .

٤٧- شرح النووى على صحيح مسلم :

ليحيى بن شرف النووى . طبع بالمطبعة المصرية « بلا تاريخ » .

٤٨- صحيح البخارى :

لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل إبراهيم بن المغيرة بن بردازيه البخارى . طبعة
دار الشعب « بلا تاريخ » .

٤٩- صحيح مسلم:

لأبى الحسن مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . مصورة
بمطابع شركة الإعلانات الشرقية ومؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر
بالقاهرة . من مطبعة استانبول . المطبوعة ١٣٢٩ هـ .

٥٠- صفة جزيرة العرب :

لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمداني — تحقيق محمد بن بليهد النجدي طبعة
دار السعادة بالقاهرة ١٩٥٣ م .

٥١- صور من حياة الرسول :

لأمين دويدار . الطبعة الرابعة بدارالمعارف بالقاهرة ١٩٧٨ م .

٥٢- الطبقات الكبرى

لأبى عبد الله محمد بن سعد . طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة
١٣٥٨ هـ .

٥٣- طريق الهجرة :

للدكتور عبد العزيز كامل محاضرة ألقاها بقاعة الإمام محمد عبده ١٣٨١ هـ /
١٩٦٢ م .

٥٤ — عبقرية عمر :

للأستاذ عباس محمود العقاد . طبعة دار المعارف بمصر ١٣٩٩ هـ
١٩٧٩ م .

٥٥ — عقيدة المؤمن :

للشيخ أبو بكر الجزائري مطبعة عيسى الحلبي بمصر . الناشر مكتبة الكليات
الأزهرية « بلا تاريخ » .

٥٦ — على طريق الهجرة :

للأستاذ حسن فتح الباب سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . السنة الثالثة
العدد الثامن والعشرون . طبع دار النصر للطباعة .

٥٧ — عمدة القارى شرح صحيح البخارى :

لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني . الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى
الحلبي بمصر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٥٨ — غريب الحديث :

لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي . طبعة مصورة عن مطبوعات دائرة
المعارف العثمانية بمحدر اباد الهند ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٥٩ — الفائق في غريب الحديث :

للعلامة جار الله محمود بن عمر الزخشرى . تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى . الطبعة الثانية بمطبعة عيسى الحلبي بمصر « بلا
تاريخ » .

٦٠ — فتح البارى :

للمحافظ أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى — تحقيق طه عبد الرؤوف
سعد ومصطفى محمد الهوارى والسيد محمد عبد المعطى . طبعة شركة الطباعة
الفنية المتحدة ومكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٦١ — فصول من السيرة النبوية :

للدكتور عبد المنعم السيد حسن . طبعة دار المطبوعات الدولية بالقاهرة
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٦٢ — فقه السيرة :

للشيخ محمد الغزالي — تحقيق الشيخ محمد نصر الدين الألباني . الطبعة
السابعة بمطبعة حسان الناشر دار الكتب الحديثة ١٩٧٦ م .

٦٣ — فقه السيرة :

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . الطبعة السابعة بدار الفكر بيروت
« بلا تاريخ » .

٦٤ — في ظلال القرآن :

للأستاذ سيد قطب . الطبعة العاشرة بدار الشروق بيروت ١٤٠٢ هـ —
١٩٨٢ م .

٦٥ — القاموس المحيط :

لمجد الدين الفيروزبادي . الطبعة الثالثة بالمطبعة المصرية ١٤٠٢ هـ —
١٩٨٢ م .

قصص القرآن :

لمحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي والسيد
شحاتة . طبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .

٦٧ — الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

لأبي القسم جارالله محمود الزمخشري — تحقيق محمد الصادق قمحاوي —
طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

٦٨ — لسان العرب :

لابن منظور — تحقيق عبد الله على الكبير . طبعة دار المعارف بمصر

١٩٧٩ م .

٦٩ — مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :

للمحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى طبعة مكتبة المقدسى بالقاهرة
« بلا تاريخ » .

٧٠ — محاسن التأويل « تفسير القاسمى » :

للشيخ محمد جمال الدين القاسمى — تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى . طبعة دار
إحياء الكتب العربية « عيسى الحلبى » « بلا تاريخ » .

٧١ — مختار الصحاح :

محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى . الطبعة الثالثة بالمطبعة الأميرية
بيولاق ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م .

٧٢ — المستدرك على الصحيحين فى الحديث :

للإمام أبى عبد الله محمد النيسابورى المعروف بالحاكم . مكتبة النصر الحديثة
— الرياض « بلا تاريخ » .

٧٣ — المسند :

للإمام أحمد بن حنبل . الطبعة الثانية بمطبعة المكتب الإسلامى ببيروت —
دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٧٤ — معارك الإسلام فى العصر النبوى :

للدكتور محمد رجب البيومى . الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة
١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .

٧٥ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :

للأستاذ محمد عبد الباقى — طبعة دار الشعب ١٣٧٨ هـ .

٧٦ — معجم البلدان :

لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى طبعة صادر بيروت ١٣٧٦ هـ .

٧٧ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :

لأبي عبد الله بن عبد العزيز البكري — تحقيق مصطفى السقا — طبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٤٩ م نشر المعهد الخلفي للأبحاث المغربية .

٧٨ — المعجم الجغرافي في البلاد العربية والإسلامية :

لمحمد آل جاسر . طبعة أولى بدارالجمامة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٧٩ — المغنى :

لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة علي مختصر أبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرق . الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر « بلا تاريخ » .

٨٠ — مفاتيح الغيب أو « التفسير الكبير » :

للفخر الرازي . الطبعة الثانية دار الكتب العلمية — طهران « بلا تاريخ » .

٨١ — المفردات في غريب القرآن :

لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني — تحقيق محمد سيد كيلاني مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

٨٢ — مقاييس اللغة :

لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الثانية مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

٨٣ — مقدمة ابن الصلاح :

لعثمان بن أبي ناصر الشافعي — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م .

٨٤ — من دروس الهجرة :

للدكتور سعد ظلام . طبعة دارالمعارف بمصر سلسلة اقرأ « ٤٥١ » نوفمبر ١٩٧٩ م .

٨٥ — الموطأ :

للإمام مالك بن أنس تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة دار الشعب « بلا تاريخ » .

٨٦ — النحو الوافي :

للدكتور عباس حسن . الطبعة الخامسة بدار المعارف بمصر ١٩٨٠ م .

٨٧ — النهاية في غريب الحديث والأثر :

للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى بن الأثير . طبع بالمطبعة العثمانية ١٣١١ هـ .

٨٨ — الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق :

للأستاذ محمد عبد الله السمان . سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . السنة الرابعة . الكتاب السادس والأربعون ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٨٩ — الهجرة فى القرآن :

للأستاذ محمد الدسوقي . طبعة دارالمعارف بمصر سلسلة اقرأ . كتاب رقم ٣٣٨ فبراير ١٩٧١ .

٩٠ — وحي القلم :

لمصطفى صادق الرافعى . ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد عريان — الطبعة الرابعة بمطبعة الاستقامة المكتبة التجارية الكبرى بمصر « بلا تاريخ » .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٣
شكر وتقدير	٥
المقدمة	٧
تمهيد ويتضمن مبحثين	١١
المبحث الأول : مورد مادة هجر في لغة العرب	١٣
المبحث الثاني : هجرة من قبله ﷺ من الأنبياء	١٩
نماذج لهجرات بعض الأنبياء	٢١
هجرة سيدنا إبراهيم	٢١
تخطيم سيدنا إبراهيم للأصنام	٢٢
هجرته « عليه الصلاة والسلام » إلى الشام	٢٣
هجرته إلى مصر	٢٤
عودته إلى الشام	٣١
هجرته بابنه إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة	٣١
هجرة سيدنا لوط « عليه الصلاة والسلام »	٣٢
هجرة سيدنا موسى « عليه الصلاة والسلام »	٣٦
خروجه إلى مدين	٣٨
مصاهرة موسى للشيخ ثم بعثته	٤٠
عبر مستخلصة من هذه الهجرة	٤٢
هجرة موسى وقومه من مصر	٤٤

الباب الأول

كيف كان موقف المشركين من دعوة الإسلام هو الحامل لأهلها على
الهجرة ٤٧

الفصل الأول

- ٤٨ الأسباب التي جعلتهم يقاومون الإسلام
٤٩ تمهيد
٤٩ مفاجأة الرسول لهم بهذه الدعوة وعدم توقعهم لها
٥٠ الحقد والحسد والتنافس
٥١ إثبات صحة عقيدة التوحيد وفساد عقيدة الشرك
٥٣ جهلهم للنبوة ولطبيعتها
٥٥ اشتغال الدعوة على مبادئ اجتماعية عادلة لا يقبلها شرفاء مكة ورؤساؤها
٥٦ تقرير الإسلام لحرية العقيدة
٥٧ إبدال الإسلام العصبية القبلية والحمية الجاهلية بالعزة الإسلامية

الفصل الثاني

- ٥٩ الوسائل التي استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية
٥٩ مواجهة قریش للرسول ولدعوته ولأتباعه بالسخرية والاستهزاء
٦٢ التشويش على الناس بمواجهة الوحي بالأساطير وبلهو الحديث
٦٣ استخدام وسيلة البطش والتعذيب ضد الرسول وصحابته
٦٦ محاولتهم فتنه المسلمين بالإكراه
٦٩ بلال بن رباح
٦٩ ال ياسر
٦٩ خباب بن الارت
٧٦ فتنه المسلمين باغتصاب الوالدين عليهم
٧٧ طمأنة بعض المسلمين والتعهد لهم بحمل ذنوبهم إذا رجعوا عن دينهم

الموضوع	الصفحة
مساومته ﷺ بعرض الأمور الدنيوية المغرية عليه لاستأثته	٧٨
مطالبتهم للرسول ببعض المعجزات	٨٠
محاولتهم بث الفرقة بين الرسول وعمه أبي طالب	٨٢
التشنيع والدعاية وترويج الإشاعات الكاذبة	٨٤
المقاطعة الظالمة	٨٧
نقض الصحيفة	٨٨
وبما ينبغي الإشارة إليه هنا	٨٨

الباب الثاني

هجرة الصحابة « راضوان الله عليهم » إلى الحبشة	٩٥
---	----

الفصل الأول

هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة	٩٧
وقت خروجهم إليها	٩٨
أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى	٩٨
استقبال النجاشي للمهاجرين من المسلمين	٩٩
رجوع مهاجري الحبشة إلى مكة وسببه	٩٩
قصة الغرائيق وتفنيدها	٩٩

الفصل الثاني

الهجرة الثانية إلى الحبشة	١٠٥
قريش تحاول الوقعة بين المسلمين والنجاشي	١٠٥
حوار بين جعفر والنجاشي	١٠٧
محاولة ثانية للدرس بين المهاجرين والنجاشي	١٠٩
وقفة مع الأحداث السابقة	١١٠

الباب الثالث

هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة	١٢١
---------------------------------	-----

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
طور الإعداد للهجرة	١٢٣
تمهيد	١٢٣
عبر مستخلصة
الرسول يعرض نفسه على القبائل	١٢٨
خروجه إلى الطائف	١٢٨
قصة عداس مع رسول الله	١٢٩
خروج الرسول من الطائف	١٣٠
دخول النبي مكة	١٣١
وقفة مع ماسبق	١٣١
الدعوة في مواسم الحج	١٣٧
قصة أبي الحيسر وإسلام إياس بن معاذ	١٣٨
إسلام سويد بن الصامت	١٤٠
إسلام أهل المدينة	١٤٠
بيعة العقبة الأولى	١٤٣
على أى شيء كانت هذه البيعة	١٤٤
أول سفير في الإسلام	١٥٣
عبر مستخلصة مما سبق	١٥٤
الظروف والعوامل التي ساعدت على سرعة انتشار الإسلام في المدينة	١٥٦
لقاء الرسول بالأنصار في العقبة الثانية	١٦٠
العباس يستوثق للرسول	١٦١
عهد الرسول على الأنصار والمبايعة	١٦٢
اعتراض أبي الهيثم بن التيهان	١٦٢
مقولة العباس بن عباد بن نضلة	١٦٢
مقالة أسعد بن زرارة	١٦٣

الموضوع	الصفحة
أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ	١٦٤
أسماء النقباء الإثني عشر	١٦٤
صرخات الشيطان لإخبار أهل مكة بالبيعة	١٦٥
موقف قريش من العقبة	١٦٥
وقفة مع أحداث هذه البيعة	١٦٧

الفصل الثاني

تنفيذ الهجرة	١٧٩
إذن الرسول لأصحابه بالهجرة	١٨٠
أول مهاجر إلى المدينة	١٨١
أم سلمة	١٨١
هجرة عامر بن ربيعة وزوجه	١٨٣
المشركون يفتنون بعض المهاجرين	١٨٣
هجرة رسول الله ﷺ	١٨٤
اجتماع قريش بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول	١٨٥
تخطيط الرسول للهجرة	١٨٧
رفيقه في الهجرة	١٨٨
مهمة عليّ	١٨٩
إعداد الراحلة	١٨٩
اختيار من يدهما على الطريق	١٩٠
إعداد الطعام اللازم لهذه الرحلة	١٩١
اختيار مكان الاختباء بعد الخروج	١٩٢
التخايز على أهل مكة وإمداد الرسول وصحبه بما في مكة من معلومات	١٩٢
اختيار من يمدّهما بالزاد والتموين في الغار	١٩٣
خروج الرسول للهجرة ووصوله إلى الغار	١٩٤
ما قاله الرسول عند خروجه	١٩٥
البحث عن رسول الله ﷺ وصحبه في كل مكان	١٩٦

الموضوع	الصفحة
استكمال المسيرة المباركة إلى المدينة	١٩٨
الطريق الذي سلكوه في هجرتهم	١٩٨
انتظار المسلمين بقاء مقدم الرسول	٢٠٠
منزل رسول الله ﷺ	٢٠١
الرسول يؤسس مسجد قباء	٢٠١
المدة التي مكثها الرسول بقاء	٢٠٣
دخول الرسول ﷺ المدينة المنورة	٢٠٥
استقبال أهل المدينة لرسول الله ﷺ	٢٠٥
عبر مستخلصة	٢٠٦

الفصل الثالث

صفات المهاجرين كما تحدث عنها القرآن الكريم	٢٢٣
الإخلاص	٢٢٤
نصر الإسلام ودعوته	٢٢٦
الصدق	٢٣٠
التضحية	٢٣١
الصبر	٢٣١
جزاء المهاجرين	٢٣٢
سعة رزق الله لهم في الدنيا	٢٣٣
مغفرة ذنوبهم والعفو عن أخطائهم	٢٣٤
ارتفاع منزلتهم وسمو درجاتهم عند ربهم	٢٣٥
استحقاقهم الجنة والخلود فيها	٢٣٥

الفصل الرابع

أهم النتائج المترتبة على الهجرة	٢٣٧
الدعائم التي أقامها الرسول لبناء المجتمع الإسلامي بالمدينة	٢٣٨
الدعامة الأولى : بناء المسجد النبوي الشريف	٢٣٩

وقفه مع هذه الدعامة

٢٤٤	الدعامة الثانية : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٢٤٧	ما يستفاد من هذه المؤاخاة
٢٤٩	الدعامة الثالثة : صلة المسلمين بغيرهم
٢٥٠	عقد معاهدة بين المسلمين واليهود وغيرهم
٢٥٥	وقفه مع هذه المعاهدة
٢٦١	التأريخ بالهجرة

الفصل الخامس

٢٦٧	أحكام الهجرة
٢٦٧	الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام
٢٧٠	على من تجب الهجرة
٢٧٤	أقسام الهجرة عند أبي العربي
٢٧٥	من مات وهو في طريق هجرته
٢٧٧	موالاة من لم يهاجر مع قدرته عليها
٢٧٨	هجرة أخرى عامة
٢٨١	خاتمة البحث

الفهارس

٢٨٩	فهرس المراجع
٣٠١	فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٨٣ / ٨٨

الترقيم الدولي ٦ - ٦٤ - ١٤٢١ - ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس : DWFA UN ٢٤٠٠٤

هذا الكتاب

سيظل التاريخ يسجل إلى الأبد ، أن الهجرة المحمدية حدث جليل ، من أبرز أحداثه ذكرا ، وأخطرها شأنا ، وأبعدها أثرا .

وستظل الهجرة معينا لا ينضب أبدا لأصفى المبادئ ، وأسمى القيم ، لأنها تعد من الأحداث الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية .

ولقد كانت الهجرة منطلقا جديداً خصبا للدعوة الإسلامية ونشرها في أنحاء العالم الواسع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

والهجرة ولاشك مليئة بالعبء والحكم ، والحركة الإسلامية اليوم في أمس الحاجة لأن تعيش أحداث الهجرة النبوية ، وتسير معها خطوة خطوة لتأخذ منها الزاد الذي يعينها على تحمل أعباء الطريق ويسر لها المهمة التي تسعى من أجلها .

وهذا الكتاب يتناول أحداث الهجرة من خلال آيات القرآن الكريم مستخلصا منها العبر والحكم ، مبينا أهمية الهجرة وأنها كانت مرحلة جديدة لبناء الأمة الإسلامية وتكوين دولتها من أجل تبليغ رسالتها إلى جميع أنحاء المعمورة .

والكتاب في الأصل رسالة علمية نال بها المؤلف درجة « الماجستير » في التفسير وعلوم القرآن .

ودار الوفاء إذ تقدم هذا الكتاب للقراء الكرام تسأل الله عز وجل أن يعم به النفع والفائدة .

والله من وراء القصد ،،

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة .

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المراجعة لكية الأرباب ت ٢٤٧٧٢٩ / ٢٥٦٢٢ / ٢٥٦٢٣

تدقيق المنصورة : أمام لكية الطب ت ٢٤٧٧٢٣ من ب ٢٢٠ عكس DWFA UN 24004

تدقيق القاهرة : ١٩ ش شريف ت ٢٤٧٧٢٣ / ٢٤٧٥١٨ / ٢٤٧١٩٩

